الكتاب الثاني
فِي الحياةِ الأدبيةِ

الباب الأول
فِي الشعر

الفصل الأول
ازدهار الشعر

عُرِف الفاطميون بثراء دولتهم، وبَذَخِهم الذي لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم، وافتنُّوا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم، حتى يُخَيَّل إلى مَن يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعيادًا ومواسم، وكلها لهوًا ومرحًا، بالرغم مما كان في هذا العصر من سِنِي شدة وقحط ضُرِب بها المثل؛ ولكن هذه الأيام العجاف لم تمنع الفاطميين من الاحتفال بأيامهم التي اتخذوها لأنفسهم أعيادًا بجانب تلك الأعياد التي يتخذها باقي المسلمين، والأعياد التي يحييها مسيحيو مصر، ويشترك معهم فيها إخوانهم المسلمون. فكان الشعب في عصرهم يتظاهر بما يجلب السرور إلى نفسه، حتى لو كان ذلك عن طريق المجون وارتكاب المعاصي، وكانت الدولة تحتفل بهذه الأيام احتفالًا يتناسب مع عِظَم ملكهم، واتساع سلطانهم، ووفرة خيراتهم وأموالهم، وقد تكون هذه المبالغة منهم في حياتهم لونًا من ألوان التنافس السياسي بينهم وبين أعدائهم، فيقف أعداؤهم

على هذه الحياة البهيجة الفَرِحة، والنفقات الطائلة؛ فيعلمون أنهم أمام دولة قوية غنية، فتضعف همتهم عن مهاجمتها.

أمَّا هذه الأعياد التي استحدثوها في مصر؛ فقد روى المقريزي عن ابن الطوير المؤرخ: أنَّ الفاطميين كانوا يحتفلون بستة موالد: مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد علي بن أبي طالب، ومولد فاطمة بنت الرسول، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد الخليفة الحاضر(١).

وفي فصل آخر من خطط المقريزي تحدَّث المؤلف عن الأيام التي كان الفاطميون يتخذونها أعيادًا ومواسم، فقال: وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم، وهي موسم رأس السنة، وموسم أول العام، ويوم عاشوراء، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد علي بن أبي طالب، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليله نصفه، وموسم ليلة رمضان، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج، ويوم النوروز، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد، وخميس العدس(٢). وأضاف إلى ذلك أيام حفلات صلاة الجمعة، فقد كان الخلفاء يركبون في كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس في جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مرة، وفي جامع الحاكم مرة، وفي جامع عمرو بن العاص مرة، وينال الناس من الخليفة في هذه الجُمَع الثلاث رسومًا وهبات وصدقات(٣).

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٩٣.
(٢) الخطط: ج٢، ص٣٨٤ وما بعدها.
(٣) الخطط: ج٢، ص٣٩٢.

وأضاف أيضًا أيام الركوبات التي كان فيها الخليفة يركب في كل يوم سبت وثلاثاء إلى متنزهاته بالبساتين والمناظر التي بنوها لنزهاتهم[١]، ويوم سفر الحاج[٢]، وركوب الخليفة في أول شهر رمضان[٣]. وتحدث المقريزي كذلك في مكان آخر عن ليالي الجمع من شهر رجب وشعبان، وليلتي النصف منهما[٤]، فكل هذه الأيام التي كان يحتفل بها الفاطميون، سواء كانت أيام حزن مثل عاشوراء، أو أيام فرح تُمَدُّ فيها السمط الفاخرة، ويُنفق فيها عن بذخ وإسراف، ويصيب رجال الدولة وكل مَن يتصل بالقصر من النعم والخلع، كل بما يتناسب مع مكانته، وينال الشعب الذي يشارك أمراءه في أفراحهم وأحزانهم حظًّا مما كان يغدقه الخلفاء والأمراء عليه، فإذا مصر كلها تحتفل بهذه الأيام التي استَنَّها الفاطميون، وقد يطول بي الحديث لو توخَّيْتُ وصف هذه الحفلات الكثيرة، وأكتفي هنا بأن أعطي صورة ليومٍ واحد من أيام أعيادهم، نقلًا عن المقريزي عن المؤرخ المعاصر ابن المأمون في وصف موسم أول العام:

وأسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسمائة، وبادرَ المستخدمون في الخزائن وصناديق الإنفاق بحمل ما يحضر بين يدي الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة، ورسم جميع من يختص به من إخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصنائع والمستخدمات، وجميع الأستاذين العوالي والأدوان، وثنوا بحمل ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته، واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته، والأصحاب والحواشي والأمراء والضيوف والأجناد، فأمروا بتفرقته، والذي اشتمل عليه المبلغ في هذه السنة نظير ما كان قبلها. وجلس المأمون باكرًا على السماط بداره، وفرقت الرسوم على أرباب

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٣٨٨.
(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٣٨٩.
(٤) المصدر السابق: ج٢، ص٣٤٥.

الخدم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنتْه الأوراق، وحضرت التعاشير والتشريفات وزي الموكب إلى الدار المأمونية، وتسلم كل المستخدمين المدارج بأسماء مَن شرف بالحجبة ومصفات العساكر، وترتيب الأسمطة، وأصمد كل منهم إلى شغله، وتوجه لخدمته، ثم ركب الخليفة، واستدعى الوزير المأمون، ثم خرج من باب الذهب، وقد نشرت مظلته، وخدمت الرهجية، ورتب الموكب والجنائب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله، وجميع تجار البلدين من الجوهريين والصيارف والصاغة والبزازين وغيرهم وقد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة، وخرج من باب الفتوح، والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزيها، وأبواب حارات العبيد معلقة بالستور، ودخل من باب النصر، والصدقات تعم المساكين، والرسوم تُفرَّق على المستقرين، إلى أن دخل من باب الذهب، فلقيه المقرئون بالقرآن الكريم في طول الدهاليز إلى أن دخل خزانة الكسوة الخاص، وغير ثياب الموكب بغيرها، وتوجه إلى تربة آبائه للترحم على عادته، وبعد ذلك إلى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة، وعبيت الأسمطة وجرى الحال فيها، وفي جلوس الخليفة، ومن جرت عادته، وتهيئة قصور الخلافة، وتفرقة الرسوم على ما هو مستقر.

وتوجه الأجل المأمون إلى داره فوجد الحال في الأسمطة على ما جرت به العادة والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها، كذلك الهناء في صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور، وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء، وبعدهم الشعراء على طباقتهم، وعادت الأمور في أيام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود، وأحضر كل من المستخدمين في الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكير والمطالعات مما تحتاج إليه الدولة في طول السنة وينعم به ويتصدق، ويحمل إلى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل في التذاكر على يد

المندوبين، ويحمل إلى الثغور، ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل ويباع في الثغور والبلاد ...إلخ[١].

هذه صورة ما نقله المقريزي على المؤرخين المعاصرين عمَّا كان يجري تحت بصرهم وسمعهم في يوم من أيام هذه الأعياد الكثيرة التي استحدثها الفاطميون، ومن هذه الصورة نتبين أن هذه الأعياد لم تكن أعياد الخلفاء والأمراء ورجال القصر فحسب؛ بل كانت أعياد الشعب أيضًا بما كان يُقدَّم فيها من الصدقات والسمط، فإذا الشعب يشارك الحاكمين، ويناله شيء من بذخ الفاطميين، فإذا هو في فرح وبشر، ولا يكاد يمضي عيد حتى يلحقه آخر.

في هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون في إنشاد قصائدهم، ويتنافسون في الإجادة والإتقان، وينعمون بأخذ جاريهم وصلاتهم بما لم ينعم به الشعراء في الدول الأخرى، فلا غرابة إن قلنا: إنَّ هذه الأعياد والمواسم كانت من دوافع ازدهار الشعر في العصر الفاطمي، وموضوعًا من موضوعاته، حتى أن عمارة اليمني في قصيدته التي رثى بها دولة الفاطميين لم يستطع إلا أن يذكر هذه الأعياد والمواسم فقال:

أبكي على ما تراءتْ من مكارمكم ... حالَ الزمانُ عليها وهي لم تحلِ
دارُ الضيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم ومن طللِ
وفطرة الصوم إذ أضحتْ مكارمكم ... تشكو من الدهر حيفًا غير محتملِ
وكسوة الناس في الفصْلَيْنِ قد درست ... ورثَّ منها جديدٌ عندهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم ... يأتي تجملكم فيه على الجملِ
وأول العام والعيدين كم لكم ... فيهن من وبل جود ليس بالوشلِ
والأرضُ تهتز في يوم الغدير كما ... يهتزُّ ما بين قصريكم من الأسلِ
والخيل تعرض في وشي وفي شية ... مثل العرائس في حلي وفي حللِ[١]

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٣١٣، ٣١٤.

ولعل هذه الصورة التي صوَّرها الشاعر عمارة اليمني لحفلات وأعياد الفاطميين تدل على ما كانت عليه مصر في ذلك العصر المترف الغني.

وليست الأعياد والمواسم التي استحدثها الفاطميون هي فقط أظهر ما كان في الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية، ولكننا نرى الفاطميين يكثرون من المباني والمنشآت التي أقاموها في البلاد، ولعل عنايتهم بالمتنزهات والمناظر والإكثار منها من الأدلة التي نستطيع أن نقدِّمها على حب الفاطميين للفنون المختلفة، فهذه البساتين التي جمَّلوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها، ولم تُتَّخَذ متنزهًا لهم فقط دون غيرهم من الرعية؛ بل أباحوا للناسي دخولها والتمتع بمناظرها وجوها، فأوجد ذلك عند المصريين لونًا من ألوان الحياة الناضرة البهيجة، وسَمَتِ النفوس إلى حب الطبيعة وحب الجمال معًا. ولقد كان خروج المصريين في ذلك العصر إلى التنزهات جزءًا هامًّا من مقومات حياتهم، وهناك كانوا يقصفون ويطربون، وينعمون بجمال الرياض وأريج الأزهار، وكان الشعراء يقصدون هذه الرياض جماعات يتطارحون الشعر، ويتبارون في الإنشاد، يستوحون من جمال الزهر والطبية وحي شعرهم، فإذا صحَّ ما رواه القدماء أن شعراء الجاهلية كانوا يخرجون إلى الصحراء لاستلهام الشعر، فكذلك خرج شعراء مصر إلى البساتين يتغنون ببدائع الطبيعة، فكانت هذه المتنزهات والبساتين التي أكثرَ منها الفاطميون مصدرًا خصبًا لكثير من الشعر المصري في العصر الفاطمي.

كانت الحياة المصرية إذن حياة ترف، وكان سكان مصر على حظٍّ من الثراء والغنى، يحسدهم عليه العباسيون في أوج مجدهم وسعة سلطانهم، وكان الخلفاء الفاطميون يسرفون في الإغداق على الشعب مما يملكون من مال ومتاع

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٣٩٣.

ورقيق، مما كان يحمله إليهم الدعاة من مال الخمس[١] وأموال النجوى، ومن هدايا الأمراء في المشرق، وكان الوزراء يتشبهون بالأئمة في الظهور بمظهر الملك فأنفقوا عن سعةٍ، وافتنَّ الشعب في التشبه بأمرائهم وحكامهم، فظهروا بمظهر صاحب الثروة، واتخذوا من الحياة أبهجها، ومن الزينة واللباس أزهاها، وأكثروا من اقتناء الرقيق والقيان، وإقامة المآدب واستدعاء الخلان لمجالس اللهو والشراب، حتى خُيِّل إلينا أن حياة المصريين كانت حياةَ لهوٍ وقصف وسماع غناء وألحان، فكان ذلك كله وحيًا للشعراء بالقريض.

ومن عوامل ازدهار الشعر في هذا العصر الفاطمي أنَّ القائمين على شئون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الأحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الأحزاب وآرائها، وقد ذكرنا أن الفاطميين عرفوا قدر الدعاية فاهتموا بها أيما اهتمام، واصطنعوا كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء، وكان الفاطميون على قدرة وكياسة في فن السياسة، فعرفوا أن الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من أهم وسائل الدعاية للقبيلة في العصر الجاهلي وللأحزاب السياسية والفرق الإسلامية بعد ظهور الإسلام، وأن بعض الشعراء في العصر العباسي أمثال مروان أبي حفصة وأبان بن عبد الحميد اللاحقي وغيرهما، أدخلوا في شعرهم بعض الآراء الفقهية في الدفاع عن الخلافة العباسية ضد الطامعين من العلويين، فلم يَشَأ الفاطميون أن يتركوا سلاح الشعر دون أن يُشْهِروه على خصومهم، أو أن يستخدموه في الدفاع عنهم والمباهاة بفضائلهم والإشادة بدولتهم، فلا غرو أن وجدنا الفاطميين يبذلون العطاء الضخم الجسيم لشعراء دولتهم، ويجعلون لبعض الشعراء مرتبات شهرية. وينقل المقريزي عن ابن الطوير أنه كان للشعراء رواتب جارية

(١) راجع كتاب «الهمة في آداب اتباع الأئمة»، (من مطبوعات دار الفكر العربي).

من عشرين دينارًا إلى عشرة دنانير[١]. ويروي أيضًا أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم[٢]، ومعنى هذا أنَّ الفاطميين كانوا يعطون الشعراء في أيام المواسم والأعياد رواتب خاصة غير ما كان يُعطَى لهم شهريًّا. ويحدثنا المقريزي مرة أخرى في كلامه عن بركة الحبش أنه كان بها طاقات، وعليها صور الشعراء، كل شاعر واسمه وبلده، وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كُتِب عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذَهَّب، وأن الخليفة الآمر بأحكام الله لما دخل هناك وقرأ الأشعار، أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارًا، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده[٣].

فلا أكاد أعرف دولة من الدول الإسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقات في متنزهات عامة؛ مما يدل دلالة قاطعة على تمجيد لفن الشعر والشعراء، فأين نحن من مصر في العصر الفاطمي؟!

ويذكر العماد في «الخريدة» أنَّ الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفة «مقدِّم الشعراء»، ويذكر أن مقدم الشعراء في عهد الأفضل بن بدر الجمالي هو الملقب بمسعود الدولة المعروف بابن جريز[٤]. وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعرًا جيدًا في مدح

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٤٣.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٩٠.
(٣) خطط المقريزي: ج١، ص٤٨٦.
(٤) الخريدة: ورقة ١٠٢أ.

الأئمة. ويحدِّثنا عمارة اليمني أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار[١].

وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعر والشعراء عنايتهم؛ لأن الشعراء لسانٌ من أَلْسُنِ تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء، فإغداق النِّعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الإكثار من الإنشاد؛ فكثر الشعراء وكثر إنتاجهم، واستغلَّ الفاطميون هؤلاء الشعراء في رفع شأن دولتهم وخلفائهم، حتى في القسم الأخير من العصر الفاطمي الذي ضعف فيه الأئمة، واستبد الوزراء بالملك، فقد طُلب إلى الشاعر أبي عبد الله مسلم أن ينظم «السيرة المصرية»، وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر على ذلك، فسأل أن يجري له شيء على الشعر مثل غيره من الشعراء، فزيد نصف دينار، فهجاه الشاعر مجير بن محمد الصقلي المتوفى حوالي سنة ٥٤٠هـ بقوله:

جرى الحديث فقالوا كل ذي أدبٍ ... أضحتْ له خمسة تجري بمقدارِ
بأي فضلِ حَوَاه ابن المسلم من ... دون الجماعة حتى زِيدَ في الجاري
أَجْرُوا له خمسةً عن حق سيرته ... فقال: لا تنقصوني حقَّ أَشْعَارِي
نادوا عليه وسوق الشعر نافِقَة ... فلم يزدْ قَدْرها عن نصف دينارِ[٢]

وهكذا كان الفاطميون يستغلون شعر الشعراء في تثبيت أركان دولتهم، حتى في وقت ضعف سلطانهم.

(١) النكت: ص٣٤.
(٢) الخريدة: ورقة ١٠٢أ.

شعر الأئمة:

بجانب ذلك كله كان الفاطميون يقدِّرون الشعر ويتذوقونه من حيث هو فن من الفنون التي تجب العناية بها، ويقدرها كل من نال حظًّا من الثقافة ورقة الشعور ودقة الإحساس؛ بل يذكر المؤرخون أن من بين الأئمة الفاطميين مَن كان ينشد الشعر، وقد رأينا كيف خاطب القائم بأمر الله المصريين بالشعر إبَّان غزواته، ويذكر صاحب سيرة جوذر عدة أبيات للمنصور بالله، منها:

تبدلت بعد الزعفران وطيبه ... صدا الدرع من مستحكمات السوامرِ
ألمْ ترني بعد المقامة بالسرى ... ولين الحشايا بالخيولِ الضوامرِ
وفتيان صدق لا ضغائنَ بينهم ... يثورون ثورات الأُسُود الخوادرِ
أروني فتًى يغنِّي غنائي ومشهدي ... إذا رهج الوادي لوقع الحوافرِ
أنا الطاهرُ المنصورُ من نسل أحمد ... بسيفي أقد الهام تحت المغافرِ[1]

ومن شعر المنصور بالله أيضًا يخاطب ابنه وولي عهده المعز لدين الله:

كتابي إليك من أقصى الغروب ... وشوقي شديد عريض طويل
أجوب القفارَ وأطوي الرمالَ ... وأحمل نفسي على كلِّ هول
أريد بذاك رضاء الإله ... وإعزاز دولة آلِ الرسول
إلى أن برى السير أجسامنا ... وكل الركاب وتاه الدليل
فوا غربتاه ووا وحشتاه ... وفي الله هذا قليل قليل
وما ضقت ذرعًا ولكنني ... نهضت بقلب صبور حمول
وقد مَنَّ ذو العرش من فضله ... بفتح مبين وعز جليل
وفي كل يوم من الله لي ... عطاء جديد وصنع جميل
فلله حمد على ما قضى ... وحسبي ربي ونِعْم الوكيل[2]

(١) سيرة الأستاذ جوذر، (نسخة خطية بمكتبتي).
(٢) سيرة الأستاذ جوذر، (نسخة خطية بمكتبتي).

ولعلك تلاحظ معي أن المقطوعة الأولى أقوى وأجزل شعرًا من المقطوعة الثانية التي هي أقرب إلى الكلام العادي منها إلى فن الشعر، فالقطعة الأولى من شعر المنصور تدل على أن صاحبها شاعر حماسي ملك ناصية الفن في اللفظ والمعنى، فهو يختار اللفظ الذي يتلاءم في موسيقاه مع المعنى الذي يقصده الشاعر، فيلذ الأذن والعقل معًا، ولكن القطعة الثانية، فلا أستطيع أن أقول إلا أن ناظمها يعبث حين يدعي أنه يقول شعرًا.

ويذكر ابن خلكان أن المعز لدين الله كان أديبًا شاعرًا، وينسب إليه هذه الأبيات:

لله مـــــا صـــــنعتْ بنـــــا ... تلـــك المحـــاجر في المعـــاجرِ
أمـــضى وأقـــضى في النفـــوس ... مـــن الخنـــاجر في الحنـــاجر
ولقـــد تعبـــت ببيـــنكم ... تعـــب المهـــاجر في الهـــواجر(١)

فهذه الأبيات إنْ دلَّتْ على شيء فهي تدل قبل كل شيء على أن الشاعر كان من شعراء الزينة البديعية، فقد فُتِن بهذه الملاءمة اللفظية بين «المحاجر» «والمعاجر» وبين «أمضى» و«أقضى»، وبين «الخناجر» و«الحناجر»، وبين «المهاجر» «والهواجر»، ومع ظهور هذه الصنعة البديعية في هذه الأبيات، فإن خيال الشاعر كان قويًّا في تعبيره عما تفعله العيون التي تختفي تحت المحاجر، ولكنها تصيب هدفها، وتفعل في النفوس أكثر مما تفعله الخناجر في الحناجر.

وكذلك ينسب القدماء إلى المعز لدين الله هذه الأبيات:

أطلـع الحـسن مـن جبينـك شمـسًا ... فـــوق ورد في وجنتيـــك أطَـــلا
وكـــأنَّ الجـــمالَ خـــاف عـــلى الـــور ... دِ جفافًـــا فمـــدَّ بالـــشعر ظِـــلَّا(٢)

(١) ابن خلكان: ج٢، ص١٠٣.
(٢) ابن خلكان: ج٢، ص١٠٣.

هنا صورة جميلة من شاعر بلغ درجة لا بأس بها من الفن، فهو يصف جمال المحبوب بصورة من صور الطبيعة المحببة إلى النفس، فهي كالورد المتفتح قد غمرته الشمس، ولكن الشاعر كان دقيق الحس رقيق الشعور، فخشي أن يذبل الورد من حرارة الشمس، فظلله بخصلة من شعر الحبيب، فالصورة هنا لا شك جميلة، ولا غرو أن رأينا القدماء قد فُتنوا بها حتى قال ابن خلكان: «إنَّ هذا معنى غريب بديع»(١). ولكن هل أستطيع أن أنسب هذه الأبيات إلى المعز لدين الله كما روى ابن خلكان، أم أنسبها إلى ظافر الحداد الشاعر الفاطمي الفحل؛ إذ ورد في الخريدة أن ظافرًا قال:

أطلع الشمس من جبينك بدر ... فوق ورد من وجنتيك أطَلَّا
فكأنَّ العذار خافَ على الور ... دِ جفافًا فمدَّ بالشعر ظِلَّا(٢)

لست أدري لمن أنسب البيتين، فربما حاكى ظافرٌ الإمامَ المعز، فأخذهما عنه بعد أن غيَّر بعض الألفاظ، أو ربما نسب أتباع المذهب البيتين إلى المعز عندما أرادوا إثبات شاعريته، ومهما يكن من شيء فإن المؤرخ ابن إياس تحدَّث أيضًا عن شعر المعز فقال: «كان المعز عاقلًا حازمًا لبيبًا فصيحًا شاعرًا، وله شعر جيد؛ من ذلك قوله:

ما بانَ عذري فيه حتى عذرا ... وبدا البنفسج فوق ورد أحمرا
همَّتْ بقبلته عقارب صدغه ... فاستلَّ ناظره عليها خنجرا(٣)

وهكذا كان المعز لدين الله ينشد الشعر، وعُرف به، وكذلك كان ابنه العزيز بالله نزار، وابنه المعروف بالأمير تميم. يقول أبو المحاسن عن العزيز:

---

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) الخريدة: ورقة ٨٧ب.
(٣) تاريخ ابن إياس: ج١، ص٤٨.

«كانت لديه فضيلة، وله شعر جيد»[١]. وروى الثعالبي في يتيمته قول العزيز - وقد وافَقَ بعض الأعياد وفاة ابنه، وعقد المأتم عليه-:

نحن بنو المصطفى ذوو محن ... يجرعها في الحياة كاظمنا
عجيبة في الأنام محتتنا ... أولنا مبتلى وخاتمنا
يفرح هذا الورى بعيدهم ... طرًّا وأعيادنا مآتمنا[٢]

فالشاعر في هذه الأبيات صادق العاطفة يعبِّر عن ألم دفين وحزن كمين، فهو لم يحزن لفقد ولده فحسب؛ بل هو يألم لما أصاب أهل البيت من محن وكوارث حتى أصبحت أعيادهم مآتم، ويُخيل إليَّ أن هذه العاطفة الصادقة هي التي دفعت العزيز لأن يقول:

ولما رأيت الدين رثت حباله ... وأصبح ممحو الضيا والمعالم
وأصبحت الأغنام من كل أمة ... تسوم عباد الله خزم المخاطم
وتحكم في أموالها ودمائها ... بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبت لدين الله غضبة ثائر ... غيور عليها مانع للمحارم
وسيَّرت نحو الشرق بحر كتائب ... تموج بأبطال رجال قماقم
يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا ... وبالمشرفيات الرقاق الصوارم
أنا ابن رسول الله غير مدافع ... تنقلت في الأنوار من قبل آدم
لي الشرف العالي الذي خضعتْ له ... رقاب بني حواء من كل عالم
بنا فُتِحت أبواب كل هداية ... ومنَّا بحمد الله (خير الخواتم)
فقُلْ لبني العباس مع ضعف ملكهم ... بأنهم أسرى بأيدي الأعاجم
غصبتم بني المروان ما غصبوه من ... مواريثنا، سحقًا لظالم ظالم
ولم تحفظوا فينا وصايا محمد ... ولا ما ادعيتم من مناسب هاشم

(١) النجوم: ج٤، ص١٢١.
(٢) اليتيمة: ج١، ص٢٢٣، والنجوم الزاهرة: ج٤، ص١١٣.

سنسقيكم كأسًا كما قد سقيتم أوائلنا، والله أعدلُ حاكم[١]

ففي هذه الأبيات نحن أمام رجل غيور على عقيدته ودينه، شديد العداء لمن خالفه من العباسيين، يتوعدهم بالانتقام لما أصاب آباءه وأجداده من محن على أيديهم، شديد الفخر بنسبته إلى الرسول الكريم، وهو في ذلك كله لا ينسى عقائده المذهبية التي كان إمامها، فأشار إلى أنه تنقَّل في الأنوار من قبل آدم، فهذا المعنى لا يقوله إلا مَن اعتقد مذهب الفاطميين؛ وذلك أن الفاطميين ذهبوا إلى أنَّ الله سبحانه خلق نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يخلق السماوات والأرض، وأن هذا النور تنقَّل في الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية حتى بلغ عبد المطلب، فقسم الله هذا النور قسمين؛ قال لأحدهما: كُنْ يا هذا محمدًا، ويا هذا كُنْ عليًّا. وأن هذا النور تجمَّع مرة أخرة بزواج علي من فاطمة بنت الرسول، وتنقَّل في الأئمة من ذريتهما حتى كان العزيز بالله، فكأنَّ العزيز وُجِد قبل آدم؛ لأنَّ النور الذي حلَّ به وُجِد قبل آدم[٢].

وكان الحاكم بأمر الله شاعرًا أيضًا، وينسب إليه صاحب النجوم الزاهرة:

دَع اللوم عني لست مني بموثق فلا بدَّ لي من صدمة المتحنقِ
وأسقي جيادي من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفرُّقِ[٣]

ولكن هذين البيتين يعود صاحب النجوم مرة أخرى فينسبهما إلى الآمر، وكذلك المقريزي[٤]. وعندي في المجموعة الخطية عدة أبيات للحاكم، ولكن هذه الأبيات ضعيفة في صناعتها وفي معناها، ويظهر فيها الانتحال، ويُخيَّل إليَّ

(١) ورقة ٦٣أ من مجموعة أشعار إسماعيلية، (نسخة خطية بمكتبتي).

(٢) راجع المجالس المؤيدية في مواضع شتى، وما كتبناه عن ذلك في مقدمة ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.

(٣) النجوم: ج٤، ص١٩٦.

(٤) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٧٠.

ويُخيَّل إليَّ أن قائلها هو أحد أتباع المذهب الذين لا يحسنون صناعة الشعر، والأبيات هي:

إذا ما انقضى لبس السواد أتيتكم ... بأبيض من فوق الدماء يفور
على أشقر يغلي إذا ما ركبته ... ولا صحبت رجلي بعد حمير
وأجلس عادتي كما كنت قبل ذا ... ويختال بي من بعد ذاك وزير[١]

ويحدثنا ابن بسام في الذخيرة أن الشاعر الواساني، هجا يوسف بن علي المشرف على دمشق أيام الحاكم، وسمع الحاكم بأمر هذا الهجاء فقال يومًا: أريد سماع هذه القصيدة من رجل حسن النشيد[٢]. فهذا يدل على أنَّ الحاكم كان يلذ له سماع الشعر ممن يحسنون النشيد.

وتكاد تُجمع المصادر على أن المستنصر بالله كان شاعرًا مبدعًا، وأنه كان متمكنًا من إنشاد الشعر يرتجله في المناسبات، ويجيب عن بعض الرسائل التي كانت ترد عليه بالشعر. يروي صاحب النجوم أن ناظر الدولة جاء بالأتراك سنة ٤٦٠هـ إلى الوزير ابن كدينة، وطالبوا الوزير بالمال، فقال لهم الوزير: «وأي مال بقي عندي بعد أخذكم الأموال واقتسامكم الإقطاعات». فطلبوا من الوزير أن يرفع الأمر إلى المستنصر، فكتب الوزير رقعة بما جرى وأرسلها إلى الإمام، فأجاب المستنصر على الرقعة نفسها بخطه:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي ... إلا إلهي وله الفضل
جدي نبي وإمامي أبي ... وقولي التوحيد والعدل[٣]

(١) ورقة ١٦٦ من المجموعة الخطية لأشعار الإسماعيلية.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ص٦٩ من القسم الرابع، المجلد الأول.
(٣) النجوم: ج٤، ص٨١، وينسبهما ابن منجب الصيرفي في كتابه الإشارة ص٢٩ إلى الحاكم بأمر الله. أمَّا ابن خلدون فينسبهما في تاريخه ج٤ ص٧١، إلى الآمر بأحكام الله.

ففي هذين البيتين يظهر الألم الشديد الذي كمن في نفس الإمام لما حلَّ به وحاق بالبلاد إبان الشدة العظمى المعروفة في التاريخ، والبيت الثاني يذكرنا بما نسمعه عند دفن الموتى بما يُعرف بتلقين الأموات، فلعل المستنصر أراد أن يتهكم بمن جاء يطالبه بالأموال، فأجاب بما يُلقَّن به الموتى. فهو يسخر بهؤلاء الناس وهو في أشد حالات الألم والحزن، فالعقدة النفسية التي كانت عند المستنصر، هي التي جعلته يسخر ويتهكَّم على هذا النحو.

ومما يُروى عن المستنصر أيضًا أنَّ المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي بعد أن عاد سنة ٤٥٠هـ إلى القاهرة، منعه الوزير ابن المغربي من لقاء المستنصر، فأخذ المؤيد يرسل إليه الكتب والرسائل، وينشد فيه الشعر حتى بلغ المستنصر قول المؤيد:

أقسم لو أنك توَّجتني ... بتاج كسرى ملك المشرق
وأَنَلْتَني كلَّ أمور الورى ... من قد مضى منهم ومَن قد بقي
وقلت أن لا نلتقي ساعة ... أجبت يا مولاي أن نلتقي
لأن إبعادك لي ساعة ... شيَّبَ فودي مع المفرق

فلمَّا بلغت الرقعة التي فيها هذا الشعر إلى المستنصر أجاب عليها بخطه:

يا حجة مشهورة في الورى ... وطود علم أعجز المرتقى

ما غلقت دونك أبوابنا ... إلا لأمر مؤلم مقلق
خفنا على قلبك من سمعه ... فصَدُّنا صد أبٍ مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم ... في الغرب يا صاح وفي المشرق
فانشر لهم ما شئتَ من علمنا ... وكُنْ لهم كالوالدِ المشفق
إنْ كنت في دعوتنا آخرًا ... فقد تجاوزت مدى السبق

مثلك لا يوجد فيمن مضى ... من سائر الناس ولا من بقى[١]

وتُنسب إليه قصيدة وردت في مجموعة أشعار الإسماعيلية مطلعها:

كفي ملامك يا ابنة الغمر ... ما بال وفر أبيك من وفر[٢]

ولكني أرى هذه القصيدة موضوعة، ونُسِبت إلى المستنصر، فأكتفي الآن بالإشارة إليها.

وينسب طائفة البهرة إلى المستنصر مجموعة رسائل قيل إنه كتبها إلى علي بن محمد الصليحي باليمن؛ ولكن مَن يطَّلِع على هذه الرسائل يدرك أن مثل هذه الرسائل لا تصدر عن الإمام؛ إنما تصدر عن كتابه، وقلَّ أن نجد خليفة من خلفاء المسلمين أرسل مثل هذه الرسائل لأحد عماله، إنما كان ذلك عمل كتاب ديوان الإنشاء، ونحن نشك في نسبة هذه الرسائل إلى المستنصر، ونرجِّح أنها كُتبت بعد انتقال مركز الدعوة المستعلية إلى اليمن، وأن كاتبها أحد الدعاة في اليمن، وسنعود إلى هذه الرسائل في بحثٍ آخر[٣].

ويقول صاحب النجوم عن الآمر بأحكام الله: «كان للآمر نظم ونظر في الأدب»[٤]. وروى له عدة أبيات منها الأبيات التي نسبها حينًا إلى الحاكم، وحينًا آخر إلى الآمِر، كما ذكرنا من قبلُ. وينسب ابن ميسر إلى الآمر قوله:

أما والذي حجت إلى ركن بيته ... جراثيم ركبان ومفلعة شهبا
لأقتحمن الحرب حتى يقال لي ... ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم ... فيرضى بنا صحبًا ونرضى به صحبا[٥]

(١) انظر: ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.
(٢) ورقة ٦٣ب.
(٣) السجلات المستنصرية، نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن.
(٤) ج٤، ص١٨٢.
(٥) تاريخ مصر، لابن ميسر: ص٧٣.

وينسب طائفة البهرة إلى الآمر بأحكام الله رسالة تُعرف «بالهداية الآمرية في إبطال الدعوة النزارية»، وقد نشر هذه الرسالة صديقنا الأستاذ آصف فيظي، وذكر في مقدمته لهذه الرسالة أنها ليست للآمر في الحقيقة، وربما كانت لأحد كتَّابه، فإن هذه الرسالة من السجلات التي يكتبها رجال ديوان الإنشاد، وربما كان الآمر هو الذي أوصى بها[١].

وهكذا كان بعض الأئمة الفاطميين ينشد الشعر، فلا غرو أن رأيناهم يقرِّبون الشعراء ويجزلون لهم العطاء، ويلتفُّ الشعراء حولهم ويتنافسون بين أيدي أمرائهم في الإنشاد، مما دعا إلى كثرة الشعر وازدهاره.

وكما كان الأئمة في عهد سلطانهم وقوتهم -أي في القسم الأول من العصر الفاطمي- ينشدون الشعر ويقربون الشعراء، كان بعض الوزراء في عهد غلبة الوزراء في مصر ينشد الشعر ويثيب عليه، ولا سيما أن الوزراء أصبحوا كل شيء في الدولة؛ فأصبحوا مقصد الشعراء ووجهتهم، حتى أن الشعراء عندما كانوا يريدون مدح الخليفة الفاطمي كانوا يذكرون بجانبه الوزير، ويطنبون في مدح الوزير أكثر مما يقولون في مدح الإمام. ويروي المقريزي أن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية، ولا فيما قبلها على الشعر جار، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف[٢]؛ إذ كان الأفضل يجلس بدار الملك التي أنشأها في مجلس العطايا، وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس، من كل لون اثنين، وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار، في كل ظرف خمسة آلاف، فمن هذه الظروف كان يغدق عطاياه

(١) الهداية الآمرية، تحقيق الأستاذ آصف على أصغر فيظي، (من مطبوعات جمعية الدراسات الإسلامية بالهند).

(٢) الخطط: ج٢، ص٣٧٥.

على الشعراء الذين كانوا يقصدونه، ولعل أكثر الوزراء في العصر الفاطمي إنشادًا للشعر وتحبُّبًا إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك، فقد جمع شعره في مجلدين كبيرين، وجمع شعر الشعراء فيه فكان شيئًا كثيرًا، ولكن هذه الأشعار كلها فُقِدت، ولم يَبْقَ منها إلا شذرات، وكذلك كان الوزير الناصر العادل رزيك بن الصالح الذي وصفه عمارة اليمني بقوله: وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثبت عليه[1]، فسوق الشعر قد ازدهرت في عهد الوزراء كما كان مزدهرًا في عهد الأئمة على ما سنوضحه فيما بعد.

ضياع الشعر الفاطمي:

وكانت الحياة في مصر الفاطمية -كما رأينا جانبًا منها- تدعو إلى ازدهار الشعر وإلى كثرة ما أنتجه الشعراء في كل فنٍّ من فنون الشعر، وكل موضوع من موضوعاته، ولكن هذه الموجة الفنية التي طغت على مصر سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية؛ فضاع الشعر ولم يَبْقَ منه إلا النزر اليسير، أو قُلْ: لم يبق إلا اسم الشاعر أحيانًا إنْ قُدِّر لاسمه البقاء، ونحن لا نتردد في اتهام الأيوبيين بجنايتهم على تاريخ الأدب المصري بتعمدهم أن يمحوا كل أثر أدبي يمت للفاطميين بصلة، فقد حرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر؛ خوفًا من أن يكون بالشعر مديح للأئمة، وهو كفرٌ بزعمهم. وها هو ذا كاتب الأيوبيين العماد الأصفهاني عندما أراد أن يجمع في خريدته شعر شعراء المائة الخامسة، قال عن ابن الضيف داعي الآمر وشاعره: «وكنت عازمًا لفرط غلوه على حطِّه؛ لأنه أساء شرعًا وإنْ أحسنَ شعرًا، بل أظهر فيه كفرًا؛ ولكنني لم أرَ أن أترك كتابي منه صِفْرًا؛ لأنَّ البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر، ويقصده البر والفاجر، ويحمل الغثاء كما

(١) النكت: ص٥٥.

يحمل الدر»[١]. وقال عن ظافر الحداد: أقول ظافر، بحظ من الفضل ظاهر، يدل نظمه على أن أدبه وافر، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر، وما أكمله لولا أنه من مداح المصري والله غافر[٢]. ومع ذلك لم يروِ العماد لهما شيئًا في مدح الأئمة، فقد تعمَّدَ العماد الأصفهاني أن يستبعد أكثر شعر مديح الأئمة من خريدته، وتبعه في ذلك غيره من الأدباء والمؤرخين، فضاع أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب هذا التعصب المذهبي.

أضفْ إلى ذلك أن الأحداث التي كانت في مصر، ولا سيما في عهد المستنصر بالله، إبَّان المحنة الكبرى، وفي الصراع الذي كان بين شاور وضرغام في أواخر العصر الفاطمي، كانت من أهم أسباب ضياع شعر الشعراء وكُتُب العلماء، حتى أن الشاعر عمارة اليمني عندما أراد أن يذكر لنا شيئًا من شعره في مدح طي بن شاور قال: فإن جميع ما قلته فيه نهب من دار الخليج[٣]. ولم يتذكر منه شيئًا يرويه، فكانت هذه الأحداث والاضطرابات مأساة للعصر الفاطمي نفسه؛ إذ سببت زوال دولة الفاطميين، ومأساة للحياة الأدبية والفكرية أيضًا، وإلا فحدثني عن شعر الشعراء المائة الذين رثوا ابن كلس، وأين ديوان ابن حيدر العقيلي؟[٤] وأين ديوان أبي الحسن علي بن المؤمل بن غسان الكاتب المصري، وكان ديوانه في مجلدين؟[٥] وأين ديوان أبي الحسن بن مطير؟[٦] وديوان ابن الشخباء أستاذ القاضي الفاضل[٧]، وديوان الملك الصالح بن

(١) الخريدة: ورقة ٥٣ب.
(٢) الخريدة: ورقة ٥٠.
(٣) النكت: ص١٢٧.
(٤) المغرب: ص٥٢.
(٥) الخريدة: ورقة ٩أ.
(٦) الخريدة: ورقة ١٤أ.
(٧) الخريدة: ورقة ١٤أ.

رزيك[١]، وديوان القاضي الرشيد بن الزبير[٢]، وديوان أخيه المهذب بن الزبير[٣]، وديوان ابن الضيف، وديوان ظافر الحداد الذي وصفه أحد معاصريه، وهو الفقيه نصر بن عبد الرحمن الفزاري بقوله: «وله ديوان شعر مشهور، وبالجودة له مشهود»[٤]. وأين ديوان الفقيه الصوفي ابن الكيزاني؟ وأين شعر بني عرام شعراء الصعيد؟ وأين مقطوعات ابن الصياد في أنف ابن الحباب؟ فقد قيل: إنَّ ابن الحباب كان كبير الأنف، وكان ابن الصياد مولعًا بأنفه وهجاه بأكثر من ألف مقطوعة[٥]. وأين شعر أولاد الكنز بأسوان؟[٦] وأين المجموعة التي جمعها عثمان بن عبد الرحيم المعروف بابن بشرون التي صنَّفها سنة ٥٦١، وسمَّاها: «المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر»، وأين مجموعة شعراء ابن رزيك؟[٧] وأين كتاب جنان الجنان للمهذب بن الزبير الذي صنفه سنة ٥٥٨هـ، وجمع فيه أشعار شعراء مصر، وذيَّل به اليتيمة؟ وأين ديوان القاضي المفضل كافي الكفاة أبي الفتح محمود ابن القاضي الموفق إسماعيل بن أحمد الدمياطي المعروف بابن قادوس، وكان من أماثل المصريين وكتَّابهم مقدمًا عند ملوكهم؟[٨]

ويطول بنا الأمر لو طالبنا بكل شعر الشعراء الذين كانت تزخر بهم مصر الفاطمية، وإنما ذكرنا هذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر، لنعرف مدى هذه

---

(١) الخريدة: ورقة ٣٢ ب.
(٢) الخريدة: ورقة ٣٦ أ.
(٣) الخريدة: ورقة ٣٦ ب.
(٤) الخريدة: ورقة ٥٩ ب.
(٥) الخريدة: ورقة ٦٨ أ.
(٦) الخطط: ج١، ص٣٢٠.
(٧) الخريدة: ٦٨ ب.
(٨) ابن ميسر: ص٩٧.

الخسارة التي لحقت بتاريخ الأدب المصري لضياع هذه الثروة الأدبية المصرية، ولندل على أن مصر الفاطمية كانت غنية بشعرائها، خصبة في شعرها.

هناك جناية أخرى ارتكبها الثعالبي والباخرزي والعماد وابن سعيد المغربي وغيرهم من المؤلفين الذين أرادوا أن يحفظوا في كتبهم شيئًا من الشعر، فعمدوا إلى عدة أبيات من قصيدة، ولم يدوِّنوا كل القصيدة، فقد اكتفوا بمقطوعة من بيتين أو أكثر لكل شاعر، وقلَّ أن نجد قصيدة كاملة في هذه الكتب، مما جعلنا لا نستطيع أن نكوِّن حكمًا صحيحًا على فن الشاعر من هذه المقطوعات التي رُويت له؛ لأن الناقد المدقق مهما بلغت مقدرته الفنية، واتسعت ثقافته الأدبية، وارتقى ذوقه الأدبي، لا يستطيع أن يحكم على شاعر بمقطوعة من قصيدة، أو بقصيدة واحدة من ديوان، وإلا كنَّا كالقدماء الذين كانوا يفضِّلون شاعرًا على شاعر ببيت شعر قاله. فهؤلاء الكتاب الرواة كانوا من عوامل ضياع الشعر القديم، كما هم في الوقت نفسه من عوامل حفظ بعضه.

ومهما يكن من شيء، فإن بين أيدينا الآن بعض آثار لحياة الشعر في العصر الفاطمي، وهي إنْ دلَّتْ على شيء فإنما تدل على أن العصر الفاطمي كان خصبًا في إنتاج الشعر، بحيث استطاع شعر مصر الفاطمية أن يقف بجوار غيره من الشعر في الأقطار الإسلامية في أرقى عصوره وصوره، فالعوامل التي تحدثت عنها، والآثار التي وصلتنا، وما قاله الرواة عن شعر مصر، كل ذلك يجعلنا نقول: إن شعر مصر الفاطمية كان يحتل هذه المكانة الممتازة في الحياة الأدبية، ويتطور هذا التطور الذي نلمسه في العصر الفاطمي.

الفصل الثاني
الشعر والأئمة

ذكرنا أنَّ الفاطميين جاءوا بمصر يحملون مذهبًا دينيًّا خاصًّا يختلف عن العقائد التي كان يدين بها المصريون، وأن للمذهب الفاطمي مصطلحات خاصة لا يعرفها غير المنتسبين لفرقهم، ولا يفهمها غيرهم، فكان لهذه العقائد الفاطمية تأثير قوي في شعر مصر الفاطمية؛ ذلك أن الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة كانوا يمدحون هؤلاء الأئمة بالصفات التي صبغها المذهب على الأئمة، ويتعمَّد الشاعر أن يستعمل في شعره المصطلحات التي اصطلح عليها علماء المذهب ودعاته، وكلما أمعَنَ الشاعر في استخدام هذه المصطلحات، وإدخال هذه الصفات في شعره ازدادت قيمة الشاعر عند الأئمة وكبار رجال الدعوة، وكثر عطاؤه وزاد جاريه؛ فكان الشعراء على هذا النحو دعاة للأئمة والعقائد دون أن يكون لهم في مراتب الدعوة شأن.

وفي الوقت نفسه كان الشعراء سبب اتهام المذهب الفاطمي بالغلو والميل إلى الخروج عن تعاليم الإسلام؛ ذلك أن الشعر أسرع في الانتقال على أفواه الناس من كتب العلماء، فإذا كانت كتب الدعاة لا يقربها إلا أتباع مذهبهم، وأن مجالس حكمتهم لا يحضرها إلا مَن استجاب لهم، فالشعر يختلف عن ذلك كله، فإنه يسير بين الناس ويرويه الرواة، فإذا سمع مستمع إلى تلك الأبيات التي زخرت بعقائد الفاطميين دون أن يكون له إلمام بعقائد المذهب وما فيها من تأويلات باطنية، فهو لا يستطيع أن يدرك معنى ما جاء في هذا الشعر، وما قصد إليه الشاعر في مدائحه، ومن هنا يتهم الشاعر ويتهم المذهب نفسه، وقد رأينا كيف وصف العماد الأصفهاني شعر بعض شعراء الدولة الفاطمية، ونقرأ الآن أقوال النقاد والمؤرخين عن ابن هانئ الأندلسي، وما وُصِف به من شدة

الغلو في مدح الأئمة حتى رماه بعضهم بالخروج عن الدين جملةً، فلو كان هؤلاء النقاد يعرفون التأويل الباطني لأقوال ابن هانئ، أو أنهم حاولوا معرفة ما أراده الشاعر وقصد إليه، لرأيناهم يرجعون عن كثير مما اتهم به الشاعر، وذكرنا أن هذا من الأسباب التي أدَّتْ إلى ضياع شعر مصر الفاطمية، ولا سيما هذا اللون من الشعر الذي مُلئ بالعقائد، والذي قيل في مدح الأئمة، ولكن من حسن الحظ أننا عثرنا على ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، وديوان الأمير تميم بن المعز، وقصيدة في مدح العزيز، وكانت هذه النصوص في مكتبات رجال البهرة بالهند.

ففي مجموعة أشعار الإسماعيلية قصيدة تكاد تكون فريدة في نوعها في الشعر العربي كله، وهي لشاعر مجهول من شعراء العزيز بالله، وتُنسب هذه القصيدة أحيانًا إلى المؤيد في الدين[١]، وتُنسب مرة أخرى إلى شاعر يلقب بالإسكندراني[٢]، ولكني أرفض نسبة هذه القصيدة إلى المؤيد؛ لأنَّ العزيز بالله أقدم عهدًا من المؤيد في الدين، وأن المؤيد لم يمدح العزيز مطلقًا، إنما مدح الظاهر والمستنصر، وهما الإمامان اللذان عاصرهما المؤيد، ولم يمدح غيرهما من الأئمة، أضِفْ إلى ذلك كله أن هذه القصيدة تختلف عن شعر المؤيد من ناحية فن الشعر عند المؤيد.

أمَّا الإسكندراني الذي تُنسب إليه هذه القصيدة فلا نعرف عنه شيئًا، ولم تذكره المصادر التي بين أيدينا، وكل ما ورد عنه في المجموعة الخطية هو: هذه قصيدة الإسكندراني رحمه الله في مدح الإمام العزيز بالله قدَّس الله روحه، وهي الموسومة بذات الدوحة[٣].

---

(١) A Guide to Ismaili LiTerature. P. ٤٩.

(٢) نسخة ديوان المؤيد الخطية المرموز إليها (ق)، راجع ديوان المؤيد.

(٣) ورقة ٦٦ ب.

قلت: إنَّ هذه القصيدة فريدة في بابها في الشعر العربي؛ ذلك أن الشاعر روى الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «**أهل بيتي شجرة؛ أصلها ثابت، وفرعها في السماء**». وقول النبي أيضًا: «أنا شجرة، وفاطمة حملها، وعليٌّ لقاحها، والحسن والحسين ثمرتها، ومحبونا أهل البيت ورقها، حقًّا حقًّا أن يكونوا معنا في الجنة»[1]. وأمثال هذين الحديثين. فشاء له خياله أن يمدح إمامه العزيز بالله بقصيدة جعل لها جذعًا وفروعًا على مثال الشجرة، وسمى قصيدته ذات الدوحة، وأودعها كثيرًا من المصطلحات والعقائد الفاطمية، والقصيدة هي:

سئمت من البين الذي ليس يصدق ... فلست بغير الحق والصدق أنطق
أأمدح رهطًا غير رهط محمد ... وفي الجيد عهد للإمام موثق
ولا فضل لي في ذا بل الفضل فضل من ... بهم يحرم الله الأنام ويرزق
أئمة دين الله مذ قام دينه ... وأنوار هذا الحق من قبل يخلق
محبتهم فرض على الناس واجب ... وعصيانهم كفر إلى النار موبق
هم العروة الوثقى، هم منهج الهدى ... هم الغاية القصوى التي ليس تلحق
ولولاهم لم يخلق الله خلقه ... ولم يك في الدنيا ضياء ورونق
هم دوحة الدين التي تثمر الهدى ... وباليمن والتقوى تظل وتسبق
تجير من الأيام من يستظلها ... وتحيي من الموت الجهول وتطلق
سقاها غمام الوحي علمًا فأينعت ... بمكنون علم الله فالدين مونق
جرت في تخوم المحكمات عروقها ... وفوق الثريا فرعها متعلق
هم الأصل منها والأئمة فرعها ... ففي كل عصر نورها يتألق
إلى أن تسامت بالعزيز ولم تكن ... بغير أبي المنصور لو كان يلئق

(١) يروي الشيعة هذه الأحاديث، ونجدها في المجلس الخامس والستين من المائة الثانية من المجالس المؤيدية، وفي كتاب بحار الأنوار، وغيرهما.

فباهت على الأيام أيامه التي ... تكاد لها صم الجنادل تورق
سحائب جود لا يغيب غمامها ... وبحر سماح بالندى يتدفق
لئن فقد الناس المعز لدينه ... لقد قام بالدين العزيز الموفق
تجددت الدنيا علينا بيمنه ... فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق
ولا الجود ممنوع ولا المجد خامل ... ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق
تضوع نشر العدل في كل بلدة ... ونشر الثناء الطيب للطيب يعبق
ملأت قلوب العارفين محبة ... فكل على مقداره يتشوق
فلا صامت إلا بحبك ناطق ... ولا مضمر إلا بشكرك ينطق
فضائل مولانا العزيز جليلة ... إذا عدَّ فضل فهو بالفضل يسبق
غرست على بيت من الشعر دوحة ... لها أغصن في وزنه حين تبسق
فألفت من بيت بيوتًا كثيرة ... ولكنها مع ذاك لا تتفرق
فسبع وسبع عن يمين ويسرة ... على كل حرف منه بيت مفلق
بمدح أمير المؤمنين لأنها ... لعمري به من سائر الخلق أليق
عليه صلاة الله ما لاح كوكب ... وما ناح في الأيك الحمام المطوق

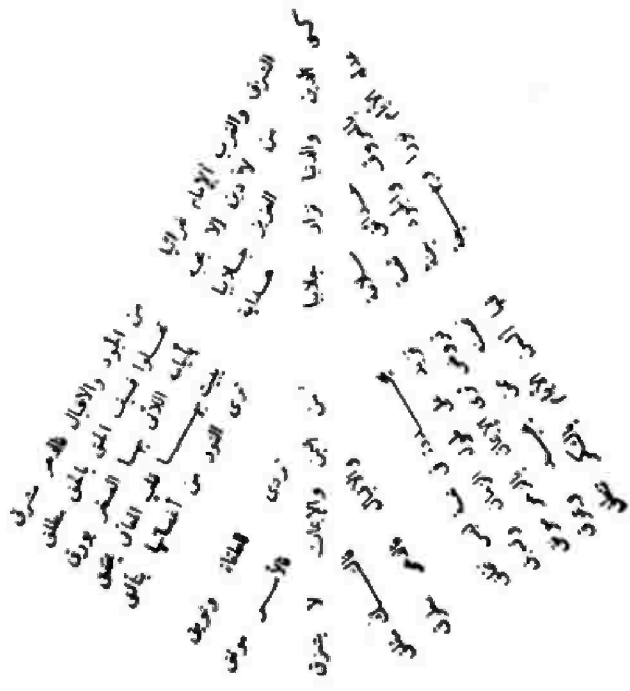

فالشاعر هنا قد ألزم نفسه بأن يبني بيتين من الشعر على كل كلمة من كلمات البيت الأخير، وأن يفرِّع عن يمين وشمال هذا البيت الأخير أربعة عشر بيتًا؛ سبعة أبيات عن يمين، وسبعة عن شمال، حتى تتخذ القصيدة شكل الدوحة، وما رأينا أحدًا من شعراء العربية يتلاعب بمثل هذا التلاعب قبل هذا الشاعر الفاطمي، ومَن يدري لعل التشجير الذي ظهر في الشعر الفارسي في القرن السادس الهجري وما بعده هو تطور هذا التلاعب الذي نراه في هذه القصيدة، فقد أراد الشاعر أن يهدي إلى إمامه مثالًا من الشعر للشجرة التي ذكر في القرآن أن أصلها ثابت وفرعها في السماء، وشاء الشاعر إلا أن يهدي لإمامه هذه الدوحة، وجعل أبيات الفروع والأغصان سبعة عن يمين وسبعة عن شمال، تمثيلًا لرأي الفاطميين في الأدوار السبعة إذا انتهى دور سبعة من أئمة

الدين تلاه دورٌ آخر لسبعة آخرين، وقد يكون ذلك أيضًا لأن المعز كان سابع الأسبوع الثاني من دعوة النبي محمد، وأن العزيز هو أول الأئمة في دور الأسبوع الثالث، وهكذا كان هذا الشاعر في تلاعبه في شكل القصيدة باطنيًّا؛ وهو باطني أيضًا في المعاني التي قصد إليها، ففي مدحه لإمامه أمْلَتْ عليه عقيدته الفاطمية هذه المعاني، ففي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن العهد أو الميثاق الذي يأخذه الإمام على شيعته والمستجيبين لدعوته، وفي البيت الثالث يشير إلى أن الأئمة مثل للعقل الأول، وبما أن الله سبحانه وتعالى قال للعقل (وهو القلم أيضًا): «بك أثيب وبك أعاقب»[١]. فهذه الصفات تنطبق أيضًا على مثل العقل وهم الأئمة[٢]، فيثيب الله مَن أطاع الأئمة، ويعاقب مَن خالفهم. وفي البيت الرابع يتحدث الشاعر عن تنقُّل نور الله منذ بدأ خَلْقه إلى أن حلَّ هذا النور في إمام العصر[٣]، وفي البيت الخامس ذكر طاعة الأئمة، وأن طاعتهم فرض فرضه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. وفي البيت الثامن وما بعده يتحدث الشاعر عن العلم الباطن الذي خصَّ به الأئمة دون غيرهم، وأن هذا العلم هو الذي يحيي موتي النفوس، ويجلو غياهب الشك، ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن عقيدة الفاطميين التي شاركهم فيها غيرهم من المسلمين، وهي العقيدة التي تقول: إن الله لم يخلق هذا الخلق سدى؛ بل لعبادته وتوحيده، ولكن الفاطميين خالفوا المسلمين في الوسيلة التي تؤدي بهم إلى العبادة والتوحيد؛ ذلك أن العبادة عندهم لا تُقبَل إلا بموالاة الأئمة من أهل البيت، فكأنَّ العالم

---

(١) ذكرنا أنه ورد في صحيح البخاري قول النبي صلى الله عليه وسلم: **«أول ما خلق الله القلم، فقال له: أقبلْ فأقبل، ثم قال له: أدبرْ فأدبرَ، فقال: بعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا هو أعز عليَّ منك، بك أثيب وبك أعاقب...»**.

(٢) راجع «نظرية المثل والممثول».

(٣) راجع قصيدة الإمام العزيز في الفصل السابق.

لم يُخلق إلا من أجل الأئمة الذين بهم يصل الإنسان إلى عبادة الله وتوحيد الله، فالشاعر في هذه القصيدة شاعر عقائد قبل كل شيء، عرف عقائده فاتخذ هذه العقائد وسيلة لمدح الإمام، فالشاعر متأثر بهذه العقائد فظهرت في شعره.

وها هو ذا الأمير تميم بن المعز لدين الله، الذي نعرف عنه أنه ابن إمام من الأئمة، وأخ لإمام من أئمتهم، كان شاعرًا من أكبر شعراء عصره، مدح أباه وأخاه الإمام بعدة قصائد حُفِظت في ديوانه، وقد استطعنا الحصول على نسخة خطية من هذا الديوان، فرأينا الشاعر يصف الإمام بالمصطلحات الفاطمية، ويلم في شعره بعقائد أسرته، فهو يقول مرة للعزيز بالله:

جئتَ الخلافة لما أن دعتك كما ... وافى لميقاته موسى على قدر
كالأرض جاد عليها الغيث منهملًا ... فزانها بضروب الروض والزهر
ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف يتناهى منك جوهره ... تناهيًا جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت ... خلق الهيولي وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق متصل ... وأنت لله فيهم خير مؤتمر
وأنت آيته من نسل مرسله ... وأنت خيرته الغراء من مضر
لو شئت لم تَرْضَ بالدنيا وساكنها ... مثوى وكنت مليك الأنجم الزهر
ولو تفاطنت الألباب فيك درت ... بأنها عنك في عجز وفي حصر[1]

ففي هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح إمامه بأنه ليس كغيره من الملوك؛ لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هي روح قدسية حلت في جسم كثيف ترابي، وأن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل -الذي سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والفاطمية أيضًا- وبما أن العقل هو أول ما خلق الله فهو سابق لخلق الهيولي، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله

(١) ديوان الأمير تميم: ورقة ٥٨أ، (نسخة خطية بمكتبتي).

إليه سبحانه، فكذلك الإمام الذي هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة، وهو متصل بالله تعالى؛ لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى. وأن الإمام آية الله تعالى من نسل النبي محمد؛ لأنَّ ممثوله العقل هو آية الله الكبرى، وهكذا يستمر الأمير تميم في استغلال هذه الآراء والعقائد الفاطمية في مدح شقيقه الإمام العزيز بالله، بحيث لا نستطيع أن نصل إلى فهم أشعاره في هذا المديح دون التوصل إلى ذلك بتطبيق نظرية المثل والممثول. انظر إليه وهو يمدح الإمام:

فيابن الوصي ويابن البتول ... ويابن نبي الهدى المصطفى
ويابن المشاعر والمروتين ... ويابن الحطيم ويابن الصفا[1]

فهو يصف الإمام بمعانٍ باطنية، فمناسك الحج في التأويل الباطن هي محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أن الوصي والأئمة يقومون مقام النبي بعد موته فهم يوصفون بصفاته، ويكرر هذا المعنى في أكثر قصائده، كقوله:

وابن الصفا والحجر وابن الهدى ... وابن نبي الهدى وابن الكتاب[2]

فبجانب هذه الصفات التي وصف بها الإمام بأنه ابن الصفا وابن الحجر، نراه يصف إمامه بأنه ابن الكتاب، والكتاب هو القرآن، وفي التأويل الباطن أن القرآن والزبور والتوراة والإنجيل هي مثل، والممثول هو الوصي. يقول في ذلك صاحب المجالس المستنصرية: «فالقرآن العظيم هو هذا الكتاب الكريم، وقرينه في التأويل الحكيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه أفضل الصلاة والتسليم- لأنه في زمانه قرين القرآن، القرآن قرينه، وإنما يسمى الكتاب قرآنًا لاقترانه بالعترة، يبين ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني تارك**

(١) ديوان الأمير تميم: ورقة ٥أ.
(٢) ديوان تميم: ورقة ١٨ب.

فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي؛ فإنهما لم يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض». «فالقرآن قرين كل واحد من الأئمة الطاهرين»[١].

ومرة أخرى يمدح الأمير تميم إمامه بصفات باطنية فيقول:

يا حجة الرحمن عند عباده ... وشهابه في كل أمر مشكل
من لم يكن في صومه متقربًا ... بك للإله فصومه لم يقبل[٢]

فهو هنا يصف إمامه بأنه حجة الله في الأرض، وهو معنى من المعاني الباطنية، وصفة من صفات الأئمة[٣]، ويقول أيضًا: إن الإمام هو النور الذي يبين للناس ما غمض عليهم، ويوضِّح ما أشكل، وفي البيت الثاني يشير إلى عقيدة الفاطميين التي تقول: إن فرائض الدين الإسلامي لا تقبل إلا باتباع المنصوص عليه من أهل البيت، فلا صيام لصائم ما لم يعتقد ولاية الأئمة؛ لأنَّ الولاية -كما قلنا- هي محور عقيدة الفاطميين، ويكرِّر هذا المعنى الأخير في قوله:

وأنك أنت المصطفى الملك الذي ... بطاعته من ربنا نتقرب
ولولاك كان الملك في غير أهله ... وكان على أفق الشريعة غيهب
عليك صلاة الله ما طلع الضحى ... وما حن للأوطان من يتغرب[٤]

وهكذا نستطيع أن نستخرج من ديوان الأمير تميم أثر العقائد الفاطمية في شعره، ونستطيع أن نفهم ما قصد إليه الشاعر من معانٍ إذا طبقنا «نظرية المثل والممثول».

---

(١) كتاب المجالس المستنصرية: ص٢٩.
(٢) ديوان تميم: ورقة ١٣١ب.
(٣) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتاب ديوان المؤيد داعي الدعاة.
(٤) ديوان تميم: ورقة ١٧أ.

ولعل الشاعر المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي هو أول شاعر في هذا العصر وصل إلينا ديوان شعره، فإذا بشعره كله متأثر بالعقيدة الفاطمية؛ فالشاعر جعل كل قصائده التي في هذا الديوان في مدح الأئمة، ولم يتناول موضوعًا آخر من موضوعات الشعر، وملأ قصائده كلها بالمصطلحات الفاطمية، حتى أني لا أكاد أعرف لهذا الديوان مثيلًا في الأدب الفاطمي؛ بل في الأدب العربي كله، فنحن نستطيع أن نتخذ هذا الديوان الشعري من كتب العقائد الفاطمية، ولا غرو في ذلك، فالمؤيد لم يكن شاعرًا متكسبًا بشعره مثل غيره من الشعراء، ولم يكن شاعرًا من الشعراء الذين تستهويهم حياة المجون والقصف واللهو، إنما كان عالمًا من علماء الدعوة، بل كان إليه مرتبة داعي الدعاة، ولقبه إمامه المستنصر بالحجة نزوعًا إلى رفع شأنه، فليس غريبًا أن ينقطع مثل هذا العالم الكبير إلى العلم، وأن يتفرغ إلى كل ما يتصل بنشر الدعوة بين الناس، فإذا أنشد شعرًا فيتغلب على هذا الشعر عقل العالم لا عاطفته.

ولذلك ترى هذه الأشعار الكثيرة التي ضمها ديوانه مُلِئت علمًا وتأويلًا، انظر إليه يقول في إحدى منظوماته التي وضعها «المكاسرة» مخالفي مذهبه:

ما النون يا صاح ترى والكاف ... فالخلق در وهما أصداف
إن الذي ظنهما حرفي هجا ... مستوجب من ذي الحجا كل هجا
هل كافل بالأرض والسماء ... يا عمي حرفان من الهجاء
تفهموا يا قوم ما الحرفان ... إن نجاة المرء بالعرفان
ما فاعل العالم كالمفعول ... كلا، ولا الحامل كالمحمول
والكاف والنون اللذان انتظما ... صنع الإله منهما والتحما
وعنهما يأتلف الوجود ... لمن هو المشاهد الموجود
أنَّى يكونان من الموات ... وعنهما منابع الحياة[1]

(١) القصيدة الثانية من ديوان المؤيد داعي الدعاة.

فقارئ مثل هذه الأبيات من نظم المؤيد يدرك لأول وهلة مقدار تأثرها بالمصطلحات الفاطمية التي لا يعرفها إلا من تعمَّق في دراسة المذهب الفاطمي؛ فإن قضية الإبداع، أو الحدود الروحانية والجسمانية عند الفاطميين تكاد أن تكون أدق موضوع عالجه جميع الدعاة والكتاب، فأفردوا لهذا الموضوع كتبًا خاصة، وفصولًا من كل كتاب من كتب الدعوة، والمؤيد في الدين في هذه الأبيات يشير إلى «الكاف» و«النون» وهما الحرفان اللذان يأتلف منهما لفظ «كن» من قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾ غير أن الفاطميين قالوا: إن «كن» هي الكلمة التي قامت بها السماوات والأرض وما فيهما من خلق، وأن «الكاف» و«النون» ليسا بحرفي هجاء كما يتوهم العامة؛ بل هما ملكان روحانيان جليلا القدر عظيما الشأن، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهما في قوله: ﴿ن والقلم﴾، والله تعالى لا يقسم إلا بأعز مخلوقاته، «فالكاف» رمز من الله «بالقلم»، و«النون» رمز إلى «اللوح المحفوظ»، ويسمى «القلم» عندهم بالسابق، وهو العقل الكلي عند الفلاسفة، وله كل صفات وخصائص ذلك العقل كما تحدَّث عنه الفلاسفة، وهو أول ما أبدعه الله سبحانه وتعالى من الحدود الروحانية. ومن علماء المذهب مَن قال بأن وجود عالم الإبداع ظهر دفعة واحدة عن المبدع الحق تعالى لا من شيء؛ أي لا من مادة تقدَّمَتْ عليه، ولا بشيءٍ، أي لا بآله استعان بها عليه، ولا في شيء؛ أي لا مع غيره يشاكله ويساويه، ولا مثل شيء؛ أي لا مثل معلوم كان له نظير فيه، ولا لشيء؛ أي لا لحاجة في زيادة ولا نقصان في ملكه تعالى ومشيئته، فكان وجود الكل كما رمز به الحكماء ولوح به العلماء عنه تعالى بحرف «الكاف» و«النون» فكان ما كان[1]، ولكن أغلب العلماء على أن «القلم» كان أسبق في الوجود من اللوح، ولذلك سمي «القلم» بالسابق، و«اللوح» بالتالي،

(١) كتاب كنز الولد، (نسخة خطية بمكتبتي).

و«اللوح» هو ما يُسمَّى عند الفلاسفة بالنفس، وجعل الفاطميون لهذا الحد الصفات التي وصف بها الفلاسفة النفس الكلية، ومن «القلم» و«اللوح» وبواسطتهما أوجد الله تعالى جميع المخلوقات في السماوات والأرض، فهما كافلا العالم[١]، فحديثهم في الإبداع هو صورة لمراتب الفيوضات في الأفلاطونية الحديثة، وإن كان الفاطميون صبغوها بالصبغة الإسلامية، وبتطبيق نظرية المثل والممثول، يكون النبي مثلًا «للقلم»، والوصي مثلًا «للوح»، وبعد وفاة النبي يصبح الإمام مثلًا للقلم والحجة مثلًا للوح، وللمثل جميع صفات وخصائص المثول، فكأن الفاطميين لم يبحثوا مسألة الإبداع إلا لإثبات مكانة الأئمة بين الحدود الجسمانية، ومماثلتهم للحدود الروحانية في العالم العلوي، وإسباغ ألوان التقديس على الأئمة بهذه المماثلة، وعن هذه العقيدة اشتقَّ الفاطميون عقائدهم في صفات الإمام، وظهر أثرها في الشعر الفاطمي. من ذلك ما أنشده المؤيد في الدين في مدح إمامه المستنصر:

قد خُلقتم من طينة وخُلِقنا ... نحن منها لكن بدا ترتيب
إن أجسامنا لناشئة الطين ... الذي منه شق منَّا القلوب[٢]

فهو يمدح إمامه بأن جسم الإمام عقل كله؛ ذلك أن جسم الإمام خُلق من الطينة التي خُلقت منها قلوب البشر؛ أي أن الطينة التي خُلق منها جسم الإمام هي نفس الطينة التي خُلق منها عقل البشر، فما هو كثيف عند الإمام هو لطيف عند غيره من عامة الناس، وتأويل ذلك أن عقل الإمام شريف، ويجب أن يكون ما يحل فيه هذا العقل شريفًا أيضًا، ولكن بما أن الإمام من البشر، وجسمه ترابي كغيره من الآدميين، فجسمه خُلِق من تراب، ولكنه التراب الذي خُلق منه قلب البشر الذي يحله عقول البشر. وفي هذا المعنى يقول المؤيد أيضًا:

---

(١) راجع كتاب راحة العقل والمجالس المؤيدية في مواضع متعددة.
(٢) القصيدة الثالثة.

نعم قد أفاضها في البرايا ... فتخلت عن شكرها أنعام
هم نهايات كل من برأ الله ... وغايات خلقه والسلام
فإليهم تنمى النفوس إذ را ... حت إلى الأرض تنتمي الأجسام[١]

وقوله أيضًا:

مولى مواليه الأعز ... كما معاديه الأذل
ذو نسبة بالمصطفى ... والمرتضى يسمو ويعلو
بكثيفه ولطيفه ... فأساسه نفس وعقل[٢]

وهذا المعنى كثير جدًّا في شعر المؤيد، نراه في أكثر قصائده التي في الديوان.

هناك عقيدة أخرى ردَّدها المؤيد في شعره، فهو يقول مثلًا:

سلام على العترة الطاهرة ... وأهلًا بأنوارها الزاهرة
سلام بديا على آدم ... أبي الخلق باديه والحاضرة
سلام على مَن بطوفانه ... أديرت على مَن بغى الدائرة
سلام على مَن أتاه السلام ... غداة أحفت به النائرة
سلام على قاهر بالعصا ... عصاة فراعنة جائرة
سلام على الروح عيسى الذي ... بمبعثه شرفت ناصرة
سلام على المصطفى أحمد ... ولي الشفاعة في الآخرة
سلام على المرتضى حيدر ... وأبنائه الأنجم الزاهرة
سلام عليك فمحصولهم ... لديك أيا صاحب القاهرة
بنفسي مستنصرًا بالإله ... جنود السماء له ناصرة
شهدت بأنك وجه الإله ... وجوه الموالي به ناضرة

(١) القصيدة الثانية عشرة.
(٢) القصيدة السادسة عشرة.

وأنـــك صـــاحب عـــين الحيـــاة ... وعـــين خـــصومهم غـــائرة
بحـــار النـــدى كفـــه والعلـــوم ... مـــدى الـــدهر في قـــرن زاخـــرة
لإحيـــاء أرواحنـــا الباقيـــات ... وإنـــشاء أجـــسامنا البـــائرة[1]

فالشاعر هنا يسلم على جميع الأنبياء، وعلى الوصي علي بن أبي طالب والأئمة من ذريته، ولكنه ذهب إلى أبعد من التسليم فقال: «فمحصولهم لديك أيا صاحب القاهرة»، وصاحب القاهرة في عصره هو الإمام المستنصر بالله، فهل معنى ذلك أنه جعل الأئمة في منزلة الأنبياء؟ تقول عقيدة الفاطميين: إنَّ النبي محمدًا جمع أدوار كل الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبله؛ أي أنه في دوره مثل آدم في دوره، فهو آدم على هذا النحو، وهو إبراهيم في دوره ... وهكذا، فكأنه بذلك جمع أدوار جميع الأنبياء، بل قال الفاطميون: إنَّ دور النبي محمد يشبه أدوار الأنبياء السابقين، وما حدث للأنبياء وأوصيائهم وأئمة دورهم يحدث أيضًا لمحمد ووصيه وأئمة دوره، فالأدوار واحدة، ولكنها تتخذ أشكالًا مختلفة، ولما كان الإمام يقوم مقام النبي فهو مجمع الأدوار أيضًا على هذه الصورة، فالمستنصر هو آدم وهو إبراهيم وهو نوح ... إلى آخر الأنبياء، فالنور الذي تنقَّل بين الأنبياء حلَّ في إمام الزمان، ليس معنى ذلك أن الأئمة كانوا بمنزلة الأنبياء؛ فقد ذكرنا أن لهم نفس صفات الأنبياء إلا صفة النبوة والرسالة، وهكذا نستطيع أن نفسِّر قصيدة المؤيد السابقة. ومن الطريف أن المؤيد نفسه في قصيدة أخرى قَارَنَ بين الإمام وبين بعض الأنبياء، فقال في مقارنة المستنصر بنبي الله عيسى ابن مريم:

وصـــديق مثـــل العـــدو مـــداج ... لا أراه إلا عـــــدوًّا مـــــضلا
جـــاءني حـــائرًا فقـــال بجهـــل ... مـــا أرى للمـــسيح في النـــاس شـــكلا
إن عيـــسى قـــد كلَّـــمَ الله في المهـــد ... صـــبيًّا وكلـــمَ النـــاس كهـــلا

(١) القصيدة الحادية والأربعون.

قلت: هذا مولى الأنام معد ... قد حوى الملك والإمامة طفلا
قال: عيسى أحيا الموات جهارًا ... قلت: مهلًا يا ناقص الفهم مهلا
إن هذا مولى الأنام معد ... هو يحيي بالعلم مَن مات جهلا
قال: عيسى أبرأ العمى، قلت: مولا ... ي معد يجلو العمى إن تجلَّى
قال: حسبي أجبتني بجواب ... باطني بيَّنت لي فيه عقلا
ثم ولى عني مقرًّا بفضل ... لإمام الهدى ورحت مدلا[1]

وقِسْ على ذلك مقارناته لباقي الأنبياء، فهو يتحايل على المعاني حتى يأتي منها بما يلائم مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء، وتكاد قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم أن تئول على هذا النحو الذي رأيناه في هذه القصيدة، ويستمر المؤيد في كل قصائده يمدح الإمام بمعان باطنية هي من تأثير العقيدة في نفسه وفي شعره.

ويُخَيَّل إليَّ أن العقائد أثرت أيضًا في جميع الشعراء الذين ظهروا في بلاط الأئمة في عهد ضعف الأئمة، وسطوة الوزراء، وفي عهد انتقال مركز الدعوة إلى اليمن، ودخول الأئمة في دور الستر الثاني، وقد ذكرنا أن الحافظ والظافر والفائز والعضد آخر ملوك الفاطميين كانوا يحكمون نيابة عن الإمام المستتر ولم يكونوا أئمة، ولكن شعراء مصر أَبَوا إلا أن يغدقوا صفات الأئمة على هؤلاء النواب، بل من الشعراء مَن لقب هؤلاء الملوك بالأئمة؛ فالشاعر الشريف أبو الحسن علي بن محمد الأخفش شاعر الآمِر والحافظ مدح الحافظ بقوله:

صرف جريال يرى تحريمها ... مَن يرى الحافظ فردًا صمدا
بشر في العين إلا أنه ... من طريق العقل نور وهدى
جَلَّ أن تدركه أعيننا ... وتعالى أن نراه جسدا

(١) القصيدة التاسعة والخمسون.

فهــو في التــسبيح زلفــى راكــع ... ســـمع الله بـــه مَـــن حمـــدَا
تـــدرك الأفكـــار فيـــه بانيـــا ... كـــاد مـــن إجلالـــه أن يُعبـــدَا[(١)]

فالشاعر هنا مدح الحافظ بهذه الصفات الباطنية التي هي من صفات الأئمة؛ ولكن الحافظ كان ينوب عن الإمام المستتر فطبَّق الشاعر صفات الإمام على نائبه، فالإمام عن طريق العقل؛ أي عن طريق علم الباطن، هو نور؛ أي أنه عقل كله، والعقل الأول لا يُدرك بالأبصار، فهو يتعالى أن يحد بحدود ذلك الجسد، أما قوله: «فهو في التسبيح زلفى راكع» فتأويل الركوع -كما يحدثنا القاضي النعمان في كتابه تأويل دعائم الإسلام- هو طاعة الإمام، والإقرار بحدود الدين الروحانيين والجسمانيين، والتسبيح في الركوع تأويله البراءة والتنزيه لله تعالى أن يقاس أو يشبه به أحد من حدوده أو من خلقه[(٢)]، وتأويل «سمع الله به من حمدا» أن كل مَن صار إلى الدعوة وجب عليه حمد الله على ما أصاره من فضله إليه، وأطلعه من أمر أوليائه عليه، فيأمر الداعي بذلك من دعاه، ويخبرهم أن الله تعالى يسمع حمدهم، ويطلع على اعتقادهم في ذلك، فإن كانوا قبلوه حق القبول، واغتطبوا به كما يجب، وحمدوا الله على ما هداهم إليه منه فيحمد الله كما أمرهم[(٣)]. أمَّا البيت الأخير فالشاعر يشير إلى أن الإنسان إذا فكر في أمر الإمام، وأن الإمام مثل للعقل الأول، وما يوصف به هذا العقل، فيكاد المفكر من إجلاله للعقل أن يعبده وأن يعبد مثله، وهذا البيت الأخير يشبه قول المؤيد في مدح المستنصر:

لـــست دون المـــسيح ســـماه ربًّـــا ... أهـــل شرك ولا نـــسميك ربـــا

---

(١) الخريدة: ورقة ١٤٢ب.

(٢) المجلس الرابع من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام، (نسخة خطية بمكتبتي).

(٣) المجلس الخامس من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام، (نسخة خطية بمكتبتي).

وهو مثل قول الشريف بن أنس الدولة في مدح الحافظ، وقد صعد المنبر يوم العيد:

خشوعًا فإن الله هذا مقامه ... وهمسًا فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بروزه ... تحياته من ربنا وسلامه[1]

فهذا المعنى الذي ورد في جميع هذه الأبيات هو من المعاني الباطنية، وكلها تخضع في التفسير لنظرية المثل والممثول أيضًا، فالإمام مثل العقل الأول فهو أشرف من جميع المخلوقات، وأنه هو المقصود بوجه الله ويد الله وجنب الله التي وردت في القرآن الكريم، ثم انظر إلى قول الشاعر:

هذا أمير المؤمنين بمجلس ... أبصرت فيه الوحي والتنزيلا
وإذا تمثل راكبًا في موكب ... عاينت تحت ركابه جبريلا[2]

«فمجلس الوحي والتنزيل» هو مجلس النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقوم الإمام مقامه، أما قوله: «عاينت تحت ركابه جبريل» فتأويل الملائكة في عقيدة الفاطميين هم الدعاة، فكأن الشاعر يقول: إن الإمام إذا سار في موكبه سار تحت ركابه الدعاة الذين يدعون له ولمذهبه.

وكان الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك من الشعراء الذين اتخذوا الشعر وسيلة لنشر عقائد مذهبه، ولتهجين مذاهب أضداده؛ فمن ذلك قوله:

يا أمة سلكت ضلالًا بيِّنا ... حتى استوى إقرارها وجحودها
ملتم إلى أن المعاصي لم يكن ... إلا بتقدير الإله وجودها
لو صحَّ ذا كان الإله بزعمكم ... منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا ... ينهى عن الفحشاء ثم يريدها[1]

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٣٣٠.
(٢) صبح الأعشى: ج٣، ص٤٩٧.

فهو هنا يشير إلى تلك المسألة التي شغلت أذهان المسلمين، وأثارها المعتزلة ردحًا طويلًا من الزمان، وأثارت مجادلات بين علماء المسلمين، وهي مسألة الجبر والاختيار. فجمهور أهل السنة على أن الإنسان مُجبر، والمعتزلة تذهب إلى أن الإنسان مخير، ولكن الفاطميين كانوا يذهبون مذهبًا وسطًا، فالإنسان مجبر في أمور، ومخير في أمور؛ فهو ولد من غير اختيار؛ بل هو مجبر، وتصيبه بعض الأحداث في حياته قضاء وقدرًا، ويموت بغير اختيار، أما أفعاله فهو مخير فيها.

ولم يكن شعراء مصر الذين مدحوا الأئمة والوزراء هم الذين ألموا في أشعارهم بعقائد الفاطميين وتأثروا بها هذا التأثر الذي رأينا بعض نماذجه؛ إذ المفروض أن جميع الشعراء الذين اتصلوا ببلاط الفاطميين كانوا يتمذهبون بمذهب الأئمة، ولكننا نرى الشعراء الوافدين على مصر في ذلك العصر كانوا يحاولون أن يتخذوا العقائد الفاطمية وسيلة للوصول إلى مدح الأئمة، وأن يزينوا شعرهم بهذه العقائد للتقرب إلى الأمراء والوزراء والأئمة، وأكثر الشعراء الذين وفدوا على مصر لم يكونوا فاطميي المذهب، ولكنهم اضطروا إلى أن يمدحوا الأئمة بالمعاني الباطنية على نحو ما كان يفعله شعراء مصر. ويحدثنا ياقوت أن الحسين بن عبد الله الشاعر المعروف بأبي حصينة المعري، المتوفى سنة ٤٥٧هـ، أوفد إلى المستنصر بالله، وأنه مدح المستنصر بقصيدةٍ منها:

ظهر الهدى وتجمل الإسلام ... وابن الرسول خليفة وإمام
مستنصر بالله ليس يفوته ... طلب ولا يعتاص عنه مرام
حاط العباد وبات يسهر عينه ... وعيون سكان البلاد تنام
قصر الإمام أبي تميم كعبة ... ويمينه ركن لها ومقام
لولا بنو الزهراء ما عرف التقى ... فينا ولا تبع الهدى الأقوام

(١) خطط المقريزي: ج٤، ص٨٢.

يـــاآل أحمـــد ثبتـــت أقـــدامكم ... وتزلزلـــت بعـــداكم الأقـــدام
لـــستم وغـــيركم ســـواء، أنـــتم ... للـــدين أرواح وهـــم أجـــسام
يـــا آل طـــه حـــبكم وولاؤكـــم ... فـرض وإن عـذل اللحـاة ولامـوا[1]

فالشاعر على الرغم من أنه من معرة النعمان يمدح إمام مصر الفاطمي بهذه الصفات الباطنية التي تجد حظًّا من القبول إذا مُدح بها الإمام، فقصر الإمام كعبة والركن والمقام في التأويل الباطن مثل على الإمام، ولولا الأئمة ما عرفت حقيقة الدين، والأئمة عقول والناس أجسام، والولاء للأئمة فرض من الله. فهذه كلها من عقائد الفاطميين، واضطر الشاعر أن يزجَّ بها في مدحه للإمام الفاطمي، ولهذا الشاعر قصيدة أخرى في مدح المستنصر أيضًا منها قوله:

أمـــا الإمـــام فقـــد وفى بمقالـــة ... صـــلى الإله عـــلى الإمـــام وآلـــه
لـــذنا بجانبـــه فعـــمَّ بفـــضله ... وببذلـــه وبـــصفوه وجمالـــه
لا خلـق أكـرم مـن معـد، شـيمة ... محمـــودة في قولـــه وفعالـــه
فاقـصد أمـير المـؤمنين فـما تـرى ... بؤسًـــا وأنـــت مظلـــل بظلالـــه
زاد الإمـــام عـــلى البحـــور بفـــضله ... وعـــلى البـــدور بحـــسنه وجمالـــه
وعـلى سريـر الملـك مـن آل الهـدى ... مـــن لا تمـــر الفاحـــشات ببالـــه
النـــصر والتأييـــد في أعلامـــه ... ومكـــارم الأخـــلاق في سربالـــه
مستنـــصر بـــالله ضـــاق زمانـــه ... عـــن شـــبهه ونظـــيره ومثالـــه[2]

فالشاعر في هذه القصيدة مدح الإمام بالمعاني التي اعتاد الشعراء أن يمدحوا بها الملوك، ولكنه ألمَّ فيها أيضًا بالمعاني الباطنية التي تميِّز مصر الفاطمية عن غيرها من الدول، وتميز شعر مصر الفاطمية عن باقي الشعر

(١) ياقوت، معجم الأدباء: ج١٠، ص٩٠، (طبعة رفاعي).
(٢) ياقوت: ج١٠، ص٩٢.

العربي؛ فالصلاة على الإمام وآله، وأن الإمام من نسل الرسول، وأن لا شبيه للإمام ولا مثيل، كل هذه من العقائد التي كان يبثها الدعاة بين الناس.

ولعل الشاعر عمارة اليمني أصدق مثال لهؤلاء الشعراء السنيين الوافدين على مصر، والذين ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية؛ ففي أول قصيدة أنشدها في مصر قال في مدح الخليفة الفائز، ووزيره الملك الصالح بن رزيك تلك القصيدة التي مطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمدًا يقوم بما أولت من النعم

وفيها يقول:

لا أجحد الحق، عندي للركاب يد ... تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العز من نظري ... حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفدًا إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أني بعد فرقته ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار مقدسة ... تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا ... على الخفيين من حكم ومن حكم[1]

ويستمر عمارة في مدح الفائز، ثم ينتقل إلى مدح وزيره الملك الصالح بن رزيك، ولكن الشاعر كان بعيدًا عن مركز الخلافة فلم يستطع أن يعرف شيئًا كثيرًا من عقائد الفاطميين، ولذلك لم يتحدث عن المعاني الباطنية ألا بقدر يسير، ولا سيما في البيت الأخير من هذه المقطوعة، على أن الشاعر بعد أن استقرَّ بمصر، واتصل بالبيئة المصرية حوله، وسمع جدل العلماء ومناقشاتهم في مجالس الملك الصالح، وعرف شطرًا من العقائد الفاطمية، تأثَّر بهذه العقائد في

(١) النكت: ص٣٢.

شعره، وإن كان لم يعتنق دعوتهم، بل ظلَّ على عقيدة الشافعية، فهو يقول في مدح العاضد:

وعليك من شيم النبي وحيدر ... للناظرين أدلة وشهود
والوحي ينطق عن لسانك بالذي ... من دونه يصدع الجلمود
شخصت إليك نواظر الأمم التي ... ملكتهم لك بيعة وعهود
يوم جلت فيه الإمامة عزها ... ولها الملائكة الكرام جنود[1]

في هذه الأبيات يظهر تأثير البيئة الفاطمية في شعر عمارة؛ فالشاعر هنا متأثر بالعقائد، حتى يُخيل إلينا أنه أصح على دينهم وعقيدتهم، فالوحي -وهو في التأويل داعي الدعاة- ينطق عن لسان الإمام بالحجج الدامغة، والبراهين القوية التي لا تقف أمامها حجج أو براهين، والبيعة في عنق جميع الذين عاهدوا الإمام، والملائكة وهم الدعاة جنود الإمام. ومرة أخرى يمدح العاضد بقوله:

لا يبلغ البلغاء وصف مناقب ... أثنى على إحسانها التنزيل
شيم لكم غر أتى بمديحها الـ ... ـفرقان والتوراة والإنجيل
سير نسخناها من السور التي ... ما شأنها نشج ولا تبديل
قامت خواطرها بخدمة نظمها ... فيكم، وقام بنثرها جبريل
شرف تبيت به قريش كلها ... عولًا لكم وعليكم التعويل
إنَّ الرسول أبوكم من دونها ... فمن الذي منها أبوه رسول
ولقد ورثت مقام قوم يستوي ... منهم شباب في العلا وكهول
وجمعت شمل خلافة لم يختلف ... في فضلها المعقول والمنقول
لما برزت إلى المصلى معلنًا ... وشعارك التكبير والتهليل
وخطبت فيه المؤمنين خطابة ... ذابت عيون عندها وعقول

(١) النكت: ص١٩٨.

وسللت عرب فصاحة نبوية شهدت بأنك للنبي سليل[١]

فهو هنا يمدح العاضد بأن في سور للقرآن والتوراة والإنجيل آيات في شأن الأئمة، وهذا من أقوال الفاطميين في أئمتهم حتى قال شاعرهم المؤيد في الدين:

لهم معاني الزبر وفضل آي الزمر[٢]

وقال عمارة أيضًا في هذا المعنى نفسه:

يا خير من نظم المديح لمجده وتنزلت سور الكتاب بحمده[٣]

وانظر إليه وهو يقول في مدح العاضد أيضًا:

ولاؤك دين في الرقاب ودين وودك حصن في المعاد حصين
وحبك مفروض على كل مسلم يقول بحب المصطفى ويدين[٤]

ولعل الأبيات التي أنشدها في رثاء الملك الصالح بن رزيك تدل دلالة واضحة على مدى تأثر عمارة بالعقائد، وبتأويل الفاطميين، فهو يقول مثلًا:

لا تعجبن لقدار ناقة صالح فلكل عصر صالح وقدار
أحللت دار كرامة لا تنقضي أبدًا وحل بقاتليك بوار[٥]

فناقة صالح التي ذُكرت في القرآن تئول على حجة صالح، وكذلك كان الوزير ابن رزيك حجة الخليفة الفائز، ويتحدث عمارة عن الأدوار، فلكل عصر «صالح» من نبي أو إمام، ولكل عصر «ناقة صالح» أي حجة للإمام،

(١) النكت: ص٣٠٦.
(٢) القصيدة الخامسة والعشرون من ديوان المؤيد.
(٣) النكت: ص٢٠١.
(٤) النكت: ص٣٦٢.
(٥) النكت: ص٦٩.

فهذا المعنى لا يأتي به إلا مَن عرف دقائق الدعوة وأسرارها، وكان عمارة يجالس الدعاة والعلماء فعرف الكثير من أسرارهم، فجرى لسانه به. وفي البيت الثاني يتحدث الشاعر أيضًا عن عقيدة الفاطميين في خلود النفس بعد الموت، وعودتها إلى العالم الروحاني، فإن كانت نفسًا شريفة بأن كانت نفس حد من حدود الدين الجسمانية عادت إلى عالم الحدود الروحانية، وتأخذ مرتبتها بين الحدود الروحانية كما كانت مرتبتها بين الحدود الجسمانية.

وفي مديحه للصالح قال:

كاف هو الباب الذي من لم يصل ... منه فليس له إليك وصول

إشارة إلى أن داعي الدعاة هو باب الأبواب، وهو الذي يشير فيه إلى الحديث النبوي: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها». فالإمام في عصره يماثل النبي في عصره، وداعي الدعاة هو الباب أيضًا، وقد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك أنشد يدعو عمارة إلى دخول المذهب، واستعمل الصالح هذا المصطلح أيضًا:

قُل للفقيه عمارة يا خير مَن ... أضحى يؤلِّف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ... قل «حطة» وادخل إلينا «البابا»
تلق الأئمة شافعين ولا تجد ... إلا لدينا سنة وكتابا[1]

وفي قضية أول رمضان، حدث أن غم الهلال، ولم يظهر بين الضباب، فلم يره الناس رؤية بصر، ولكن المصريين صاموا على حسب رؤية الاستبصار والعلم بدورة الفلك، وظهر العاضد ووزيره شاور بين الناس، فقال عمارة في ذلك:

ولما تراءت للهلال بصائر ... يغطي الهوى أبصارها بضباب
وقفنا فهنَّأنا الصيام بعاضد ... سناه مدى الأيام ليس بخاب[1]

(١) النكت: ص٤٥.

فرؤية رمضان التي نحتفل بها اليوم هي من فكرة ظهور الإمام الفاطمي معلنًا صوم رمضان.

وبعد القضاء على الدولة الفاطمية وموت العضد، اتفق أن اجتمع الشاعر يحيي أبو سالم بن الأحدب بن أبي حصينة، والشاعر عمارة اليمني في قصر اللؤلؤة، فأنشد أبو سالم في نجم الدين أيوب:

يا مالك الأرض لا أرضى له طرفًا ... منها، وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل الله هذي الدار تسكنها ... وقد أعدَّ لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها ... فالبس بها العز، ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفًا والدار لؤلؤة ... وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

فأجابه عمارة:

أثمت يا مَن هجا السادات والخلفا ... وقلت ما قلته في ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفًا حلوا بلؤلؤة ... والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وإنما هي دار حل جوهرهم ... فيها، وشف فأسناها الذي وصفا
فقال لؤلؤة عجبًا ببهجتها ... وكونها حوت الأشراف والسرفا
فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا ... فيها، ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه ... من البرية إلا كل من عرفا
لولا تجسمهم فيه لكان على ... ضعف البصائر للأبصار مختطفا
فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة ... لأن فيه حفاظًا دائمًا ووفا[٢]

(١) النكت: ص١٦٨.
(٢) الخطط: ج٢، ص٣٥١.

فانظر إلى قول عمارة: إنَّ جوهرهم هو الذي حل بهذه الدار، وإن الآيات سكنتها وكانت تسكن الصحف، وحديثه عن الجوهر الفرد الذي هو نور تجسم في الأئمة.

أليس ذلك كله من الأدلة التي نسوقها على تأثر عمارة بالعقائد الفاطمية على الرغم من تمسكه بمذهبه السني الشافعي؟

من ذلك كله نستطيع أن ندرك كيف استطاع الفاطميون أن يتخذوا من الشعراء ألسنة لهم في نشر عقائدهم التي أذاعوها بين هؤلاء الشعراء، وكيف استغل الشعراء علم الباطن، وخاصة ما خلعه علماء المذهب على الأئمة من صفات باطنية، وكيف كان الشعراء يمدحون الأئمة والدعاة بهذه الصفات حتى يتقربوا إليهم، وينالوا من هباتهم وعطاياهم. ويقول القلقشندي: كان الشعراء جماعة كثرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره، وكان منهم أهل سنة لا يغلون في المدح، وشيعة يغلون فيه[1]. فكأنَّ القلقشندي كان يرى أن جميع الشعراء الذين مدحوا الأئمة قد ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية، ولكن بعضهم كان يسرف في ذلك، وبعضهم كان يقتصد.

وها هو ذا الكاتب ولي الدولة أحمد بن علي بن خيران صاحب ديوان الإنشاء في عهد الظاهر والمستنصر، ينشد شعرًا يدل على أنه كان يتشيَّع، ولكنه كان يعارض الفاطميين في أمور، فهو يقول:

أنا شيعي لآل المصطفى ... غير أني لا أرى سبَّ السلف
أقصد الإجماع في الدين ومَن ... قصد الإجماع لم يخش التلف
لي بنفسي شغل عن كل من ... للهوى قرظ قومًا أو قذف[2]

(١) صبح الأعشى: ج٣، ص٤٩٧.
(٢) معجم الأدباء: ج٤، ص١٠، (طبعة رفاعي).

ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير العقائد في الشعر الفاطمي، ولا سيما شعر المدح الذي قيل في الأئمة، واضحًا جليًّا نراه في هذه النماذج من الشعر التي قدمناها، كما كان الشعراء من ألسنة الدعوة الدينية، فقد سار شعرهم في البلاد ورواه الناس، واستغله الدعاة في نشر المذهب، وفي عصرنا الحديث لا تزال بعض قصائد المؤيد في الدين تُردَّد في المساجد، فطائفة البهرة في الهند تردِّد إلى الآن قصيدة المؤيد التي مطلعها:

سلام على العترة الطاهرة ... وأهلًا بأنوارها الزاهرة[١]

عقب صلاة الفجر كل يوم، ويرتلون قول المؤيد:

أبا حسن يا نظير النذير ... ولولا وجودك فات النظير[٢]

عقب صلاة التهجد كل يوم، وينشدون قصيدته التي مطلعها:

إلهي دعوتك سرًّا وجهرًا ... أيا مالك الملك خلقًا وأمرا[٣]

عقب صلاة النوافل في رمضان، ولا سيما في ذكرى مقتل عليٍّ، ويرددون قول المؤيد أيضًا:

هلال بدا من خلال الدجنة ... إمام زمان من النار جنة[٤]

في أول كل شهر عربي. وهكذا يترنم طائفة البهرة بأشعار المؤيد شاعر المستنصر الفاطمي وداعي دعاته، على نحو ما يفعله الصوفية في ترتيل الأوراد.

على أن الشعر الذي يلم بالعقائد هو في أكثره شعر صنعة، والشاعر كان يجهد نفسه في أن يأتي في شعره ببعض العقائد، وأن يلائم بين هذه العقائد

---

(١) القصيدة الحادية والأربعون من ديوان المؤيد.

(٢) القصيدة الخامسة والأربعون.

(٣) القصيدة السادسة والعشرون.

(٤) القصيدة الثانية والعشرون.

والألفاظ التي يختارها لشعره، ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر، ذلك كله يدلنا على أن الشاعر كان يصنع شعره، وكان ينفق جهدًا كبيرًا في إنشاد الشعر؛ ولذلك نرى شعر العقائد أقرب إلى النظم منه إلى الشعر الجيد الجزل، ولا غرابة إذا رأينا في القصيدة الواحدة للشاعر الواحد لونين من الشعر؛ فالمقدمة التي كان يجعلها الشاعر لقصيدته لون، والأبيات التي بها العقائد لون آخر، يظهر في المقدمة فن الشاعر وطبيعته، وتظهر في الأبيات التي بها العقائد صناعة الشاعر وتلاعبه، وقلَّ أن نجد شاعرًا استطاع أن يوفق بين طبيعته وعقله، أو بين فنه وعلمه. ومع ذلك كله فإن هذا اللون من الشعر الذي كثر في العصر الفاطمي، ظهر مرة أخرى في شيء من القوة في شعر الصوفية، وهو الشعر الذي كاد يكون الشعر الرمزي في الأدب العربي -وسنرى ذلك في حديثنا عن شعر الصوفية في العصور التي تلت عصر الفاطميين- ويكفي أن أقول الآن: إنَّ شعر الصوفية هو تطور شعر العقائد الفاطمية، وكذلك تأويلات الصوفية هي تطور لتأويل الباطن عند الإسماعيلية.

وأكثر الشعر الذي يتأثر بالعقائد كان في مدح الأئمة الفاطميين، على أنَّ هناك شعراء مدحوا الأئمة، ولم يقربوا العقائد من قريبٍ أو من بعيدٍ، بل كان شعرهم في المدح صورة أخرى للمدح عند غيرهم من الشعراء، ولغير الفاطميين من الأمراء، فوصف بالجمال والكرم والشجاعة والسؤدد إلى غير ذلك من الصفات التي جعلها الشعراء للممدوحين، فمن ذلك قول الشاعر أبي الرقعمق في العزيز:

حـــي الخيـــام فـــإني ... مغـــرى بأهـــل الخيـــام
بالراميـــات فـــؤادي ... بـــصائبات الـــسهام
لا عـــذب الله قلبـــي ... إلا بطـــول الغـــرام
ســـقيا لـــدهر تـــولى ... بـــشرتي وغرامـــي

كأنما ذلك العيش كان في الأحلام
لم يبق من ترتجيه لحادث الأيام
إلا ابن أحمد ذو الطول والأيادي الجسام
كفاه أغدق جودا من واكفات الغمام
يلقى العفاة بوجه مستبشر بسام
معظما ترتجيه للنائبات العظام
يرمي الخطوب برأي أمضى من الصمصام
قرم له عزمات تفل حد الحسام[1]

ففي هذه الأبيات لا تجد معنى باطنيًّا في حاجة إلى تأويل، ولا تجد مدحًا في الإمام الفاطمي يختلف عن المدائح التي تقال لغير الفاطميين، فكل الممدوحين عند الشعراء يوصفون بالجود والشجاعة وأصالة الرأي إلى غير ذلك من الصفات التي اعتاد الشعراء أن يذكروها، وأن يصفوا بها الرجل اليوم، وغدًا يصفون عدوه بالصفات نفسها.

وفي قصيدة أخرى مدح أبو الرقعمق الإمام العزيز، ولم يذكر شيئًا في حاجة إلى تأويل باطني، فقد قال:

سيد شادت علاه له في العلا آباؤه النجب
وله في بيت يمد له فوق مجرى الأنجم الطنب
حسبه بالمصطفى شرفًا وعلي حين ينتسب
رتبة في العز شامخة قصرت عن مثلها الرتب[2]

(١) يتيمة الدهر: ج١، ص٢٤٠.
(٢) نهاية الأرب: ج٣، ص١٩٤.

فكل هذه المعاني ليست باطنية، والشاعر قد ثبت نسب الإمام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب، وهذه المعاني تصلح أن يمدح بها كل شريف علوي.

ومن الغريب أن نرى أكثر مدائح الأمير تميم في أخيه الإمام العزيز بالله هي هذه المدائح المكررة المألوفة، فهو يقول مثلًا يهنئه بالعيد:

للعيد في كل عام	يوم يعيد سناه
وأنت في كل يوم	عيد يلوح علاه
ونعمة وسعود	للمعتفين وجاه
يا من تصل المعالي	إليه حين تراه
ومن يبر اليتامى	من كل خلق سواه
لو كان للفضل يومًا	مني لكنت مناه
لأن منك استعار الـ	ـمان حسن حالاه
فأنت شمس ضحاه	وأنت بدر دجاه
كفاك في كل سلم	سحاب صوب نداه
وحسن رأيك في الحر	ب سيفه وقناه
فأنت يمنى يديه	وأنت أمضى ظباه
فاسلم لسعدك يا من	يديم نحس عداه[1]

فالأمير تميم يهنئ أخاه بيوم من أيام الأعياد الدينية، ولكنه مع ذلك كله لم يأت بمعنى واحد من المعاني الدينية التي كان الشعراء يقصدون إليها في مدح الفاطميين، ولو شاء الأمير تميم أن يأتي بالمعاني الباطنية في شعره لأتى بما يعجز عنه غيره من الشعراء؛ لأنَّه أقدر على معرفة أسرار العقائد الفاطمية، فهو ابن إمام وأخو إمام؛ بل كانت الإمامة ستئول إليه بعد أبيه، ومع ذلك كله فالشاعر

(١) ديوان تميم «نسخة خطية بمكتبتي».

هنا كان شاعرًا فحسب، أراد أن يمدح الإمام فمدحه بهذه المعاني المألوفة. وفي قصيدة أخرى يقول تميم في مدح العزيز:

رأيت معدًا كالحسين وإنما ... تطول على المولود إن أنجب الجد
تعرب فهما مثلما ذاب رقة ... وظرفا فما في وصف كنه له حد
به يشتفي السمع الأصم بلفظه ... وتشفى برؤيا وجهه الأعين الرمد
كأن ضياء الشمس رداء نوره ... وأهدى إليه قلبه الاسد الورد
وليس يبالي أن يروح ويغتدي ... من المال صفرا حين يصبو له المجد
كأنك لا ترضى لنفسك خلة ... إذا لم يكن في كل كف لها رفد
ولست تبالي أن تروح بعيشة ... تضيق إذا كانت علاك هي الرغد
ولولا احتمال النفس كل مشقة ... إذن لتساوى في العلا الحر والعبد
حجبت سنى شعري زمانًا ولم يزل ... لدي مصونًا لا يبين ولا يبدو
ونزهته دهرًا فلما هززتني ... هززت حسامًا ليس ينبو له حد
كذا السيف لا تستخبر العين عنفه ... إذا لم تفارقه الحمائل والغمد
فسار بمدحي فيك كل مهجر ... وغنى به في السهل والوعر من يحدو
وصاغت له عليك حسنًا وزينة ... وصيغ لها من حلى ألفاظه برد
وليس لكل الناس يستحسن الثنا ... كما ليس في كل الطلى يحسن العقد
وكم لك عندي من يد وصنيعة ... أقر بها مني لك اللحم والجلد
فلا يعجب الحساد لي أن وددتني ... فحق لمثلي من مثالك ذا الود
رأيتك يفني العذر حقدك كله ... فترضى ولا يفني مواهبك القصد
ولا توعد الجاني إذا زل بل له ... إذا اعتذر المعروف عندك والوعد
وتجحد ما تولي يداك من الندى ... وإن كان عند المجتدي للندى جحد
ولو كفر العافون نعماك لم يكن ... لطبعك منك الآن عن كرم رد
وتهتز للمدح اهتزاز مهند ... تناوله يوم الوغى بطل نجد

عليك صلاة الله ما لاح بارق وما حن مشتاق تداوله الفقد[1]

وهكذا يمضي الأمير تميم في مديحه للإمام، فقلَّ أن نجد الشاعر يصف أخاه بمصطلحات الفاطميين، حتى يخيل إليَّ أنَّ الشاعر المؤيد في الدين الذي جاء بعد تميم بزهاء قرن من الزمان، لم يعجبه أن تكون مدائح تميم مثل مدائح غيره من الشعراء، فوضع المؤيد قصيدته التي مطلعها:

هلال بدا من خلال الدجنة إمام الزمان من النار جنة

وجعل هذه القصيدة جوابًا لقصيدة تميم بن المعز التي مطلعها:

أسرب مها عن أم سرب جنة حكيتهن ولستن هنة

وفي قصيدة المؤيد يعرض بتميم بقوله:

سينعت فلك مني اللسان إذا نعت الغير توريد وجنة
وغير مديحك لهو الحديث ومدحك دين وفضل وفطنة
فخذها جوابًا لنجل المعز «أسرب مها عن أم سرب جنة»

فكأن المؤيد ذهب إلى أنَّ مديح تميم لا يليق بالإمام؛ لأنَّ الأمير تميمًا مدح إمامه بالطريقة التي كان يمدح بها القدماء في الابتداء بالغزل، ونعت الممدوح بالجمال، وورد وجنتيه إلى غير ذلك من الصفات؛ على حين أنَّ المديح عند المؤيد هو من صميم الدين.

وأنشد علي بن منصور المعروف بابن القارح قصيدة على وزن منهوكة أبي نواس، يمدح فيها الحاكم بأمر الله، منها قوله:

إن الزمان قد نضر بالحاكم الملك الأغر
في كفه عضب ذكر فقد عدا على القصر

(١) ديوان تميم، السابق ذكره.

من غره على الغرر ... يمضي كما يمضي القدر
في سرعة الطرف نظر ... أو السحاب المنهمر
بادر إنفاق البدر ... بدر إذا لاح بهر[١]

وقال محمد بن القاسم عاصم المعروف بصناجة الدوح في مدح الحاكم، وقد حدثت زلزلة في مصر:

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليًا ... نجل العلا وسليل السادة الصلحا
ما زلزلت مصر من كيد يراد بها ... وإنما رقصت من عدله فرحا[٢]

فأنت تقرأ هذه القصائد فلا تجد معنى من المعاني الباطنية، ولا تجد أثرًا لصفات العقل الأول التي اعتاد شعراء الفاطميين أن يمدحوا بها أئمتهم.

إذًا نحن أمام لونين من المديح الذي قيل في الأئمة؛ اللون الأول: هو ذلك الشعر الذي مدح فيه الشعراء الأئمة بصفات هي من خصائص الفاطميين، وفي هذا الشعر يظهر أثر الفاطميين، أمَّا اللون الثاني من المديح: فهو ذلك المديح الذي اعتاد الشعراء أن ينشدوه في الملوك والأمراء، وهذا اللون لا يظهر فيه إلا فن الشاعر فقط، وقلَّ أن نجد فيه أثرًا للبيئة التي تحيط بالشاعر إلا من ناحيةٍ واحدةٍ، وهي الظروف التي أنشد فيها هذا الشعر، ولذلك نرى الشعراء الذين وفدوا على مصر ومدحوا الأئمة الفاطميين ينشدون شعرهم في مصر كما كانوا ينشدونه في أي بلد آخر من البلاد الإسلامية.

وكان الشعراء ينشدون الأئمة مدائحهم في المواسم والأعياد التي كثرت في العصر الفاطمي، وكثيرًا ما كانت هذه الأيام، وكثيرًا ما كانت المناسبات التي ينشد فيها الشعراء مدائحهم، ففي يوم فتح الخليج مثلًا كان صاحب

(١) معجم الأدباء: ج١٥، ص٨٥ (طبعة رفاعي).
(٢) المغرب: ص٨٥، ويقال: إن الشاعر أنشدها في كافور.

الباب يستأذن على حضور الشعراء للخدمة، فيؤمر بتقديمهم واحدًا بعد واحد، وكان لهم منازل على مقدار أقدارهم، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد[١]، ومما أنشد في هذه المناسبة قول ابن جبر:

فتح الخليج فسال منه الماء ... وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه ... كف الإمام فعرفها الإعطاء[٢]

ومن الطريف أن المؤرخين يذكرون أن المصريين بلغوا في ذلك الوقت درجة كبيرة من دقة الحس وتذوق الشعر ونقده، فإنهم لما سمعوا هذه الأبيات انتقدوه في قوله: فسال منه الماء وقالوا: أي شيء يخرج من البحر غير الماء؟! وأن الشاعر أضاع ما قاله بعد ذلك المطلع.

وفي هذه المناسبة أيضًا أنشد مسعود الدولة -وكان مقدم الشعراء في عصره-:

ما زال هذا السد ينظر فتحه ... إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه ... وسطا عليه كل حامل معول
فجرى كأنَّ قد ديف فيه عنبر ... يعلوه كافور بطيب المندل

ولكن هذه القصيدة أيضًا لم تعجب السامعين؛ إذ انتقدوه عليه أيضًا قوله في البيت الثاني وقالوا: «أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه».[٣]

وأنشد الشاعر أبو العباس أحمد في مناسبة فتح الخليج قوله:

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد ... للنيل أم لك يابن بنت محمد
أم لاجتماعكما معًا في موطن ... وافيتما فيه لأصدق موعد

(١) المقريزي: ج٢، ص٣٦٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

ليس اجتماع الخلق إلا للذي ... حاز الفضيلة منكما في المولد
شكروا لكل منكما لوفائه ... بالسعي لكن ميلهم للأجود
ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله ... بالقصد ليس له كمن لم يقصد
هذا يفي ويعود ينقض تارة ... وتسد أنت النقص إن لم يزدد
وقواه إن بلغ النهاية قصرت ... وإذا بلغت إلى النهاية تبتدي
فالآن قد ضاقت مسالك سعيه ... بالسد فهو به بحال مقيد
فإذا أردت صلاحه فافتح له ... ليرى جنابًا مخصبًا وثرى ندي
وأمر بفصد العرق منه فما شكا ... جسم فصح الجسم إن لم يفصد
واسلم إلى أمثال يومك هكذا ... في عيش مغبوط وعز مخلد[1]

فشعر المناسبات كثير جدًّا في العصر الفاطمي؛ حتى أن الخليفة الحافظ ملَّ طول الشعر وكثرته، فأمر أن يختصر الشعراء مدائحهم، فلم يعجب ذلك الشعراء، فقال أبو العباس أحمد بن مفرج الشاعر يخاطب الخليفة ويمدحه:

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرًا ... لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لا بد أن تجري سوابقنا ... حتى يبين لها في مدحك الأثر[2]

فكان الشعر ينشد في مواسمهم وأعيادهم وحفلاتهم التي كانت تقام لأي حادثة صغرت أم كبرت، فإذا تمَّ عمل شمسية للبيت الحرام مثلًا أنشد الشعراء من ذلك قول الأمير تميم، وقد تمَّ عمل هذه الشمسية في عهد المعز لدين الله:

إليك مدت رقابها العرب ... والملك ماء عليك منسكب
وأنت في دوحة النبوة لا ... تألف إلا عداتك الريب
ألست من يرهب الإله ولا ... يصده عن حدوده سبب
وكلما قال بدء عزمته ... بمذهب لم يخالف العقب

(١) المصدر السابق.
(٢) الخريدة: ورقة ١٠٩ب، وابن ميسر: ص٨٥.

فهكـــذا يـــصدع الملـــوك إذا ... صـالت، وتنفـي الـضلالة الـشهب
ويزدهـي الـدين بـالمعز لـدين اللـ ... ـــــه والمرهفـــات واليلـــب
وكـــل رحراحـــة عزائمـــه دلا ... صـــها، والرمـــاح والقـــضب
وهـــذه الدولـــة التـــي ذخـــرت ... فلـــم يـــسعها الزمـــان والحقـــب
يـــا حبـــذا دهـــرك الـــزلال إذا ... أمـــر دهـــر، وعـــصرك الـــشنب
وحبـــذا الشمـــسة التـــي نـــصبت ... يقـــصر عنهـــا المـــديح والخطـــب
قايـــست العيـــد وهـــي حلتـــه ... وأخفـــت اليـــوم وهـــو منتـــصب
ينهـــب ياقوتهـــا العيـــون فـــما ... يكمـــل الأمـــر حيـــث ينتهـــب
دوائـــر أحـــدقت بغرتهـــا ... أهلـــة لا تحفهـــا الـــسحب
كـــأنما درهـــا وجوهرهـــا ... نجـــوم ليـــل ســـماؤها ذهـــب
نظمتهـــا للهـــدى ولبتـــه ... وإن ســـخطن الكواعـــب العـــرب
في كبـــد المـــسجد الحـــرام بهـــا ... شـــوق، وللبيـــت نحوهـــا طـــرب
فـــلا تمـــسي بأهلـــه زمـــن ... إلا بـــما تـــشتهي وترتقـــب
عليـــك صـــلى الإله مـــا طلعـــت ... شـمس، ومـا انهـل عـارض لجـب[1]

فالبرغم من أنَّ المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة هي مناسبة دينية، وأن الممدوح إمام المذهب، لم يشأ الأمير تميم أن يلم بشيء من العقائد الفاطمية في هذه القصيدة، ولكنه أنشد الشعر للمناسبة فقط، فإذا تصفحنا ديوان الأمير تميم نجد هذا الشاعر أنشد أكثر قصائده في مدح أبيه المعز أو أخيه العزيز لمناسبات مختلفة، فإذا فصد الإمام مدحه الشاعر، وإذا شكا من مرض مدحه، وإذا سافر مدحه، وإذا أهداه شيئًا مدحه، وذلك كله بجانب القصائد التي قيلت بمناسبة الأعياد.

(١) ديوان الأمير تميم: ورقة ١٢٢ (نسخة خطية بمكتبتي).

على أنَّ من المصريين من كان ينظر إلى الأئمة الفاطميين بعين الريبة، فلم يستجب لدعوتهم وانتسابهم إلى الرسول الكريم، وظل محافظًا على مذهبه معترفًا بخلافة العباسيين، وظهر هذا في الشعر المصري؛ فقد قيل: إن العزيز بالله وجد بطاقة على المنبر فيها:

إنَّا سمعنا نسبًا منكرًا ... يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقًا ... فاذكر أبًا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته ... فانسب لنا نفسك كالطالع
أو فدع الأنساب مستورة ... وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم ... يقصر عنها طمع الطامع[1]

وقول الآخر في الحاكم، وقيل: بل في العزيز:

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقة

وقد رأينا الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي، وقد هجا رجال القصر وعرَّض بالعزيز بالله، وسنرى كيف كان المصريون يهجون النصارى واليهود ممن كان إليهم بعض الدواوين في العصر الفاطمي، فالفاطميون بالرغم من اتخاذهم الدين وسيلة لتوطيد سلطانهم ونفوذهم وادعائهم العصمة للأئمة، فإنَّ بعض الشعراء لم يأبه بذلك، وعرض بهذه العقائد وسخر بهؤلاء الأئمة.

الأمير تميم بن المعز:

والآن نتحدث عن الأمير تميم الشاعر الذي ذكرناه مرارًا، وسنذكره مرارًا؛ فهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، وهو الشاعر الذي يقرن دائمًا بالشاعر ابن المعتز العباسي؛ لما بينهما من تشابه، فكلا الشاعرين من بيت

(١) ابن خلكان: ج٣، ص٥٤، والنجوم الزاهرة: ج٤، ص١١٦.

خلافة، وكلا الشاعرين من شعراء البديع، وكلاهما ممن أكثر من الوصف والمجون، وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه في الخلافة، فهما متشابهان في أمور كثيرة جعلت مؤرخي الأدب العربي يقرنون بينهما دائمًا.

ولد الأمير تميم بالمغرب، وفيها نشأ مع إخوته: عبد الله ونزار وعقيل، وكان تميم أكبرهم سنًّا، فلم يشك الناس في أنَّ ولاية العهد ستكون له، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه إلى أخيه عبد الله، ولعل السبب الذي من أجله صرف تميم عن إمامة الفاطميين، هو ما عُرف عن تميم من مجون وفجور، فكان يشاع عنه وعن سيرته السيئة ما حدا بأمير صقلية أحمد بن الحسن الكلابي أن يستأذن المعز في أن يقتل أحد أبنائه؛ لأنه كان يساير الأمير تميمًا، ويشاركه في لهوه وفسقه. ويحدثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز أرسل إلى أمير صقلية رد خطابه، وفي هذا الخطاب ألم المعز وغضبه لما عرف عن تميم من فسق وفجور[1]. ولما فتحت مصر انتقل الأمير تميم إليها مع أبيه وباقي أسرته،

(١) نص ما ورد في سيرة جوذر ص١٧٥ وما بعدها (نسخة خطية بمكتبتي): ولما وصل أحمد بن الحسن من صقلية، وكان واجدًا على ولده طاهر لصحبته مع الأمير تميم، وما شنع من القول عنهما، فأراد قتل ولده طاهرًا هذا؛ إلا أنه استأمر الأستاذ (أي جوذر) على ذلك وشاوره فيه، فلم يجد الأستاذ بدًّا من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين (أي المعز)، فصرف إليه الجواب وهو: «يا جوذر، كثر الله من أوليائنا مثل أحمد، فوالله ما كان يشينه عندنا ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبي الشقي ولده صحبة من كان سبب شقوته، ووالله إن توجعنا به كتوجعنا بمن لنا، لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان، ومدبرنا نحن لا يرجى؛ إذ كان الخطة التي يرفع الله عز وجل بها أولادنا هي خطة الطهارة، ومن عدمها كان كلًّا على مولاه، والحمد لله على ما ساء وسرَّ، فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعه، وتشفع له عنده، وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شنعة يلحقه عارها ويبقى ذكرها مع الأيام، فما يخفى عليه أن ذلك يبقى في الأعقاب، فليمسك ويعمل ما يصلح فيما يستقبله، فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان يسعى به بينهما، ونحن نداوي عللهم، فمن أطاعنا لم يشق، والله لقد نكس الله رءوس كل من كان انتصب للشماتة بهم؛ لما رأوه من فضلنا عليهم وإنفاقه، وكذا نحب أن يكونوا ما بقوا في نمو وزيادة؛ لا في النقص ورجوع القهقرى، فعرفه ذلك ليعمل به، ولا يحدث في الصبي شيئًا من المكروه إن شاء الله».

أسرته، وفي مصر توفي عبد الله (ولي العهد)، فجعل المعز ولاية عهده إلى ابنه الثالث نزار الذي لقب بالعزيز، ولعل هذا هو السر فيما نراه من حزن دفين ظهر في شعر الأمير تميم؛ إذ كان يمدح أخاه الصغير العزيز بالله، ولكنه لم يستطع أن يخفي ما في نفسه من آلام وشعور بحنق وغيظ، كان يحاول إظهار تجلده وصبره، ولكن عاطفته في الشعر هي عاطفة القانط الحاقد، فهو يقول مثلًا من قصيدة في مدح العزيز:

تهون علي صغار الأمور ... ويصغر عني جميع الورى
أنا ابن المعز سليل العلا ... وصنو العزيز إمام الهدى
وما احتجت قط إلى ناصر ... ولا رحت يومًا ضعيف القوى
ولم أستشر في ملم يئوب ... مشيرًا أرى منه ما لا أرى
ولست بوان إذا ما أمر ... زمان، ولا فرح إن حلا[1]

فهذه الأبيات تظهر فيها قوة الفخر بنفسه، وبنسبته للأئمة الفاطميين، وعدم مبالاته بصروف الدهر؛ ولكن يستشف منها دخيلة نفس الشاعر، تلك النفس الناقمة الحاقدة. ويقول يفتخر أيضًا:

ليس من ساد عن وراثة جد ... أو لحظ من الحظوظ مباح
يستحق الثنا ويستوجب الشكـ ... ـر ويحوي مدائح المداح
إنما السيد المعلى المفدى ... من علا للعلا صدور الرماح
ورمى ليل كل خطب بهيم ... بذكاء أضوا من المصباح
واقتنى العز بالظبا والعوالي ... واشترى الحمد بالثنا والسماح
فكذا تنتمي المكارم والمجـ ... ـد ويستبعد العدو الملاحي
لا كمن قد جرى برجل سواه ... وسما طائرًا بغير جناح
لا ألفت العلا ولا ألفتني ... إن توسمت دونها بوشاح

(١) ديوان الأمير تميم، نسخة خطية بمكتبتي.

أو ترفهت أو تشاغلت عنها ... بأباطيل قينة أو براح
لا ولا أبيض لي سنى المجد إن لم ... أستجد غسله بنزف الجراح
وألاقي العداة عنه بعزم ... علوي يفل حد الصفاح
وببطش يفري الجماجم والأعـ ... ـناق فري المدى لحوم الأضاحي
أنا فرد النهى ورب المعالي ... وحسام الكفاح يوم الكفاح
أنا مفتاح قفل كل نوال ... يوم يغدو الندى بلا مفتاح
أنا كالجد في الأمور إذا ما ... كان عيشي فيهن مثل المزاح
لا كراض من العلا بادعاء ... وبعرض مجرح مستباح
فسل المجد عن صباحي وليلي ... ومقبلي وغدوتي ورواحي
هل يسر العلا مقالي وفعلي ... وارتياحي لكسبها واقتراحي
هاكها كالصهيل في حلبة الفخر ... إذا كان غيرها كالنباح[1]

ويخيل إلي أن بعض الوشاة سعوا بينه وبين أخيه العزيز، مما جعل العزيز يغضب على الشاعر، وجعل الشاعر يتنصل من وشاية الواشين، فأخذ الشاعر يتلمس الأعذار، ويقدم الاعتذار، ويذكر الإمام بأنهما شقيقان، وأنَّ على الإمام ألا يستمع إلى أمثال هؤلاء الوشاة. فأكثر قصائد المدح التي في الديوان تتحدث عن هؤلاء الذين يسعون بالفساد بين الملك الصغير وأخيه الأمير الكبير. ومن شعر الديوان نستطيع أن نعرف أن الأمير نُفي مرة إلى عين شمس، ونُفي مرة أخرى إلى الرملة بفلسطين، فكان يرسل إلى إخوانه وأصدقائه مقطوعات من الشعر يبثهم فيها شوقه إليهم، ويشكو غربته التي اضطر إليها اضطرارًا؛ فقد أنشد في عين شمس:

أما كفى الحب شوق موجع وأسى ... مبرح يقطع الأحشاء والكبدا
حتى رمى البين بالتفريق ألفتنا ... وحل من وصلنا ما كان قد عقدا

(١) ديوان الأمير تميم.

فـآه مـن لوعـة مـشبوبة وجـوى ... في الـصدر لم يبـق لي صـبرًا ولا جلـدا
قالـت وعبرتهـا مخلوطـة بـدم ... تجـري وأنفاسـها مرفوعـة صـعدا
لا تطلـب النطـق منـي بالـسلام فـما ... أبقـى فراقـك لي روحًـا ولا جـسدا
فظلـت ملتـثما مـن صـحن وجنتهـا ... وردا، ومرتـشفًا مـن ثغرهـا بـردا
وطاويًـا في الحشا منهـا رسيس هـوى ... لا أحـسب الـدهر يـبلى عهـده أبـدا

وأنشد وهو في الرملة، وأرسل بها إلى بعض أهله في القاهرة:

أنـتم في المنـام حلمـي وأنـتم ... في انتبـاهي سـؤلي وأنـتم مـرادي
كـل عـضو منـي إلـيكم مـشوق ... زائـد شـوقه عـلى الأبعـاد
لم أفـارقكم ولكـن جـسمي ... بـان عـنكم وحـل فـيكم فـؤادي
فهنيئًـا لكـم وفـائي علـيكم ... وهنيئًـا للعـين طـول الـسهاد
كلـما حثنـي اشـتياقي إلـيكم ... قلـت لبيـك أنـت نعـم المنـادي

وكان الأمير تميم في مصر يشارك المصريين لهوهم، ويخرج إلى متنزهاتها، ويعبث في أديرتها، وأنشد في ذلك كله شعرًا -سنتحدث عنه في فصل آخر من هذا الكتاب- وشعره إن دل على شيء فإنما يدل على رقة شعوره، ورقة العاطفة وصدقها. وتوفي هذا الشاعر سنة ٣٧٤هـ.

الفصل الثالث
الشعر والوزراء

كان العزيز بالله أول خليفة فاطمي اتخذ له وزيرًا، وكان الوزير يعقوب بن كلس أول وزير في الدولة الفاطمية، ففي رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة لقَّبه العزيز بالوزير الأجَلِّ، وأمَرَ ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا بهذا اللقب، فعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفي الكتب[1]. فكان هذا المركز الخطير الذي شغله ابن كلس في هذه الدولة الفتية إذ ذاك من الأسباب التي جعلت الشعراء يسعون إليه وينشدون الشعر في مدحه، وقد رأينا من قبل كيف كان ابن كلس أحد العلماء المبرزين، وكيف كان يلقي علوم الدعوة وغيرها على الناس، وكيف كان يؤمُّ مجلسه عدد من القضاة والفقهاء والشعراء ورجال الدولة يستمعون إلى دروسه، ويتناقشون بين يديه، أضِفْ إلى ذلك كله أنه كان كريم اليد يعطي ويجزل العطاء، فلا غرو أن كان الشعراء يلتفون حوله، ويكثرون من مدحه. مدحه أبو الرقعمق، وعبد الله بن محمد بن أبي الجوع، والأمير تميم بن المعز، وكثير غيرهم من شعراء عصره الذين فُقِد شعرهم وضاعت أسماؤهم مع ما ضاع من الأدب الفاطمي.

وقد ذكرنا أنَّ الشعراء الذين رثوه بلغوا مائة شاعر، فمَن هؤلاء الشعراء؟ وأين شعرهم؟ الجواب عن ذلك أولًا: عند رجال الدولة الأيوبية الذين عملوا على محو كل أثر علمي أو أدبي للفاطميين لخلاف مذهب الدولتين، وثانيًا: عند المؤرخين والكتَّاب من أهل المشرق الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين، فأبوا أن يرووا شيئًا عن شعراء مصر الفاطمية، وثالثًا: عند الأتراك الذين دان لهم العالم الإسلامي مدة طويلة، فأطاحوا بحضارتين من أرقى الحضارات التي

(١) خطط المقريزي: ج٣ ص٨، وصبح الأعشى: ج٣ ص٤٨٣.

شاهدها العالم، وشاهدها تاريخ الفكر البشري، وهما: الحضارة البيزنطية والحضارة الإسلامية، ولم يستطع الأتراك أن يقيموا حضارة أخرى تقوم مقام هاتين الحضارتين. وكان الأتراك شديدي التعصب للمذهب السني، فأنزلوا نقمتهم على كل ما هو شيعي، أضِفْ إلى ذلك كله المجاعات الكثيرة والاضطرابات العديدة التي سبَّبَتْ محنًا عديدة لمصر، ووصفها المقريزي في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، فقد كانت من أشد العوامل في ضياع كتب كثيرة من كتب علماء الفاطميين ودواوين شعر شعرائهم، وهكذا تضافرت قوى عديدة لإبادة العلوم والآداب في العصر الفاطمي، حتى أن الذي بقي من هذا كله أصبح ضئيلًا تافهًا بالنسبة لما كان في عهدهم الزاهر. فقد بقي لنا جزء من قصيدة لأبي الرقعمق في مدح ابن كلس وهي:

لم يدع العزيز في سائر الأر ... ض عدوًّا إلا وأخمد ناره
فلهذا اجتباه دون سواه ... واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيد له الوزارة مجدًا ... لا ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد تخرمها الدهـ ... ـر جلالًا وبهجة ونضاره
كل يوم له على نوب الدهـ ... ـر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البخـ ... ـل وفي حومة الوغى كراره
هي فلت عن العزيز عداه ... بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تمـ ... ـسي وتضحى نفاعة ضراره
فاستجره فليس يأمن إلا ... من تفيا بظله واستجاره
فإذا ما رأيته مطرقًا يعـ ... ـمل فيما يريده أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئًا ... في ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ولا موضعًا من الأرض إلا ... كان بالرأي مدركًا أقطاره

زاده الله بسطة وكفاه خوفه من زمانه وحذاره[١]

فالشاعر في هذه الأبيات يمدح الوزير؛ ولكنه كان يذكر الإمام الفاطمي كلما وسعه فنه ومواهبه في الشعر، فهو لم يستطع أن يغفل الإمام من قصائده؛ وذلك لقوة الإمام والخلافة الفاطمية إذ ذاك، والوزير نفسه لم يكن ليصدر أمرًا قبل أن يطالع الإمام به ويستأذنه فيه، وعرف الشعراء ذلك فكانوا يتقربون للوزير حتى يتقربوا به للإمام، فمَدْح الوزير كان وسيلة لغايتهم وهي الاتصال بالإمام، هكذا كان أمر الشعراء مع جميع الوزراء في القسم الأول من العصر الفاطمي، وهو القسم الذي كان الأئمة فيه يسيرون مرافق البلاد، ويختارون الوزراء لمساعدتهم في تنفيذ ما كانوا يصدرونه من أحكام وقوانين، وكان أكثر وزراء ذلك العصر من رجال القلم أمثال الجرجرائي واليازوري وابن المغربي والبابلي وغيرهم من الكتَّاب. ليس معنى ذلك أن الشعراء أفنوا أنفسهم في الوزراء وفي مدحهم، فمن الشعراء مَن هجا الوزراء كالذي رأيناه من هجاء ابن كلس.

وهجاه أبو محمد القاسم الرسي بقوله:

توق معز الدين شؤم ابن كلس ولا تقبلن منه مقال مدلس
فإنَّا أردناه لكافور شربة فزاد على تقريرنا ألف مجلس[٢]

وكذلك روي أن الشاعر جاسوس الفلك هجا الوزير علي بن أحمد الجرجرائي وزير الظاهر لإعزاز دين الله، وكان هذا الوزير أقطع اليدين بسبب خيانة ظهرت عليه أيام الحاكم، فلما ولي الوزارة استعمل العفاف والأمانة، ولكن ذلك لم يمنع الشاعر من أن يقول فيه:

(١) يتيمة الدهر: ج ١ ص٢٣٩.
(٢) اليتيمة: ج١ ص٣٣٠.

يـــا أحمقًـــا اســـمع وقـــل ... ودع الرقاعـــة والتحـــامق
أأقمـــت نفـــسك في الثقـــا ... ت، وهبـــك فـــيما قلـــت صـــادق
فمـــن الأمانـــة والتقـــى ... قُطِعـــت يـــداك مـــن المرافـــق[1]

وقال الشاعر الحسن بن خاقان في هجاء الوزير الفلاحي وزير المستنصر:

حجـاب وإعجـاب وفـرط تـصلف ... ومـد يـد نحـو العـلا متكلـف
فلـو كـان هـذا مـن وراء كفايـة ... عـذرنا ولكـن مـن وراء تخلـف[2]

ونحن نعلم أن الفلاحي كان يهوديًّا وأسلم، وأن أبا سعد التستري مدبر الدولة إذ ذاك كان يهوديًّا، ولذلك قال أحد الشعراء:

يهـود هـذا الزمـان قـد بلغـوا ... غايـة آمـالهم وقـد ملكـوا
العـز فـيهم والمـال عنـدهم ... ومـنهم المستـشار والملـك
يـا أهـل مـصر إني نـصحت لكـم ... تهـودوا قـد تهـود الفلـك[3]

ولكن بعد أن ضعفت الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر، وحلت بالبلاد نكبة الشدة العظمى، اضطر المستنصر إلى أن يستعين برجال السيف، وأن يتخذ منهم وزراء له، وأول هؤلاء الوزراء السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو نجم بدر الجمالي، تولى هذه المراتب سنة ٤٦٦هـ، ولكنه لم يلبس خلعة الوزارة إلا سنة ٤٦٨هـ، وصار صاحب الكلمة النافذة في البلاد التي كانت خاضعة للفاطميين، وأصبح الإمام الفاطمي شبه أسير في يدي الوزير، وظل بدر الجمالي في منصبه إلى أن توفي سنة ٤٨٧هـ قبل المستنصر الفاطمي بأشهر، فتولى الوزارة بعده ابنه القاسم شاهنشاه الأفضل، وفي عهده بلغت قوة الوزارة وسلطانها أعلى الذرى، حتى

(١) ابن خلكان: ج١، ص٣٦٧.
(٢) حسن المحاضرة: ج١، ص١٥٣.
(٣) حسن المحاضرة.

أنه بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧هـ لم يعبأ بعقيدة من أهم عقائد الفاطميين في الإمامة، هي النص على مَن يلي الإمامة؛ إذ الإمام لا بدَّ أن ينص قبل وفاته على خليفته، وأن يبلغ ذلك إلى حجته وحجج الجزائر، ولكن الأفضل بن بدر الجمالي أبى أن يجعل الإمامة إلى صاحب النص، وهو نزار بن المستنصر، وجعلها إلى المستعلي بالله وهو ابن أخته، وكان صغير السن؛ وبذلك انقسمت الدعوة إلى فرعيها: النزارية والمستعلية، وكان هذا الانقسام من أهم الأسباب التي أدَّتْ إلى ضعف الدولة الفاطمية، والخلافة الفاطمية، وأضعفت هيبة الإمام بين الناس، وشك في إمامته بعض الأتباع والأشياع. ومهما يكن من شيء فقد أصبحت الوزارة هي القوة المحركة للبلاد كلها، فاتجه الشعراء إلى الوزراء يمدحونهم، ويأخذون هباتهم وصلاتهم، وتشبَّه الوزراء في بذخهم بالأئمة، فأسرفوا في كل ما يجلب لهم الشهرة والسرور معًا، وأحاطوا أنفسهم بهالة من أبهة الملك وألقابه؟ واتخذوا لأنفسهم حاشية هي أشبه شيء بحاشية الملوك والسلاطين، وعقدوا مجالس للشعراء على نحو ما كان يفعله خلفاء بني العباس والأئمة الفاطميون إبان قوتهم وسلطانهم، فانتقل أكثر الشعراء من مدح الأئمة إلى مدح الوزراء.

وكان من الوزراء مَن ينشد الشعر، فالأفضل بن بدر الجمالي كان شاعرًا، ومن شعره قوله في غلامه تاج المعالي:

أقضيب يميس أم هو قد ... وشقيق يلوح أم هو خد
أنا مثل الهلال سقمًا عليه ... وهو كالبدر حين وافاه سعد[1]

ومن قوله أيضًا في جارية له أمر بضرب عنقها لأنه رآها تتطلع إلى الطريق، وكان شديد الغيرة على نسائه، فلما جيء له برأسها قال:

(١) أخبار مصر لابن ميسر: ص٦٠.

نظـرت إليهـا وهـي تنظـر ظلهـا ... فنزهـت نفـسي عـن شريـك مقـارب
أغـار عـلى أعطافهـا مـن ثيابهـا ... حـذارًا ومـن مـسك لهـا في الـذوائب
ولي غـيرة لـو كـان للبـدر مثلهـا ... لمـا كـان يـرضى بـاجتماع الكواكـب[1]

فهذه الأبيات التي بقيت لنا من شعر الأفضل تدل على رقة شعور، وقدرة على التعبير عما يخالج النفس من عاطفة شديدة.

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك جيد الشعر، وكان يثيب على شعر الشعراء[2] وكان شاور وولده الكامل وضرغام ممن ينشدون الشعر - وسنتحدث عنهم جميعًا بعد قليل- فهؤلاء الوزراء الشعراء استطاعوا أن يكوِّنوا لأنفسهم حاشية من الشعراء هي أشبه بحاشية الأئمة الفاطميين إبان سلطانهم الفعلي، فكل الشعراء من مصريين ووافدين اتصلوا بهم ومدحوهم.

فممن وفد على مصر: الشاعر علقمة بن عبد الرزاق العليمي، وفد على بدر الجمالي، ويقول علقمة: قصدت بدر الجمالي فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم، فلم يصلوا إليه، فبينما أنا كذلك إذ خرج بدر يريد الصيد، فخرجت في إثره، وأقمت معه حتى رجع من صيده، فلما قاربني وقفت على تل من الرمل، وأومأت برقعة في يدي، وأنشدت:

نحـن التجـار وهـذه أعلاقنـا ... در، وجـود يمينـك المبتـاع
قلـت فتـشها بـسمعك إنهـا ... هـي جـوهر تختـاره الأسـماع
كـسد علينـا بالـشآم وكلـما ... قـل النفـاق تعطـل الـصناع
فأتـاك يحملهـا إليـك تجارهـا ... ومطيهـا الآمـال والأطـماع
حتـى أناخوهـا ببابـك والرجـا ... مـن دونـك الـثمار والبيـاع

(١) ابن ميسر: ص٦٠.
(٢) النكت: ص٥٥.

فوهبت ما لم يعطه في دهره ... هرم ولا كعب ولا القعقاع
يا بدر أقسم لو بك اعتصم الورى ... ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا[١]

[١] الأفضل وشعراؤه:

ويُعَدُّ في عهد الأفضل بن بدر الجمالي من أزهى العصور الأدبية التي شاهدتها مصر الإسلامية، فقد اتصل به عدد كبير من الشعراء، نذكر منهم: مسعود الدولة، وأبا علي حسن بن زبيد، والقاضي ابن النضر المعروف بالأديب، والناجي المصري، وسالم بن مفرج بن أبي حصينة، ومحمود بن ناصر الإسكندراني، ومروان بن عثمان اللكي، وابن البرقي، وظافر الحداد، وأمية بن أبي الصلت... وغيرهم من شعراء الخريدة. ومن الشعراء الذين ذكرهم أمية في رسالته الموسومة «بالرسالة المصرية»، وقد ذكرنا كيف كان الأفضل يجزل العطاء للشعراء، ويجلس إليهم يستمع إلى أشعارهم وروايتهم للشعر، ولعل «الرسالة المصرية» من أقوم الكتب التي تعطينا صورة صحيحة عن تلك الحياة الأدبية التي كانت بمصر في عهد الأفضل، ومؤلف هذه الرسالة هو أمية بن أبي الصلت.

أمية بن أبي الصلت ورسالته المصرية:

لم يكن أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت مصريًّا، إنما هو أندلسي وفد على مصر في عهد الآمر بأحكام الله، واستطاع أمية أن يتصل بالأفضل، وكان سبب هذه الصلة هو الأمير مختار تاج المعالي -وكان في منزلة قريبة جدًّا من الوزير- فاتصل به أمية مادحًا وقرَّبه الأمير مختار، وكان أمية يخدمه أيضًا بصناعتي الطب والنجوم، فأنس به تاج المعالي كما آنس منه العلم والفضل، وكان جمهور المثقفين من المصريين قد التفوا حول أمية يأخذون عنه العلم والآداب، فقدَّمه

(١) ابن ميسر: ص٣٠.

تاج المعالي إلى الوزير وأثنى عليه، وذكر للوزير ما سمعه من أعيان العلماء، وإجماعهم على تقدمه وتميزه عن كتَّاب وقته، واشتدت صلة أمية بالوزير، ولكن الحساد من الكتَّاب المقربين للوزير أبوا أن تستمر علاقة أمية بالأفضل، فأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بأمية حتى واتتهم الفرصة؛ ذلك أنَّ الوزير قلب ظهر المجن لتاج المعالي واعتقله، فوجد الكتاب السبيل للنيل من أمية، فوشوا به لدى الأفضل، فحبسه بالإسكندرية مدة ثلاث سنين وشهر، إلى أن شفع فيه بعض وجوه المصريين، فأطلق سراحه، وسار إلى المغرب، واتصل بالمرتضى أبي طاهر يحيى بن تميم صاحب القيروان، وحظي عنده وحسن حاله، إلى أن توفي بالمهدية سنة ٥٢٩[1].

استطاع أمية أثناء إقامته بمصر أن يدرس مصر والمصريين، وأن يعرف أحوالهم وطبقاتهم وطبائعهم، وأن يتحدث عن ذلك كله في الرسالة التي عُرفت بـ«الرسالة المصرية»، وصف فيها مصر جغرافيًّا، وعرض لبعض المدن المصرية، وتحدَّث عن النيل ومنابعه وزيادته ونقصانه، وروى شيئًا مما قيل في النيل من شعر، وما أُنشد في مهرجان الخليج مما قاله القدماء ومعاصروه، فنستطيع أن نعدَّ هذه الرسالة القيمة من الكتب القليلة الممتعة التي وصلتنا عن هذا العصر، كما أنها مجموعة لأشعار بعض مَن اتصل بهم أمية في مصر أو مَن حفظ لهم شيئًا من الشعر من المصريين. أضِفْ إلى ذلك كله أن أمية ذكر في هذه الرسالة بعض علماء أهل مصر في ذلك الوقت، ولا سيما ممن كانوا يتعاطون صناعتي الطب والتنجيم، يقول أمية عن المصريين: والمصريون أكثر الناس استعمالًا لأحكام النجوم، وتصديقًا لها، وتعويلًا عليها، وشغفًا بها، وسكونًا إليها، حتى أنه بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أنه لا يتحرك حركة من حركاتهم الجزئية التي لا تحصر فنونها، ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها، ولا

(١) راجع ترجمته في عيون الأدباء: ص٥٢، ومعجم الأدباء: ج٢، ص٣٦١، وابن خلكان: ج١، ص٨٠.

تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها، ولا تعدد ضروبها إلا في طوالع يختارونها[١]. ويقول عن أطباء مصر في ذلك العصر: «وأكثر أطبائها المزبرقين نصارى أو يهود». وفي ذلك يقول بعضهم:

أقول للمسلمين طرًّا ... تبغون في طبِّها اشتهارا
هيهات حاولتم محالًا ... كونوا إذن هودًا أو نصارى[٢]

ويحدثنا عن بعض الشعراء الذين كانوا بعيدين عن الحضرة، فقال عن القاضي علي أبي الحسن بن النضر، المعروف بين أهالي الصعيد الأعلى بالأديب: ذو الأدب الجم، والعلم الواسع، والفضل البارع، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى، والرتبة الأولى، وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الأفضل تصرفًا وخدمة، فخاب فيه أمله، وضاع رجاؤه، فقال يعاتب الزمان:

بين التعزز والتذلل مسلك ... بادي المنار لعين كل موفق
فاسلكه في كل المواطن واجتنب ... كبر الأبي وذلة المتملق
ولقد جلبت من البضائع خيرها ... لأجل مختار وأكرم متقي
ورجوت خفض العيش تحت ظلاله ... لا بد أن نفقت وإن لم تنفق
ظنًّا شبيهًا باليقين ولم أقل ... إن الزمان بما سقاني مشرقي
ولعائبي بالحرص قول بين ... لو كنت شمت سحابة لم تطرق
ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم ... أصل الرجاء بحبل غير الأوثق
وإذا أبى الرزق القضاء على امرئ ... لم تغن فيه حيلة المسترزق
ولعمرو عادية الخطوب وإن رمت ... حظي بسهم تشتت وتفرق[٣]

(١) الرسالة المصرية، نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الرسالة المصرية.

ويذكر شعراء آخرين من أهل الصعيد مثل أبي شرف الدجرجاوي المنسوب إلى قرية دجرجا بالصعيد، والشاعر أبي الحسن علي بن البرقي من أهل قوص وغيرهما، فالسيرة المصرية مرآة صادقة للحياة الأدبية في مصر أوائل القرن السادس للهجرة.

كان أمية أستاذًا لبعض المصريين، وذكر ياقوت أن من تلاميذ أمية الذين تلقوا عنه العلم ورووا شعره: أبو عبد الله الشامي الذي ظلَّ مخلصًا لأستاذه، وكان يتردد عليه إبَّان نكبته وسجنه. وينقل ياقوت عن أبي عبد الله الشامي: وكنت أختلف إليه إذ ذاك، فدخلت إليه يومًا فصادفته مطرقًا، فلم يرفع رأسه إليَّ على العادة، فسألته فلم يرد الجواب، ثم قال بعد ساعة: اكتب، وأنشدني:

وكان لي سبب قد كنت أحسبني ... أحظى به، فإذا دائي هو السبب
فما مقام أظفاري سوى قلمي ... ولا كتائب أعدائي سوى كتبي

فكتبت عنه رسالته فقال: إن فلانًا تلميذي قد طعن فيَّ عند الأمير الأفضل[1]. ويروي ياقوت أيضًا أن الشيخ سليمان بن الفياض الإسكندراني كان ممن أخذ العلم عن أمية وروى عنه[2]. وكان لأمية عدد من الأصدقاء في طليعتهم ظافر الحداد الشاعر الذي صادقه بالإسكندرية، وحزن لسفره وبُعْده عن مصر، فأرسل إليه قصيدة يشكو فراق الصديقين، ويذكِّر أمية بالأيام التي قضياها معًا، والقصيدة هي:

ألا هل لدائي من فراقك إفراق ... هو السم لكن في لقائك ترياق
فيا شمس فضل غربت، ولضوئها ... على كل قطر بالمشارق إشراق
سقى العهد عهدًا منك عمر عهده ... بقلبي عهد لا يضيع وميثاق
يجدده ذكر يطيب كما شدت ... وريقاء كتتها من الأيك أوراق

(١) ياقوت: ج٢، ص٢٦١.
(٢) ياقوت: ج٢، ص٢٦٥.

لـك الخلـق الجـزل الرفيـع طـرازه ... وأكثـر أخـلاق الخليفـة إخـلاق
لقد ضاءلتني يا أبا الصلت مذ نأت ... ديـارك عـن داري همـوم وأشـواق
إذا عـزني إطفاؤهـا بمـدامعي ... جـرت ولهـا مـا بـين جفنـي إحـراق
سـحائب يجـدوها زفـير يجـره ... خـلال التراقـي والترائـب تـشهاق
وقـد كـان لي كنـز مـن الـصبر واسـع ... فـلي منـه في صـعب النوائـب إنفـاق
وسـيف إذا جـردت بعـض غـرارة ... لجـيش خطـوب صـدها منـه إرهـاق
إلى أن أبـان البـين أن غـراره ... غـرور، وأن الكنـز فقـر وإمـلاق
أخي، سيدي، مولاي دعوة من صفا ... ولـيس لـه مـن رق ودك إعتـاق
لـئن بعـدت مـا بيننـا شـقة النـوى ... ومطـرد طـامي الغـوارب خفـاق
وبيـد إذا كلفتهـا العـيس قـصرت ... طلائـح أنـضاها زميـل وإعنـاق
فعنـدي لـك الـود المـلازم مثـل مـا ... يـلازم أعنـاق الحمائـم أطـواق
ألا هـل لأيـامي بـك الغـر عـودة ... كعهـدي، وثغـر الثغـر أشـنب بـراق
ليـالي يـدنينا جـواب أعادنـا ... مـن القـرب كالصنوين ضـمهما سـاق
ومـا بيننـا مـن حسن لفظك روضـة ... بهـا حـسدت منـا المـسامع أحـداق
حـديث، حـديث كلـما طـال، مـوجز ... مفيـد إلى قلـب المحـدث سـباق
يرجيـه بحـر مـن علومـك زاخـر ... لـه كـل بحـر فـائض اللـج رقـراق
معـان كـأطواد الـشوامخ جزلـة ... تـضمنها عـذب مـن اللفـظ غيـداق
بـه حكـم مـستنبطات غرائـب ... لأبكارهـا الغـر الفلاسـف عـشاق
فلـو عـاش رسـطاليس كـان لـه بهـا ... غـرام وقلـب دائـم الفكـر تـواق
فيـا واحـد الفـضل الـذي العلـم قوتـه ... وأهلـوه مـشتاق يـشم وذواق
لـئن قـصرت كتبـي فـلا غـرو إنـه ... لعـائق عـذر والمقـادير أوهـاق
كتبـت وآفـات البحـار تردهـا ... فـإن لم يكـن رد عـلي فـإغراق
بحـار بأحكـام الريـاح فإنهـا ... مفـاتيح في أبـوابهن وأغـلاق

ومَـن لي أن أحظـى إليـك بنظـرة فيـسكن مقـلاق ويرقـأ مهـراق[١]

فهذه القصيدة التي بعث بها ظافر الحداد إلى صديقه أمية بن أبي الصلت، إن دلَّت على شيءٍ فإنما تدل على مبلغ ما كان يكنه ظافر لصديقه من وفاء وإخلاص وود، وما كان عليه أمية من علم وفضل، وما كان عليه الصديقان من صفاء ووفاء.

أمَّا علاقة أمية بالوزير الأفضل بن بدر الجمالي، فيقول القفطي: «ودخل مصر في أيام أفضلها فلم ينل منها إفضالًا، وقصده للنيل فلم يجد لديه منوالًا»[٢]. ولكني أشك في قول القفطي، وأزعم أن الأفضل قرَّب إليه أمية، وأجزل له العطاء، فأشعار أمية في الأفضل أكبر دليل على أن الشاعر كان يميل إلى الأفضل، وكان الأفضل يجزل له النوال. فمن شعر أمية في الأفضل قصيدته التي أنشدها يذكر تجريده العساكر إلى الشام لمحاربة الصليبيين بعد انهزام عسكره في الموضع المعروف بالبصة، وكان قد اتفق في أثناء ذلك أن قومًا من الأجناد وغيرهم أرادوا الفتك بالأفضل، فوقع على خبرهم، وقبض عليهم وقتلهم، والقصيدة هي:

هـي العـزائم مـن أنـصارها القـدر وهـي الكتائـب مـن أشـياعها الظفـر
جـردت للـدين والأسـياف مغمـدة سـيفًا تفـل بـه الأحـداث والغـير
وقمـت إذ قعـد الأمـلاك كلهـم تـذب عنـه وتحميـه وتنتـصر
بـالبيض تسقط فـوق البيض أنجمهـا والـسمر تحـت ظـلال النقـع تـشتجر
بـيض إذا خطبـت بالنـصر ألـسنها فمـن منابرهـا الأكبـاد والقـصر
وذبـل مـن رمـاح الخـط مـشرعة في طـولهن لأعـمار العـدا قـصر
يغشى بها غمرات الموت أسد شرى مـن الكماة إذا مـا استنجدوا ابتدروا

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة: ج٢، ص٥٤ (طبعة مصر ١٨٨٢م).
(٢) أخبار الحكماء: ص٥٧ (الطبعة الأولى بمصر ١٣٢٦هـ).

مستلئمين إذا سلوا سيوفهم ... شبهتها خلجًا مرت بها غدر
قوم تطول ببيض الهند أذرعهم ... فما يضر ظباها أنها بتر
إذا انتضوها وذيل النقع فوقهم ... كالشمس طالعة والليل معتكر
ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربًا ... كأنما الدم راح والظبا زهر
وإن هم نكصوا يومًا فلا عجب ... قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
العود أحمد والأيام ضامنة ... عقبى النجاح ووعد الله ينتظر
وربما ساءت الأقدار ثم جرت ... بما يسرك ساعات لها أخر
الله زان بك الأيام من ملك ... لك الحجول من الأيام والغرر
لله بأسك والألباب طائشة ... والخيل تردى ونار الحرب تستعر
وللعجاج على صم القنا ظلل ... هي الدخان وأطراف القنا شرر
إذ يرجع السيف يبدي خده علقًا ... كصفحة البكر أدمى خدها الخفر
وإذا تسد مسد السيف منفردًا ... ولا يصدك لا جبن ولا خور
أما يهولك ما لاقيت من عدد ... سيان عندك قلَّ القوم أو كثروا
هي السماحة إلا أنها سرف ... هي الشجاعة إلا أنها غرر
الله في الدين والدنيا فما لهما ... سواك كهف ولا ركن ولا وزر
ورام كيدك أقوام وما علموا ... أن المنى خطرات بعضها خطر
هيهات أين من العيوق طالبه ... لو كان سدد منه الفكر والنظر
إن الأسود لتأبى أن يروعها ... وسط العرين ظباء الربرب العفر
أمر نووه ولو هموا به وقفوا ... كوقفة العير لا ورد ولا صدر
فاضرب بسيفك من ناواك منتقمًا ... إن السيوف لأهل البغي تدخر
ما كل حين ترى الأملاك صافحة ... عن الجرائر تعفو حين تقتدر
ومن ذوي البغي من لا يستهان به ... وفي الذنوب ذنوب ليس تغتفر
إن الرماح غصون يستظل بها ... وما لهن سوى هام العدا ثمر
ليس يصبح شمل الملك منتظمًا ... إلا بحيث ترى الهامات تنتثر

والـرأي رأيـك فـيما أنـت فاعلـه ... وأنـت أدرى بـما تـأتي ومـا تـذر
أضـحى شهنـشاه غيثًـا للنـدى غـدقًا ... كـل الـبلاد إلى سـقياه تفتقـر
الطـاعن الألـف إلا أنهـا نـسق ... والواهـب الألـف إلا أنهـا بـدر
ملـك تبـوأ فـوق الـنجم مقعـده ... فكيـف تطمـع في غاياتـه البـشر
يرجـى نـداه ويخـشى عنـدي سـطوته ... كالـدهر يوجـد فيـه النفـع والـضرر
ولا سـمعت ولا حـدثت عـن أحـد ... مـن قبلـه يهـب الـدنيا ويعتـذر
ولا بـصرت بـشمس قبـل غرتـه ... إذا تجـلى سـناها أغـدق المطـر
يـا أيها الملك السامي الذي ابتهجت ... بـه الليـالي وقـر البـدو والحـضر
جاءتـك مـن كلـم الحـاكي محـبرة ... تطـوى لبهجتهـا الأبـراد والحـبر
هـي اللآلـئ إلا أن ناظمهـا ... طـي الـضمير ومـن غواصـها الفكـر
تبقـى وتـذهب أشـعار ملفقـة ... أولى بقائلهـا مـن قولهـا الحـصر
ولم أطلهـا لأني جـد معـترف ... بـأن كـل مطيـل فيـه مختـصر
بقيـت للـدين والـدنيا ولا عـدمت ... أجيـاد تلـك المعـالي هـذه الـدرر[1]

ويـذكر المؤرخـون أنَّ أميـة أرسـل وهـو في سـجنه بقـصيدتين إلى الأفـضل يمدحه بهما: الأولى لامية مطلعها:

الـشمس دونـك في المحـل ... والطيـب ذكـرك بـل أجـل

والثانية بائية مطلعها:

نـسخت غرائـب مـدحك التـشبيبا ... وكفـى بهـا غـزلًا لنـا ونـسيبَا[2]

وفي هـاتين القـصيدتين يتحـدث الـشاعر عـن أيامـه مـع الأفـضل، وأيـادي الأفـضل عليـه، ومـدائح أميـة فيـه، ويعتـذر إليـه مـن أقـوال الوشـاة والحاسـدين

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة: ج٢، ص٥٦.
(٢) طبقات: ج٢، ص٥٢.

الذين أغرو الوزير به حتى سجنه من غير جرم ارتكبه، فمثل هذه الأبيات التي أنشدها أمية في الاعتذار عن وشاية الواشين، تدل على أن صلة الوزير بالشاعر كانت صلة قوية، وأن الشاعر كان مقربًا للوزير فحسده الناس، وأن الشاعر مدح الوزير فأعطاه الوزير صلات، ومع ذلك نرى القفطي يدَّعي أن الوزير لم يعط الشاعر شيئًا، ويخيل إليَّ أن القفطي اتهم الأفضل بذلك لأنه حبس الشاعر مدة طويلة.

ومهما يكن من شيء فقد مكث أمية عدة سنوات في مصر، اتصل فيها بالحياة المصرية، وشارك المصريين في أعيادهم وحفلاتهم، وأنشد في ذلك شعرًا حُفِظ بعضه وضاع أكثره، فمما حُفِظ من ذلك قوله في النيل من قصيدة كتبها إلى الأفضل ليلة المهرجان:

أبدعت للناس منظرًا عجبًا ... لا زلت تحيي السرور والطربَا
ألفت بين الضدين مقتدرًا ... فمَن رأى الماء خالط اللهبَا!
كأنما النيل والشموع به ... أفق سماء تألَّقَتْ شهبَا
قد كان من فضة فصار سما ... وتحسب النار فوقه ذهبَا[1]

وخرج إلى المتنزهات المصرية كما كان يفعل غيره من أهل مصر عامة، والشعراء خاصة، ووصف بعضها بالنثر وبالشعر، فمن ذلك قوله في بركة الحبش: فافترشنا من زهرها أحسن بساط، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس في خلع البدور، ونجوم بالصفاء تنور، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء، فقال في ذلك بعضنا (ويقصد نفسه):

لله يومي ببركة الحبش ... والأفق بين الضياء والغبش

(١) الرسالة المصرية.

والنيل تحت الرياح مضطرب ... كصارم في يمين مرتعش
قد نسجتها يد الغمام لنا ... فنحن من نسجها على فرش
ونحن في روضة مفوفة ... دبج بالنور عطفها ووشي
فعاطني الراح إن تاركها ... من سورة الهم غير منتعش
واسقني بالكبار مترعة ... فهن أشفى لشدة العطش
فأثقل الناس كلهم رجل ... دعاه داعي الصبا فلم يطش[1]

وبالرغم من هذه الأبيات التي تدل على أن أمية نَعِمَ في مصر بطبيعتها ولهوها، وقدَّره المصريون لعلمه وأدبه، فحظي بصداقة عدد كبير منهم، فإنه خرج من مصر غاضبًا يهجو مصر والمصريين، شأنه في ذلك شأن دعبل الخزاعي، وأبي تمام، والمتنبي، وغيرهم من ذوي الأطماع التي لا تقف عند حد، فهؤلاء الشعراء وفدوا على مصر لقصد النوال والعطاء من أمراء مصر، فأغدق هؤلاء عليهم ما وسعهم، ولكن هؤلاء الشعراء لا يعرفون إلا العطاء السخي، وويل لمصر والمصريين إذا لم يصلوا إلى مطامعهم، فها هو ذا أمية يهجو المصريين جميعًا بقوله:

وكم تمنيت أن ألقى بها أحدًا ... يسلي من الهم أو يعدي على النوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا ... كانت مواعيدهم كالآل في الكذب[2]

نعم، هكذا زعم أمية، كما زعم دعبل وأبو تمام والمتنبي من قبل، فمصر التي أكرمت هؤلاء الشعراء فمدحوها، هي مصر التي هجوها بعد أن رحلوا عنها.

(١) الرسالة المصرية، وخطط المقريزي: ج٢، ص١٥٥، ومعجم الأدباء.
(٢) القفطي: ص٥٧.

أبو علي الأنصاري:

قلنا: إنَّ عددًا كبيرًا من شعراء مصر اتصل بالأفضل بن بدر الجمالي، وأنشدت القصائد الكثيرة في مدحه في الأعياد والمواسم، فمن هؤلاء الشعراء أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري الذي أثنى عليه القاضي الفاضل بقوله: «إنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله»[1]. ويقول عنه صاحب الخريدة: وله قصيدة في مدح أفضلهم يصف خيمة الفرح، يدل إحسانه فيها على أن بحره طامي اللجج، ودره نامي البهج، وأقتبس منها قوله:

مجدًا فقد قصرت عن شأوك الأمم ... وأبدت العجز منها هذه الهمم
أخيمة ما نصبت الآن أم فلك ... ويقظة ما نراه منك أم حلم؟
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن ... تسمو علوًّا على أفق السها الخيم
حتى أتيت بها شماء شاهقة ... في مارن الدهر من تيه بها شمم
إن الدليل على تكوينها فلكا ... أن احتوت وأنت الناس كلهم
يمد من في بلاد الصين ناظره ... حتى ليبصر علمًا أنها علم
ترى الكناس وآرام الظباء بها ... أضحت تجاورها الآساد والأجم
والطير قد لزمت فيها مواضعها ... لما تحققن منها أنها حرم
لديها جيش، وجيش في جوانبها ... مصور، وكلا الجيشين مزدحم
إذا الصبا حركتها ماج موكبها ... فمقدم منهم فيها ومنهزم
أخيلها خيلك اللاتي تغير بها ... فليس تنزع عنها الحزم واللجم
علمت أبطالها أن يقدموا أبدًا ... فكلهم لغمار الحرب مقتحم
آمنتهم أن يخافوا سطوة لردى ... فقد تسالمت الأسياف والقمم
كأنها جنة، فالقاطنون بها ... لا يستطيل على أعمارهم هرم
علت فخلنا لها سرًّا تحدثه ... للفرقدين وفي سمعيهما صمم

---

(١) الخريدة: ص١١١.

إن أنبتت أرضها زهرًا فلا عجب ... وقد همت فوقها من كفك الديم
يا خيمة الفرح الميمون طائرها ... أصبحت فألًا به تستبشر الأمم

ومنها يقول في مدح الأفضل:

ما قال لا قط مذ شدت تمائمه ... وكم له نعم في طيها نعم
لو كنت شاهد شعري حين أنظمه ... إذن رأيت المعالي فيك تختصم
أزرتك اليوم من فكري محبرة ... في ناظر الشمس من لألائها سقم
ترى النجوم للفظي فيك حاسدة ... تود لو أنها في المدح تنتظم

ولكن هذا الشاعر النابه، والكاتب المتقدم في ديوان المكاتبات، لقي حتفه بسبب حسد الشعراء له؛ ذلك أن ابن قادوس الشاعر أنشد بيتين في هجاء حسن بن الحافظ، ونسبهما إلى ابن زبيد الأنصاري، ودسَّهما في رقاعه، ثم سعى به إلى ابن الحافظ، فلما وجد حسن بن الحافظ البيتين بين رقاع الأنصاري أمر بقتله، ولم يشفع له جودة شعره التي بلغ بها درجة رفيعة بين الشعراء، ولا طول خدمته في ديوان المكاتبات، فإن هذه الأبيات التي رويناها له في وصف الخيمة ومدح الأفضل، إنْ دلَّت على شيء فإنما تدل على أن للشاعر خيالًا محلقًا، ومقدرة مطاوعة للقريض مع حسن ديباجة.

كان الشعراء في ذلك الوقت يتجهون بمدائحهم إلى الوزراء، والويل كل الويل للشاعر الذي لا يجعل شعر مدحه لهم، فهو يُبعَد ولا يُلتفت إليه، مهما ارتفع شعره وأجاد الشاعر، وهذا ما حدث مع الشاعر المعروف بابن مكنسة أبي طاهر إسماعيل بن محمد، فقد انقطع هذا الشاعر إلى مدح عامل من النصارى يُعرَف بأبي مليح، وأكثر أشعاره فيه، ولما توفي هذا العالم رثاه الشاعر بقوله:

طويت سماء المكرمات ... وكورت شمس المديح
ماذا أرجي في حياتي ... بعد موت أبي مليح

ما كان بالنكس الدني ... من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما ... عقدوا به دين المسيح

فلما ولي الأفضل الوزارة أراد هذا الشاعر أن يتقرب إليه ويتصل به، ولكن الأفضل لم ينسَ شعر ابن مكنسة في أبي مليح، فلم يقبل مدائحه، حتى يئس الشاعر فأرسل إلى الوزير يقول:

مثلي بمصر وأنت ملك ... يقال ذا شاعر فقير
عطاؤك الشمس ليس يخفى ... وإنما حظي الضرير

وبالرغم من أن هذا الشاعر كان من القلائل الذي مدحهم أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية، وأثنى عليه بقوله: «ومن شعرائها المشهورين: أبو طاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة، شاعر كثير التصرف، قليل التكلف، يفتن في نوعي جد القريض وهزله، وضارب بسهم في رقيقه وجزله»[1]. فمع ذلك كله لم يُوفق إلى أن ينال حظوة عند الأفضل، فظلَّ بعيدًا عن شعراء الوزارة.

ولعل ابن مكنسة كان أحسن حظًّا من الشاعر علي بن عباد بن الإسكندري، فقد كان هذا الشاعر منقطعًا لمدح الوزير أبي علي بن الأفضل عندما كان هذا الوزير مستبدًّا بالبلاد وبالخليفة، بل حبس الخليفة الحافظ، حتى بلغ استبداده حدًّا لا يطاق، واستطاع الحافظ أن يتمكن منه، وأن يقتله في الميدان، وتتبع كل من كانوا على صلة بهذا الوزير الطاغية فقتلهم، ومنهم هذا الشاعر. ويروي العماد أنَّ هذا الشاعر مدح ابن الأفضل بقصيدة مطلعها: «تبسم الدهر لكن بعد تعبيس»، وعرَّض فيها بالخلفاء الفاطميين ولا سيما في قوله:

(١) الرسالة المصرية.

وقد أعاد إليه الله خاتمه فاسترجع الملك من صخر بن

فكانت هذه القصيدة سبب مقتله، ويقول ابن ميسر: إن الحافظ أمر بإحضار الشاعر، فلما امتثل بين يديه قال له: أنشدني قصيدتك. فأخذ الشاعر في إنشادها حتى قال منها في بيت:

ولا ترضوا عن أنجس المناجيس

يعني الحافظ وآباءه، فأمر حينئذ أن يلكمه الغلمان حتى مات بين يديه[٢]. بل كانت هذه القصيدة سببًا في قتل القاضي ابن ميسر سنة ٥٣١هـ، فقد روي أن القاضي عندما سمع الشاعر ينشد القصيدة بين يدي ابن الأفضل قام وألقى عرضيته طربًا، فلما قتل الوزير صُرف القاضي عن عمله وقُتل[٣]. وعن هذا الشاعر يقول ابن فضل الله: «علي بن عباد الإسكندري، شاعر كان يجلو غرر المدائح، وكانت منن الوزراء تستعطف أعنة قصائده، فيرد عليهم مسردها»[٤].

وكان بين شعراء الأفضل من نقم عليه فهجاه، ومن هؤلاء الشاعر الملقب بالناجي المصري الذي ذكره أمية في رسالته المصرية، فقد هجا الأفضل بقوله:

قل لابن بدر مقال من صدقه لا تفرحن بالوزارة الخلقة
إن كنت قد نلتها مراغمة فهي على الكلب بعدكم صدقة

فأمر الأفضل بنفيه إلى الواحات، فأقام بها عند علم الدولة المقرب بن ماضي[٥].

---

(١) الخريدة: ورقة ٩٨.
(٢) ابن ميسر: ص٨١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) مسالك الأبصار: ج١٢، ص٢١٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية).
(٥) الخريدة: ١٣٠أ.

ظافر الحداد:

على أن عصر الأفضل لم يشاهد شاعرًا مثل ظافر الحداد؛ بالرغم من كثرة الشعراء وتفوقهم جميعًا في هذا الفن، لكن شعراء ذلك العصر كانوا على حظ من الثقافة والعلم، وكان أكثرهم من كتَّاب الدواوين، أما ظافر فكان حدادًا بالإسكندرية، ولم يتلق من العلوم وألوان المعرفة إلا بمقدار، وبلغت به شاعريته إلى أن يضعه النقاد ومؤرخو الأدب في مصاف أكبر شعراء عصره، واستطاع بشعره أن يجالس العلماء والشعراء، وأن يستمع إلى حوارهم وأحاديثهم، ويأخذ من ذلك كله ما وسعته ذاكرته، فيزيد بها مداركه وثقافته، فقد رأيناه صديقًا لأمية بن أبي الصلت. ويحدثنا ابن خلكان أن الحافظ أبا طاهر السلفي وغيره من الأعيان كانوا يروون عن ظافر الحداد[1].

واتصل ظافر برجال الدولة فأعجبوا به وبشعره، ولا سيما أن مثل هذا الشعر صدر عن رجل من عامة الشعب في حالة متواضعة من العيش، ويروي ابن خلكان قصة تدل على ذلك كله، تلك هي أن القاضي أبا عبد الله محمد بن الحسين الآمدي دخل على والي الإسكندرية الأمير السعيد بن ظفر، فوجده يقطر دهنًا على خنصره، فسأله القاضي عن سببه، فذكر ضيق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه، فأشار عليه القاضي بقطع حلقة الخاتم قبل أن يتفاقم الأمر فيه، فاستدعى ظافرًا الحداد فقطع الحلقة، وأنشد بين يدي الوالي:

قصر عن أوصافك العالم ... وكثر الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة ... يضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسن الأمير الشعر، ووهب لظافر الحلقة، وكانت من الذهب، ويخيل إليَّ أن الأمير أراد أن يستوثق من شاعرية ظافر، وأن ظافرًا الحداد أدرك

(١) ابن خلكان: ج١، ص٢٤١.

ما كان يجول بخاطر الأمير، فاغتنم فرصة وجود غزال مستأنس قد ربض بين يدي الوالي، وجعل رأسه في حجره، فارتجل ظافر:

عجبت لجرأة هذا الغزال ... وأمر تخطى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جاثمًا ... وكيف اطمأنَّ وأنت الأسد

فزاد الحاضرون في الاستحسان، وكأني بظافر وقد طمع في أن يعترف الحاضرون بسرعة بديهته، وقدرته على الارتجال، فقد التفت حوله في قاعة المجلس، فوجد شيئًا كان على الباب ليمنع الطير من دخولها، فأنشد:

رأيت ببابك هذا المنيف ... شباكًا فأدركني بعض شك
وفكر فيما رأى خاطري ... فقلت: البحار مكان الشبك[1]

فهذه القصة إن دلَّتْ على شيء فإنما تدل على أن الشاعر كان على موهبة لنظم الشعر، وأن شعره طبيعي لا تكلُّفَ فيه، وأنه كان يرتجل الشعر ببديهته، مما جعل الناس في عصره يحبونه، ويعجبون به، وها هو ذا العماد الأصفهاني يحدِّثنا عنه بقوله: «ظافر بحظه من الفضل ظافر، يدل نظمه على أن أدبه وافر، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر، وما أكمله لولا أنه من مداح المصري والله له غافر، حداد لو أنصف لسُمِّي جوهريًّا، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلي حريًّا، أهدى بروي شعره الروي للقلوب الصادية ريًّا، فيا له ناظمًا فصيحًا مفلقًا جريًا»[2]. ويُجمع المؤرخون على أن شعر ظافر الحداد جُمع في ديوان كبير، ولكن هذا الديوان فُقِد، ولم يبقَ من شعره إلا أبيات من قصائد.

من ذلك قوله:

لو كان بالصبر الجميل ملاذه ... ما سح وابل دمعه ورذاذه

(١) ابن خلكان: ج١، ص٢٤٢.
(٢) الخريدة: ورقة (٦٠أ).

ما زال جيش الحب يغزو قلبه ... حتى وَهَى وتقطعت أفلاذه
لم يبقَ فيه مع الغرام بقية ... إلا رسيس يحتويه جذاذه
مَن كان يرغب في السلامة فليكن ... أبدًا من الحدق المراض عياذه
لا تخدعنك بالفتور فإنه ... نظر يضر بقلبك استلذاذه
يأيها الرشأ الذي من طرفه ... سهم إلى حب القلوب نفاذه
در يلوح بفيك، من نظامه ... خمر به قد جال من نباذه؟
وقناة ذاك القد كيف تقومت ... وسنان ذاك اللحظ، ما فولاذه؟
رفقًا بجسمك لا يذوب فإنني ... أخشى بأن يجفو عليه لاذه
هاروت يعجز عن مواقع سحره ... وهو الإمام، فمَن ترى أستاذه؟
تالله ما علقت محاسنك امرأ ... إلا وعزَّ على الورى استنقاذه
أغريت حبك بالقلوب فأذعنت ... طوعًا وقد أودى بها استحواذه
ما لي أتيت الحظ من أبوابه ... جهدي فدام نفوره ولواذه
إيَّاك من طمع المنى فعزيزه ... كذليله وغنيه شحاذه

ومنها أيضًا:

دالية ابن دريد استهوى بها ... قوم غداة نبت به بغداذه
دانوا لزخرف قوله فتفرقت ... طمعًا بهم صرعاه أو جذاذه
من قدر الرزق السني لك إنما ... قد كان ليس يضره إنفاذه[1]

فمن هذه الأبيات وغيرها مما حُفِظ لنا من شعر ظافر نستدل على أن شعره سهل طبيعي، ليس به تكلف غيره من الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة، وقد لاحظَ العماد أن ظافرًا الحداد كان لحنة، واستشهد بقصيدته الزائية الشهيرة:

(١) ابن خلكان: ج١، ص٢٤٢، ومعجم الأدباء لياقوت: ج١٢، ص٣١ (طبعة رفاعي).

حكم العيون على القلوب يجوز ... ودواؤها من دائهن عزيز
كم نظرة نالت بطرف ذابل ... ما لا ينال الذابل المهزوز
فحذار من تلك اللواحظ غرة ... فالسحر بين جفونها مكنوز
يا ليت شعري والأماني ضلة ... والدهر يدرك صرفه ويجيز
هل لي إلى زمن تصرم عهده ... سبب فيرجع ما مضى فأفوز
وأزور من ألف البعاد وحبه ... بين الجوانح والحشا مركوز
ظبي يناسب في الملاحة شخصه ... فالوصف حين يطول فيه وجيز
والبدر والشمس المنيرة دونه ... فالحسن منه يروق والتمييز
لولا تثني خصره في ردفه ... ما خلت إلا أنه مغروز
تجفو غلالته عليه لطافة ... فبجسمه من جسمها تطريز
مَن لي بدهر كان لي بوصاله ... سمحًا ووعدي عنده منجوز
والعيش مخضر الجناب أنيقه ... ولأوجه اللذات فيه بروز
والماء يبدو في الخليج كأنه ... أيم لسرعة سيره محفوز
والروض في حلل النبات كأنما ... فرشت عليه ديابج وخزوز
والزهر يوهم ناظريه كأنما ... ظهرت به فوق الرياض كنوز
فأقاحه ورق، وساقط طله ... درر، ونور بهاره إبريز
وكأنما القمري ينشد مصرعًا ... من كل بيت، والحمام يجيز
وكأنما الدولاب يزمر كلما ... غنت، وأصوات الضفادع شيز
يا رب غانية أضر بقولها ... أني بلفظة معدم منبوز
فأجبتها: ما عازني نيل الغنى ... لكن مطالبة الحميد تعوز
ما خاب من هضم التفضل ماله ... كرمًا ووافر عرضه محروز

فأخذ عليه العماد قوله: «عازني»، والصحيح: «أعوزني»، وأخذ عليه قوله: «تعوز» والصحيح: «تُعْوِز»، وأخذ عليه قوله: «محروز» والصواب: «محرز»[١]. ولكن نسي العماد أن الشاعر مصري، وقد ذكرنا في أدب مصر الإسلامية صورًا من اللحن الذي وقع فيه كتَّاب مصر وشعراؤها، وقلنا: إنَّ المصريين لا يراعون قواعد الصرف والنحو مراعاة إخوانهم في البلاد الإسلامية الأخرى لهذه القواعد، ونحن لا نستطيع أن نؤاخذ ظافرًا الحداد بهذه الألفاظ التي لم يراع فيها قواعد الصرف، فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي مع معرفته، إذا أنشد بيتًا من الشعر لم يقم بإعرابه[٢]. ومَن يتتبع شعراء مصر الإسلامية حتى عصرنا الحديث، فسيجد عدم عناية المصريين بهذه الناحية الهامة التي هي من مقومات الشعر.

ومهما يكن من شيء، فإن حياة ظافر الحداد غامضة؛ لعدم وجود ما يكشف عنها، وقد أجمع المؤرخون على أنه توفي سنة ٥٤٦هـ.

[٢] شعراء بني رزيك حتى آخر الدولة الفاطمية:

قُتِل الخليفة الظافر في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، فكتب خدَّام القصر إلى طلائع بن رزيك، وإلى قوص وأسوان والصعيد، يخبرونه بقتل الخليفة، ويستنجدونه على القاتل، وأرسل نساء القصر بشعورهن إليه، ولعب الشعر دورًا هامًّا في دعوة طلائع للأخذ بثأر الخليفة، فقد كانت قصيدة القاضي أبي المعالي عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليس، التي أرسلها إلى طلائع بن رزيك، من أشد الرسائل التي وصلت إليه أثرًا في نفسه، فطلائع كان شاعرًا مجيدًا، ويصفه ابن خلكان بقول: «كان فاضلًا سمحًا في العطاء، سهلًا في

(١) الخريدة: ورقة ٨٧أ، وكتاب روضة الأدب في طبقات الشعراء العرب للشهاب الحجازي: ص٧٥ (طبعة بمباي الهند).

(٢) الفهرست لابن النديم: ٧٩.

اللقاء، محبًّا لأهل الفضائل، جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين»[١]. ولذلك كان وقع القصيدة في نفسه أشد من وقع غيرها من الرسائل.

فمن هذه القصيدة قول الجليس:

دهتني عن نظم القريض عوادي ... وشف فؤادي شجوه المتمادي
وأرق عيني والعيون هواجع ... همومٌ أقضت مضجعي ووسادي
بمصرع أبناء الوصي وعترة النـ ... ـبي وآل «الذاريات» و«صاد»
فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم ... وما لهم من منعة وذياد
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى ... وسم العدا من حاضرين وباد
لقد هد ركن الدين ليلة قتله ... بخير دليل للنجاة وهاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره ... حشاشة نفس آذنت بنفاد
وقد كاد أن يطفي تألق نوره ... على الحق عاد من بقية عاد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ... ومصرعهم لم تكتحل برقاد[٢]

جاء طلائع بن رزيك مع رجاله إلى القاهرة، واستولى على الوزارة، وإذا قلنا الوزارة فإنما نقصد أنه تولى الحكم الفعلي في البلاد، ولذلك لُقِّب بالملك الصالح، وقد أجمع المؤرخون الذين تحدثوا عنه على أنه كان يحب العلم والعلماء والشعر والشعراء، وقد رأينا قول ابن خلكان فيه، ونقل العماد عن خطبة ديوان الصالح: «فقد نشرت أيامه مطوي الهمم، وأنشرت رفات الجود والكرم، ونفقت بدولته سوق الآداب بعدما كسدت، وهبت ريح الفضل بعدما ركدت، إذا لها الملوك بالقيان والمعازف، كان لهوه بالعلوم والمعارف، وإن عمروا

(١) ابن خلكان: ج١، ص٢٣٨.
(٢) النجوم: ج٥، ص٢٩٢.

أوقاتهم بالخمر والقمر، كانت أوقاته معمورة بالنهي والأمر»[١]. ووصفه عمارة اليمني بقوله: «فكان مرتاضًا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة، وكان شاعرًا يحب الأدب وأهله، ويكرم جليسه ويبسط أنيسه»[٢]. ويروي عمارة قصة وفوده على مصر أول مرة، وكيف دخل متنكرًا في زي رسول من قبله على الأجل أبي الهيجاء صهر الملك الصالح، وطلب إليه أن يحمل عنه مئونة السجود عند السلام على الخليفة والوزير، فسأله أبو الهيجاء عن عمارة، فقال له: هو فقيه وعنده طرف من الأدب، فقال: تعني شاعرًا! قال: نعم. قال: هذه نقيصة في حقه. فلما كان في اليوم التالي استدعي أبو الهيجاء للغداء عند الصالح، فقال أبو الهيجاء: عندي رسول صاحب مكة، وكنت أظنه عاقلًا وإذا هو ناقص. فقال له الصالح: وبأي شيء عرفت نقصه؟ قال: لكونه يحسن شيئًا من هذا السحت الذي تعلمه أنت والجليس وابن الزبير. قال الصالح: لعله شاعر؟ قال: نعم. قال الصالح: هاته، هات الرجل. ثم أنشد:

إنَّ الـــذي تكرهـــون منـــه ذاك الـــذي يـــشتهيه قلبـــي[٣]

فهذه القصة إن دلت على شيءٍ، فإنما تدل على أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان مولعًا بالشعر مقربًا للشعراء، ومن عجب أن يجتمع في بلاطه أكبر أعيان أهل الأدب، مثل: الجليس، والموفق بن الخلال، وابن قادوس، والمهذب بن الزبير، والرشيد بن الزبير ... وغيرهم الذين وصفهم عمارة بقوله: «وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، وما زلت أحذو على طرائقهم، وأعرض جذعي في سوابقهم، حتى

(١) الخريدة: ورقة ٣٢ب.
(٢) النكت: ص٤٨.
(٣) النكت: ص١٢٢.

أثبتوني في جرائدهم»[١]. فهؤلاء الأعلام كانوا يجتمعون في مجلس الملك الصالح يتناشدون الشعر، ويتناظرون في بعض المسائل العلمية والأدبية، ويستمعون إلى شعر الملك الصالح، وفي ذلك يقول صاحب النجوم الزاهرة: «وجعل له مجلسًا في أكثر الليالي يحضره أهل الأدب، ونظمَ هو شعرًا ودوَّنه، وصار الناس يهرعون إلى نقل شعره، وربما أصلحه له شاعر كان يصحبه، يقال له: ابن الزبير»[٢]. ويظهر أن الملك الصالح كان ينشد القصيدة أو المقطوعة، ولكنه كان يعرض ما ينشده على المهذب بن الزبير، وعلى غير المهذب ممن كان يتوسم فيهم مقدرة وكفاية على تثقيف الشعر؛ إذ يحدِّثنا عمارة اليمني: «ودخلت إليه ليلة السادس عشر من رمضان، سنة ست وخمسين وخمسمائة قبل أن يموت بثلاث ليالٍ بعد قيامه من السماط، ولم أكن رأيته من أول الشهر بليلة، فأمر لي بذهب، وقال: لا تبرح. ودخل ثم خرج إليَّ وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة، وهما:

نحن في غفلة ونوم وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينًا ... ليت شعري متى يكون الحمام؟

ثم قال لي: تأملهما وأصلحهما إن كان فيهما شيء. قلت: هما صالحان»[٣]. فالملك الصالح كان يستعين بفحول الشعر في عصره لإصلاح شعره، وليس في ذلك ما ينقص من قدرته في الشعر، والمؤرخون يحدِّثوننا أن بعض فحول شعراء العرب كانوا يعرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء، فمروان بن أبي حفصة شاعر هارون الرشيد الرسمي كان يعرض شعره على بشار بن برد، وكان البحتري يعرض شعره على أبي تمام، وكان أكثر الشعراء يعرضون

(١) النكت: ص٣٥.
(٢) النجوم: ج٥، ص٣١٣.
(٣) النكت: ص٤٩.

شعرهم على الأصمعي أو غيره من اللغويين، فإذا كان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد استعان بالمهذب أو بعمارة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لإصلاح شعره، فإن ذلك يدلنا على أن هذا الوزير كان يعرف قيمة الشعر، فلم يستبحْ لنفسه أن يعرض شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر وصلاحه، ولكن ياقوت ذكر في معجم الأدباء في حديثه عن ابن الزبير: «وقيل: إن أكثر الشعر الذي في ديوان الصالح إنما هو عمل المهذب بن الزبير»[1]. ولا أدري من أين استقى ياقوت هذا الخبر، وربما اشتبه عليه الأمر فظنَّ أن ابن الزبير هو صاحب الشعر الذي في ديوان ابن رزيك بدلًا من أنه كان يثقف هذا الشعر، وقد انتهت إلينا قطعة من قصيدة لابن الزبير يتحدث فيها عن شعر الملك الصالح، منها:

ولنار فطنته تريك لشعره ... عذبًا يروي غلة الظمآن
وعقود در لو تجسم لفظها ... ما رصعت إلا على التيجان
وتنزهت عن أن يرى أفوادها ... لمواضع الأقراط والآذان
من كل رائقة الجمال زهت بها ... بين القصائد غرة السلطان
سيارة في الأرض لا يعتاقها ... في سيرها قيد من الأوزان[2]

فابن الزبير هنا يصف شعر الصالح بهذه الصفات، وإن كان ابن الزبير قد غالى في وصفه له، ولكنه كان يمدح صاحب الملك، ومهما يكن من شيء فإن المؤرخين أجمعوا على أن الملك الصالح كان مُكثِرًا من قول الشعر، حتى جُمِع شعره في ديوان من جزأين، ولكن الذي بقي لنا من هذه المجموعة مقطوعات صغيرة، من ذلك قوله يتغزل:

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى ... أعطافه النشوات من عينيه

(١) معجم الأدباء: ج٩، ص٤٧.
(٢) الخريدة: ص٤١.

ماضي اللحاظ كأنما سلت يدي ... سيفي غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكة ... في خده ألفيه لا لاميه
ما الشعر دب بعارضيه وإنما ... أهدابه نفضت على خديه
الناس طوع يدي وأمري نافذ ... فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فاعجب لسلطان يعم بعدله ... ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وأنه ... مستقبح لفررت منه إليه[1]

ويحدثنا العماد في الخريدة أن أبا الحسن علي بن قيصر أنشد في الملك الصالح قصيدته التي أولها:

لا فرق بين خياله ووصاله ... في سرد ماطله وفي تحقيقه

والتي منها:

والله ما للشمس في إشراقها ... وضياء بهجته كبعض شروقه
لا تجعل الهجران بعض عقوبتي ... فمكلف السلوان غير مطيقه
بلغ إلى الملك الهمام أمانة ... تبليغها للحر من توفيقه
حتام حظي في الحضيض وإنه ... في الفضل عند الناس في عيوقه
مثلي بمصر وأنت مالك رقه ... مثل العقاب مفردًا في نيقه
ولقد أشاع الناس أنك في الورى ... من ليس ينفق باطل في سوقه
أبطل بنور العقل سلطان الهوى ... واعمل بكل الجهد في تطليقه

فأجابه الصالح بقصيدة منها:

نفق التأدب عندنا في سوقه ... وبدا اليقين لنا بلمع بروقه
أهدى لي القاضي الفقيه عرائسًا ... فيها بديع الوشي من تنميقه
فأجلت طرفي في بديع رياضه ... من ورده وبهاره وشقيقه

(١) ابن خلكان: ج١، ص٢٣٨.

فكأنما اجتمع الأحبة فانبرت ... يد عاشق تهوي إلى معشوقه
أدب سعى منه إلى غاياته ... وأتى فسد عليه مر طريقه
ولقد علمت بأن فضلك سابق ... يعتد من جاراه من مسبوقه
فلذا اقتصرت ولم أر الإمعان في ... شأو امرئ أصبحت غير مطيقه
وأرى الزمان جرى على عاداته ... في جمعه طورًا وفي تفريقه
والشوق في قلبي تضرم وهجه ... فمتى أراه يكف عن تحريقه
والدمع من عينيَّ سحَّ، فهل يرى ... من بحره يومًا نجاة غريقه
نزهت في بستان نظمك ناظري ... فحظيت من زهر الربا بأنيقه
أنت امرؤ من قال فيك مقالة الـ ... ـغالي فكل الخلق في تصديقه
وأنا أرى تقديم حاجة صاحبي ... من دون حاجاتي أقل حقوقه
وكذا الكريم فمهمل لأموره ... لا مهمل أبدًا أمور صديقه
هذا النجاح فكل ما قد رمته ... قد عمَّ فانظر منه في تحقيقه[1]

وهكذا نستطيع من هذه المقطوعات التي بقيت لنا من شعر الصالح، أن ندرك أن الصالح كان من شعراء مصر الذين يهتمون بالمعاني أكثر من عنايتهم باللفظ، وأنه لم يكن من الشعراء الذين يكثرون من التشبيهات والاستعارات، ولكن التشبيهات تأتي في شعره بسيطة عادية من غير تكلف ولا تصنع، ولم يكن الصالح شاعرًا فحسب؛ بل كان من علماء المذهب، ويقول المقريزي: إن له قصيدة سماها الجوهرة في الرد على القدرية، وأنه صنَّف كتابًا سماه: «الاعتماد في الرد على أهل العناد»، جمع له الفقهاء ونَاظَرَهم عليه، وهو كتاب يبحث في إمامة علي بن أبي طالب والأحاديث النبوية التي وردت فيه[2].

(١) الخريدة: ورقة ٦٩ب.
(٢) خطط: ج٤، ص٨٢.

وتوفي الملك الصالح سنة ٥٥٦هـ، وتولى الوزارة بعده ابنه الملك الناصر رزيك بن الصالح، وكان شاعرًا مثل ابيه، ناقدًا للشعر عارفًا بجيده من رديئه. ويقول عمارة عنه: وأمَّا فهمه فكان يعرف جيد الشعر، ويستحسنه، ويثيب عليه[١].

وفي رثاء عمارة للصالح ومدح الناصر قال:

لا يقولن جاهل بالقوافي ذهب الناقد السميع البصير
فالمرجى أبو شجاع عليم بمقادير أهلهن خبير[٢]

ولكن عمارة أثنى عليه الثناء كله؛ لأن الناصر استخدم القاضي الفاضل، يقول عمارة: «ومن محاسن أيامه وما يؤرَّخ عنها، بل هي الحسنة التي لا توازى، واليد البيضاء التي لا تجازى: خروج أمره إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي البيساني إلى الباب واستخدامه»[٣]. فكأن دقة إحساس الملك الناصر، وتذوقه للشعر والكتابة الفنية، ومعرفته للجيد من الشعر والنثر، جعلت الناصر يكتشف مواهب القاضي الفاضل الأدبية فيرفعه إلى مرتبة الخدمة في ديوان الجيش بالحضرة، ولولا ذلك لظل القاضي الفاضل مغمورًا مثل كثير من الأدباء والشعراء الذين لم تُتَحْ لهم تلك الحظوة، فجهلهم الناس وغمطت مواهبهم. فلا غرو أن رأينا عمارة اليمني يرفع من شأن هذا الكشف ويعده «الحسنة التي لا توازى، واليد البيضاء التي لا تجازى»، ولو كان يعلم عمارة ما ستأتي به الأيام له، وموقف القاضي الفاضل منه، لجعل هذه اليد البيضاء سوداء، وتلك الحسنة سيئة.

(١) النكت: ص٥٢.
(٢) النكت: ص٥٢.
(٣) المصدر نفسه: ٥٣.

لم تمهل الأيام الملك الناصر؛ إذ قُتِل سنة ٥٥٨هـ، وبموته بدأت المنازعات على الوزارة بين شاور وضرغام، وأدى الأمر إلى تدخل جيوش نور الدين زنكي في أمر هذه المنازعات، وإلى تدخل جيوش الصليبيين لاحتلال مصر، ثم إلى تولية أسد الدين شيركوه، ثم صلاح الدين الأيوبي الوزارة، إلى أن استطاع صلاح الدين أن يقضي على الدولة الفاطمية في المحرم سنة ٥٦٧هـ.

ومع هذه الاضطرابات والفتن التي كانت في مصر، لم ينسَ الوزراء الشعر والشعراء؛ فكان شاور يجلس ليستمع إلى مدائح الشعراء، وكان ضرغام ينقد شعر الشعراء، ويذكر عمارة أنه أنشد الوزير ضرغامًا قصيدة منها:

أوجبت في ذمة الأشعار والخطب ... دينًا أبا حسن يبقى على الحقب
أيامك البيض لا تحصى، وأفضلها ... يوم خصصت به في قاعة الذهب
وفيت للصالح الهادي وقد غدرت ... به الصنائع من ناء ومقترب

فقال ضرغام: لو قلت «بعدت» كان أصلح من «غدرت». قلت: إنما أردت مقابلة الوفاء بالغدر. قال: وعلى مقابلتك تنسبنا إلى الغدر[1].

ولعله هذه القصة ترينا مقدار فهم ضرغام للشعر، ونفاذ بصيرته في نقده. وفي هذه الأيام العجاف التي أودت بالدولة الفاطمية توفي كبار شعراء العصر؛ فالجليس توفي سنة ٥٦١هـ، وفي هذه السنة عينها توفي المهذب بن الزبير، وتوفي الرشيد بن الزبير سنة ٥٦٢هـ، ولم يَعُد الشعراء يتكسبون كما كانوا يتكسبون من قبلُ؛ فقد ذكر عمارة أنه أنشد شاور قصيدة مدحه بها بعد طرد الصليبيين من بلبيس إبَّان وزارته الثانية، ومن هذه القصيدة:

أسمع بذا الفتح المبين وأبصر ... واقصر عليه خطا الهناء وأقصر
فتح أضاء به الزمان كأنه ... وجه البشير وغرة المستبشر

(١) النكت: ص١٤٦.

فـــتح يـــذكرنا وإن لم ننـــسه ... مـا كـان مـن فـتح الـوصي لخيـبر
فـتح تولـد يـسره مـن عـسرة ... طالـــت، وأي ولادة لم تعـــسر
حملـــت بـــه الأيـــام إلا أنهـــا ... وضـعته تمًّـا عـن ثلاثـة أشـهر

ويقول فيها:

تلقـــاه أول فـــارس إن أقـــدمت ... خيـــل، وأول راجـــل في العـــسكر
هانـت عليـه الـنفس حتـى أنـه ... بـاع الحيـاة فلـم يجـد مـن يـشتري
ضـجر الحديـد مـن الحديـد وشـاور ... في نـــصر آل محمـــد لم يـــضجر
حلـف الزمـان ليـأتين بمثلـه ... حنثـت يمينـك يـا زمـان فكفـر
يـا فاتحًـا شرق الـبلاد وغربهـا ... يهنيـك أنـك وارث الإسـكندر

يقول عمارة: وكانت هذه الأبيات أحد الأسباب التي قوَّت عزمي على الاستعفاء من عمل الشعر؛ لأن الناس فيما تقدَّم كانوا يغنون الشعراء بما ليس يفوقها جودة[1]. وبالفعل عندما قابلَ شاور بعد ذلك استعفاه عمارة من قول الشعر، وأمر أن ينقل الجاري على الخدمة راتبًا على حكم الضيافة؛ لأن التكسب بالشعر والتظاهر به أصبح نقيصة في حقه. فسأله شاور: فما منعك أن تستعفي في أيام الصالح وابنه؟ قال عمارة: كانت لي أسوة وسلوة بالشيخ الجليس بن الحباب وبابني الزبير الرشيد والمهذب، وقد انقرض الجيل والنظراء. قال: تعفى. ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائه[2]. ومع ذلك لم يستطع عمارة ألا ينشد شعرًا في الحوادث التي كانت في هذه الأيام، ولا سيما عندما تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة، فقد أنشد عدة قصائد يهنئه فيها بانتصاره على الصليبيين، وبنصره لآل بيت الرسول، ويشبِّه جيوش صلاح الدين بأنصار النبي صلى الله عليه وسلم فهو يقول مثلًا:

(١) المصدر نفسه: ص٨٢ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه: ص٨٦.

لك الحسب الباقي على عقب الدهر ... بل الشرف الراقي إلى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك إذا سعت ... بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة ... أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتم عن الإقليم غمته كما ... كشفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
حميتم من الإفرنج سرب خلافة ... جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم ... ودائرة الأنصار أضيق من شبر
جلبتم إليه النصر أوسًا وخزرجًا ... وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب في جيرون منها أواخر ... وأولها بالنيل من شاطئ مصر
طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة ... أضاءت مكان الدين ليلًا بلا فجر
وآبت إليكم يابن أيوب دولة ... تراسلكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزمة أسدية ... فككتم بها الإسلام من ربقة الأسر
أخذتم على الإفرنجي كل ثنية ... وقلتم لأيدي الخيل مري على «مري»
لئن نصبوا في البر جسرًا فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدا ... ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه ... كما لز مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما اقتضضتها ... بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدا ... ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم ... وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفًا له فاستفزه ... بمثلك تيه فهو في أوسع العذر
توقره وسط الندي كرامة ... وتحمل عنه ما يئود من الوقر
وتخلفه حربًا وسلمًا خلافة ... تؤلف أضدادًا من الماء والجمر
وكم قمت في بأس وجود ورتبة ... بما سره في الخطب والدست والثغر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم ... لنعمتكم بالمستحق من الشكر
يد لا يقوم المسلمون بشكرها ... لكم آل أيوب إلى آخر الدهر

بكم آمن الرحمن أعظم يثرب ... وآمن أركان الثنية والحجر
ولو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى ... بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شددتم أزره بوزارة ... غدا لفظها يشتق من شدة الأزر
فهنيتم فتحًا تقدم حله ... وبشر أن الكل يتلو على الإثر
وما بقيت في الشرك إلا بقية ... تتمتها في ذمة البيض والسمر
وعند تمام الملك آتي مهنئًا ... وملتمسًا أجر الكهانة والزجر
ولولا اعتقادي أن مدحك قربة ... أرجى بها نيل المثوبة والأجر
لما قلت شعرًا بعد إعفاء خاطري ... ولي سنوات منذ تبت عن الشعر
فأوصِ بي الأيام خيرًا فإنها ... مصرفة بالنهي منك وبالأمر
وجائزتي: تسهيل إذني عليكم ... وملقاكم لي بالطلاقة والبشر[1]

ولما قُتِل شاور وتولى شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة، وجدنا بعض الشعراء يعرضون في أشعارهم بالوزير المقتول، بل يهجونه أقبح هجاء، فالشاعر حسَّان عرقلة -ولم يكن مصريًّا؛ إنما وفد مع صلاح الدين إلى مصر، وأنشد شعرًا في الحوادث التي جرت في هذه الأوقات- قال لما قُتل شاور وتولى شيركوه قال:

لقد فاز بالملك العظيم خليفة ... له شيركوه العاضدي وزير
كأن ابن شاذي والصلاح وسيفه ... على لديه شير وشبير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه ... وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل ... على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ... ولا زال فيها منكر ونكير

وقال في قصيدة أخرى:

(١) كتاب الروضتين: ج١، ص١٦٣ (طبعة مصر سنة ١٢٨٧).

إن أمـــير المـــؤمنين الـــذي مـــصر حمـــاه وعـــلي أبـــوه
نـــص عـــلى شـــاور فرعونهـــا ونـــص موســـاها عـــلى شـــيركوه[١]

وما كادت تدول هذه الدولة الفاطمية حتى انبرى شعراء الأيوبيين يمدحون ملوكهم، ويقدحون في الدولة الفاطمية ويرمونها بالكفر، وسنتحدث عن ذلك في كتابنا عن الأيوبيين، ويكفي أن نأتي الآن بمثال لهذه الأشعار، فقد قال أحد الشعراء يمدح الأيوبيين:

ألستم مزيلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر، إن هذا هو الفضل
زنادقة سبعية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفرًا، يظهرون تشيعًا ليستتروا شيئًا وعمهم الجهل[٢]

وهكذا كان الأمر في الشعر لدى الوزراء، فالشعراء كانوا يلتمسون الأحداث ليمدحوا الوزراء ويتقربوا إليهم، حتى دالت الدولة الفاطمية.

المهذب بن الزبير:

هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير المعروف بالقاضي المهذب، كان من أهل أسوان من أصل عربي ينتمي إلى قبيلة غسان، وكان المهذب وأخوه الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر، رحَلَا من أسوان إلى القاهرة، وما زالا يرتقيان في مناصب الدولة حتى بلغا مرتبة القضاء وجالَسَا الوزراء والأمراء ... أمَّا المهذب فقد قدَّمه القاضي الجليس إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك، فحظي عنده، وحصل له من الملك مال جم، لم يَنَل غير المهذب منه أحد مثله، وأوفد المهذب في سفارة من مصر إلى بلاد اليمن، وهناك أُتيحت له فرصة جمع كتب الأنساب، اتخذها مصدرًا لكتاب كبير صنَّفه في عشرين مجلدًا هو «كتاب

(١) الروضتين: ج١، ص١٥٧.
(٢) المصدر نفسه: ج١، ص٢٠٢.

الأنساب» اطَّلع ياقوت الحموي على بعض أجزاء منه، فوصفه بقول: «فوجدته مع تحقيقي هذا العلم، وبحثي عن كتبه، غاية في معناه لا مزيد عليه، يدل على جودة قريحة مؤلفه وكثرة اطلاعه، إلا أنه حذا فيه حذو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، وأوجز في بعض أخباره عن البلاذري، إلا أنه إذا ذكر رجلًا ممن يقتضي الكتاب ذكره لا يتركه حتى يعرفه بجهده، من إيراد شيء من شعره وخبره»[١]. فجمع ابن الزبير بين العلم والشعر، وقد ذكرنا في حديثنا عن الملك الصالح أنه كان يعرض شعره على ابن الزبير لتقويمه وإصلاحه قبل عرضه على الناس، ووصف العماد شعره بقوله: «محكم الشعر كالبناء المشيد، وهو أشعر من أخيه، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه ... ولم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير، ومحل في الفضائل أكثر»[٢]. ووصف المهذب شعره مرة وهو يعرض بابن الصياد الملقب بالمفيد الشاعر:

فيا شاعرًا قد قال ألف قصيدة ... ولكنها عن بيته ليس تبرح
ليهنك، لا هنيت، أن قصائدي ... مع النجم تسري أو مع الريح تسرح

وقال مرة أخرى يمدح الوزير الصالح بن رزيك، وكان الوزير يغري الشعراء بعضهم ببعض، ويسر للاستماع إلى نقائض الشعراء وأهاجيهم:

يا أيها الملك الذي أوصافه ... غرر تجلت للزمان الأسفع
لا تطمع الشعراء فيَّ فإنني ... لو شئت لم أجبن ولم أتخشع
إن لم أكن ملء العيون فإنني ... بالقول يابن الصيد ملء المسمع
فليمسكوا عني فلولا أنني ... أبقى على عرضي إذن لم أجزع
وأهم من هجوي لهم مدح الذي ... رفع القريض إلى المحل الأرفع
ولو أنه ناجى ضميري في الكرى ... طيف الخيال بريبة لم أهجع

(١) معجم الأدباء: ج٩، ص٤٩.
(٢) الخريدة: ورقة ٣٨أ.

وإذا بــدا لي الهجــر لم أر شخــصه | وإذا يقـــال لي الخنــــا لم أســـمع
والنــاس قــد علمــوا بــأني لــيس لي | مـذ كنـت في أعراضـهم مـن مطمـع[1]

فنحن أمام شاعر عف اللسان، محترم لنفسه بابتعاده عمَّا يعرضه إلى هجاء زملائه، وإذا عرض لأحد الشعراء فإنما يعرض له من ناحية واحدة هي ناحية فن الشعر، فقد كان المهذب شاعرًا من فحول شعراء العربية، ولا أغالي إذا قلتُ: إنَّ مصر الإسلامية منذ دخلها العرب، ومنذ عرفت الشعر العربي، ولم تُنجب من أبنائها شاعرًا له شاعرية المهذب، وقوة شعره، وحسن ديباجته، وقد وصلت إلينا عدة قصائد له تدلنا على ذلك كله، فمن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى داعي اليمن عندما قبض على أخيه الرشيد، يمدحه ويستعطفه، حتى أطلق سراح أخيه، ففيها يقول:

يــا ربــع أيــن تــرى الأحبــة يممــوا | هــل أنجــدوا مــن بعــدنا أم أتهمــوا
رحلــوا وقــد لاح الــصباح وإنــما | يــسري إذا جــن الظــلام الأنجــم
وتعوضــت بــالأنس روحــي وحــشة | لا أوحـــش الله المنـــازل مـــنهم
لــولاهم مــا قمــت بــين ديــارهم | حــيران أســتاف الــديار وألــثم
أمنــازل الأحبــاب؟ أيــن هــم وأيــ | ــن الصبر مـن بعـد التفـرق عـنهم؟
يــا ســاكني البلــد الحــرام وإنــما | في الـصدر مـع شـحط المـزار سـكنتم
يـــا ليتنـــي في النـــازلين عـــشية | بمنــى، وقــد جمــع الرفــاق الموســم
فـــأفوز إن غفـــل الرقيـــب بنظـــرة | مــنكم إذا لبــى الحجــيج وأحرمــوا
إني لأذكـــركم إذا مـــا أشرقـــت | شـمس الـضحى مـن نحـوكم فأسـلم
لا تبعثـــوا لي في النـــسيم تحيـــة | إني أغـــار مـــن النـــسيم علـــيكم
إني امــرؤ قــد بعــت حظــي راضــيًا | مــن هــذه الــدنيا بحظــي مــنكم
فـــسلوت إلا عـــنكم وقنعـــت إلا | مـــنكم وزهـــدت إلا فـــيكم

(١) المصدر نفسه: ورقة ٤٣ب.

ورأيت كل العالمين بمقلة ... لو ينظر الحساد ما نظرت عموا
ما كان بعد أخي الذي فارقته ... ليبوح إلا بالشكاية لي فم
هو ذاك لم يملك علاه «مالك» ... كلا ولا وجدي عليه «متمم»
أقوت مغانيه، وعطل ربعه ... ولربما هجر العرين الضيغم
ورمت به الأهوال همة ماجد ... كالسيف يمضي عزمه ويصمم
يا راحلًا بالمجد عنا والعلا ... أترى يكون لكم إلينا مقدم؟
يفديك قوم كنت واسط عقدهم ... ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم
لك في رقابهم وإن هم أنكروا ... منن كأطواق الحمام وأنعم
جهلوا فظنوا أن بعدك مغنم ... لما رحلت وإنما هو مغرم
فلقد أقر العين أن عداك قد ... هلكوا ببغيهم وأنت مسلم
لم يعصم الله ابن معصوم من الآ ... فات، واخترم اللعين الأخرم[1]
واعتضت بعدهم بأكرم معشر ... بدءوا لك الفعل الجميل وتمموا
فلعمر مجدك إن كرمت عليهم ... إن الكريم على الكرام مكرم
أقيال بأس، خير من حملوا القنا ... وملوك قحطان الذين هم هم
متواضعون ولو ترى ناديهم ... ما استطعت من إجلالهم تتكلم
وكفاهم شرفًا ومجدًا أنهم ... قد أصبح الداعي المتوج منهم
هو بدر تم في سماء علاهم ... وبنو أبيه بنو رويع أنجم
ملك حماه جنة لعفاته ... لكنه للحاسدين جهنم
أثنى عليك بما مننت وأنت من ... أوصاف مجدك يا مليكًا أعظم
فاغفر لي التقصير فيه وعده ... مع ما تجود به علي وتنعم
مع أنني سيرت فيك شواردًا ... كالدر بل أبهى لدى من يفهم
تغدو وهوج الذاريات رواكد ... وتبيت تسري والكواكب نوم

(١) الأخرم: هو صاحب الدعوة الدرزية التي ظهرت أيام الحاكم، ونادت بألوهيته.

وإذا المـــآثر عـــددت في مـــشهد ... فبـــذكرها يبـــدا المقـــال ويخـــتم
وإذا تـــلا الـــراوون محكـــم آيهـــا ... صـــلى عليـــك الـــسامعون وســـلموا
وكفـــى بـــرأي إمـــام عـــصرك ناقـــضًا ... مـــا أحكـــم الأعـــداء فيـــك وأبرمـــوا[1]

فهذه القصيدة تدلنا على أن الشاعر المهذب بن الزبير كان من الشعراء الذين أعادوا إلينا ذكرى الشعر العربي الرصين وإشراق ديباجته، وأنه كان من الشعراء الذين لم يخدعوا ببهرج اللفظ، ولم تبهرهم زينته، حقيقة قد ألمَّ ببعض مقابلات بديعية، ولكنه لم يسرف فيها إسراف غيره من الشعراء الذين أعجبوا بالصنعة البديعية، فأفرطوا فيها إفراطًا جعلهم يخرجون الشعر عن طبيعته وسلامته، وأخَلُّوا بالمعنى في سبيل اللفظ. ولنأخذ مثلًا آخر من قصيدة لهذا الشاعر في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك؛ لنستدل بها على أن فن الشاعر قريب من فن الشعراء فحول الأمويين والعباسيين:

أقصر فديتك عن لومي وعن عذلي ... أو، لا فخذ لي أمانًا من يد القتل
من كل طرف مريض الجفن تنشدنا ... ألحاظه «رب رام من بني ثعل»
إن كان فيه لنا، وهو السقيم، شفا ... «فربما صحت الأجسام بالعلل»
إن الذي في جفون البيض إذ نظرت ... تطريًا في جفون البيض والخلل
كذاك لم يشتبه في القول لفظهما ... إلا كما اشتبها في الفعل والعمل
وقد وقفت على الأطلال أحسبها ... جسمي الذي بعد بُعد الظاعنين بلي
أبكي على الرسم في رسم الديار فهل ... عجبت من طلل يبكي على طلل
وكل بيضاء لو مست أناملها ... قميص يوسف يومًا قُدَّ من قُبُلِ
تغني من الدر والياقوت لبستها ... لحسنها فلها حلي من العطل
بالخد مني آثار الدموع كما ... لها على الخد آثار من القُبَلِ
كأن في سيف سيف الدين عن خجل ... من عزمه ما به من حمرة الخجل

(١) معجم الأدباء: ج٩، ص٥٠.

هو الحسام الذي يسمو بحامله ... زهوًا فيفتك بالأسياف والدول
إذا بدا عاريًا من غمده خلعت ... غمد الدماء عليه هامة البطل
وإن تقلد بحرًا من أناملـه ... رأيت كيف اقتران الرزق بالأجل
من السيوف التي لاحت بوارقها ... في أنمل هي سحب العارض الهطل

ومنها:

أفارس المسلمين اسمع فلا سمعت ... أعداك غير صليل البيض في القلل
مقال ناء غريب الدار قد عدم الـ ... أنصار لولاك لم ينطق ولم يقل
يشكو مصائب أيام قد اتسعت ... فضاق منها عليه أوسع السبل
يرجوك في دفعها بعد الإله وقد ... يرجى الجليل لدفع الحادث الجلل
فما تخاف الردى نفس وكم رضيت ... بالعجز خوف الردى نفس فلم تبل
إني امرؤ قد قتلت الدهر معرفة ... فما أبيت على بأس ولا أمل
إنْ يروِ ماء الصبا عودي فقد عجمت ... مني طروق الليالي عود مكتهل
تجاوزت بي مدى الأشياخ تجربتي ... قدمًا وما جاوزت بي سن مقتبل
وأول العمر خير من أواخره ... وأين ضوء الضحى من ظلمة الأصل
دوني الذي ظن أني دونه فله ... تعاظم لينال المجد بالجبل
والبدر يعظم في الأبصار صورته ... ظنًّا ويصغر في الأفهام عن زحل
ما ضر شعري أني ما سبقت إلا ... أجاب دمعي وما الداعي سوى ظلل
فإن مدحي لسيف الدين تاه به ... زهوًا على مدح سيف الدولة البطل[1]

ولعلك تلاحظ في هذه القصيدة كيف ضمن الشاعر في البيت الثاني إشارة امرئ القيس إلى بني ثعل، وقول امرئ القيس:

رب رام من بني ثعل ... مخرج كفيه من سترة

(١) الخريدة: ورقة ٣٩.

وكيف ضمن ابن الزبير في البيت الثاني عجز بيت للمتنبي من قوله:

لعل عتبك محمود عواقبه ... فربما صحت الأجسام بالعلل

والشاعر في هذه القصيدة، بل في كل قصائده التي وصلت إلينا من ديوانه الذي فُقِد، يُظهر شاعرية فحول الشعراء، تلك الشاعرية الطبيعية التي يصدر عنها هذا الشعر الجزل الرصين الذي لا نجد له مثيلًا بين شعر مصر الفاطمية، ولعل ذلك يرجع إلى أن المهذب بن الزبير لم ينشأ في القاهرة أو الفسطاط، ولكنه نشأ في أسوان، وتطبَّع هناك بالبيئة التي أحاطت به، فهي محافظة أكثر من بيئة القاهرة، وهي إلى البداوة أقرب، لبُعْدها أولًا عن بقية بلاد القطر، ولبيئتها الجغرافية التي جعلت منها بلدًا يتميز بجو خاص، وتربة هي مزيج من اقسام صحراوية وأخرى صخرية وثالثة خصبة، فالذين يعيشون في هذا البلد أو ينشئون فيه يمتازون بأنهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضر، فلعل هذا هو السبب في أن شعر المهذب وشعر أخيه الرشيد رصين جزل، لا نجد فيه طراوة شعر أهل القاهرة والفسطاط، ولا نعومة شعر الأمير تميم أو إبراهيم الرسي أو حيدرة العقيلي، ولا شعبية شعر ظافر الحداد.

أُصيب هذا الشاعر في أواخر أيامه إبان وزارة شاور بمحنة كان بريئًا منها؛ فقد حبسه شاور ظلمًا بسبب اتصال أخيه الرشيد بصلاح الدين يوسف بن أيوب إبان حصار الإسكندرية، فأخذ المهذب يستعطف شاور، ويرسل إليه الأشعار في مدح ابنه الكامل بن شاور؛ فمن ذلك قوله:

إذا أحرقت في القلب موضع سكناها ... فمَن ذا الذي من بعد يكرم مثواها
وإن نزفت ماء العيون بهجرها ... فمن أي عين تأمل العيس سقياها
وما الدمع يوم البين إلا لآلئ ... على الرسم في رسم الديار نثرناها
وما أطلع الزهر الربيع وإنما ... رأى الدمع أجياد الغصون فحلاها
ولما أبان البين سر صدورنا ... وأمكن فيها الأعين النجل مرماها

عـددنا دمـوع العـين لمـا تحـدرت ... دروعًـا مـن الـصبر الجميـل نزعناهـا
ولمـا وقفنـا للـوداع وترجمـت ... لعينـي عـما في الـضمائر عيناهـا
بـدت صـورة في هيكـل فلـو أننـا ... نـدين بأديـان النـصارى عبـدناها
ومـا طربًـا صـغنا القـريض وإنـما ... جـلا اليـوم مـرآة القـرائح مرآهـا
ليـالي كانـت في ظـلام شـبيبتي ... سراي وفي ليـل الـذوائب مـسراها
تـأرج أرواح الـصبا كلـما سرى ... بأنفـاس ريـا آخـر الليـل رياهـا
ومهـما أدرنـا الكـأس باتـت جفونهـا ... مـن الـراح تـسقينا الـذي قـد سـقيناها

ومنها:

ولـو لم يجـد يـوم النـدى في يمينـه ... لـسائله غـير الـشبيبة أعطاهـا
فيـا ملـك الـدنيا وسـائس أهلهـا ... سياسـة مَـن قـاس الأمـور وقاسـاها
ومَـن كلـف الأيـام ضـد طباعهـا ... فعـاين أهـوال الخطـوب فعاناهـا
عـسى نظـرة تجلـو بقلبـي ونـاظري ... صـداه فـإني دائـمًا أتـصداها[1]

فأطلقته هذه الأشعار من سجنه، واصطنعه الكامل بن شاور لنفسه.

وكان المهذب مثل أخيه الرشيد يذم الزمان، ويتألم لأخلاق الناس حوله، فهم سواسية في اللؤم، وكان يتطلع إلى المجد، فهو يفخر بنفسه، ويفخر بشعره، فهو يقول في إحدى قصائده:

تـشابه النـاس في خلـق وفي خلـق ... تـشابه النـاس والأصـنام في الـصور
ولم أبـت قـط مـن خلـق عـلى ثقـة ... إلا وأصـبحت مـن عقـلي عـلى غـرر
لا تخـدعني بمرئـي ومـستمع ... فـما أصـدق لا سـمعي ولا بـصري
وكيـف آمـن غـيري عنـد نائبـة ... يومًـا إذا كنـت مـن نفـسي عـلى حـذر
تـأبى المكـارم والمجـد المؤثـل لي ... مـن أن أقـيم وآمـالي عـلى سـفر

(١) معجم الأدباء: ج٩، ص٦١.

إني لأشهر في أهل الفصاحة من ... شمس، وأسير في الآفاق من قمر
وسوف أرمي بنفسي كل مهلكة ... تسري بها الشهب إن سارت على خطر
إما العلا وإليها منتهى أملي ... أو الردى فإليه منتهى البشر[1]

ويقول مرة أخرى:

ومن نكد الأيام أني كما ترى ... أكابد عيشًا مثل دهر أنكدا
أمنت عداتي ثم خفت أحبتي ... لقد صدقوا إن الثقات هم العدا[2]

وقد توفي هذا الشاعر سنة ٥٦١ هـ.

القاضي الرشيد بن الزبير:

أمَّا ثاني المهذبين الأخوين الشاعرين، فهو أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني، وكان الرشيد أعلم من أخيه، وأخوه أشعر منه، فقد ضرب الرشيد بسهم وافر في الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم، كما كان جيد النثر، وله تصانيف منها: كتاب «منية الألمعي وبلغة المدعي»، وكتاب المقامات، ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب «جنان الجنان وروضة الأذهان» الذي تحدَّثَ فيه عن شعراء مصر ومَن طرأ عليها، وجعله ذيلًا على يتيمة الدهر للثعالبي، وهو الكتاب الذي أخذ عنه العماد الأصفهاني أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الخريدة.

وللرشيد عدة كتب أخرى منها كتاب «الهدايا والطرف»، وكتاب «شفاء الغلة في سمت القبلة»، ومجموعة رسائله، وديوان شعره، فهو على هذا النحو عالم شاعر أفاد المصريين وغيرهم. ويحدِّثنا العماد أن محمد بن عيسى اليمني

(١) الخريدة: ٤٩ب.
(٢) الخريدة: ٤٩ب.

أخذ عن الرشيد باليمن علم الهندسة[١]، ولكن الرشيد عُرف بالشعر أكثر مما عُرِف بهذه العلوم، حتى قيل: إن سبب تقدمه في الدولة أنه جاء القاهرة بعد مقتل الخليفة الظافر، وحضر المأتم مع الشعراء، فقام آخرهم وأنشد قصيدته التي مطلعها:

ما للرياض تميل سكرًا ... هل أسقيت بالمزن خمرًا

إلى أن وصل إلى قوله:

أفكربلاء بالعراق ... وكربلاء بمصر أخرى

فضجَّ القصرُ بالبكاء، وانثالت عليه العطايا؛ ومن ثمَّ بدأت صلته بالقصر والوزراء، ثم أوفد مبعوثًا إلى اليمن، ولا ندري الأمر الذي من أجله أُوفد إليها، وإن كان صاحب كتاب «الفترات والترانات» يشير إلى أن الرشيد لم يكن رشيدًا في بعثته، ولعل هذه إشارة إلى ما رُوِي أن الرشيد قُلِّد قضاء اليمن ولُقِّب هناك «بقاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن»، وأنه مكث هناك عامين فقيل: إنه مدح الأمير علي بن حاتم الهمداني بقصيدة منها:

لقد أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا ... فلست أنال القحط في أرض قحطان

وقد كفلت لي مأرب بمآربي ... فلست على أسوان يومًا بأسوان

وإن جهلت حقي زعانف خندف ... فقد عرفت فضلي غطارف همدان

فحسده داعي عدن، وكتب بهذه الأبيات إلى مصر، فكانت هذه الأبيات سببًا في غضب أولي الأمر بمصر عليه، كما غضب أولو الأمر بعدن، فأُخِذ الرشيد وحُبس، ثم صُفِح عنه، وقيل: بل إن السبب غير ذلك؛ وذلك أن نفسه سمت إلى مرتبة الخلافة في اليمن فسعى فيها، وأجابه قوم وسلم عليه بها، وضُربت له السكة فنقش على وجه: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾، وعلى

(١) الخريدة: ٣٦أ.

الوجه الآخر: «الإمام الأمجد أبو الحسن أحمد»، فقُبِض عليه وأُرسل إلى مصر مكبَّلًا، ثم أُفرج عنه، ولعل الرواية الأولى أصح من الثانية، فإن الرشيد وقد علمنا ما كان عليه من علم وعقل، لا يبلغ به الأمر إلى أن يدعي الإمامة في الوقت الذي أنكرت فيه إمامة الحافظ والفائز والظافر والعاضد، ودُعِي فيه للإمام المستور ولقائم القيامة، ثم إن مركز الدعوة للإمام المستور انتقل من مصر إلى اليمن منذ مقتل الآمر بأحكام الله، فكيف يدَّعي الرشيد الإمامة في اليمن، وجميعهم يعرفون شروط الإمامة؛ وأهمها: أن يكون الإمام من نسل النبي، وأن يكون الإمام قبله قد نصَّ عليه. ولعل القائمين بأمر مصر في ذلك الوقت لم يكونوا من الغباء والبله لدرجة العفو عن مثل هذا الرجل الدعي، ولا سيما في إبان حكم الملك الصالح طلائع بن رزيك، وقد عرفناه من أشد وزراء ذلك العصر تعصبًا للمذهب والإمامة، لهذا كله أرى أن الرشيد إنما أُمسك وسُجن بسبب حقد داعي عدن عليه. وقد رأينا قصيدة أخيه المهذب التي أرسل بها إلى داعي اليمن حينما قبض على الرشيد؛ فلم نجد في هذه القصيدة إشارة إلى ادعاء الرشيد الخلافة، وقد علم الرشيد بأمر هذه القصيدة فأجاب أخاه بقصيدة هي:

يا ربع، أين ترى الأحبة يمموا ... رحلوا، فلا خلت المنازل منهم
وسروا، وقد كتموا الغداة مسيرهم ... وضياء نور الشمس ما لا يكتم
وتبدلوا أرض العقيق من الحمى ... روت جفوني أي أرض يمموا
نزلوا العذيب، وإنما في مهجتي ... نزلوا، وفي قلب المتيم خيموا
ما ضرهم، لو ودعوا من أودعوا ... نار الغرام، وسلموا من أسلموا
هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا ... أو أيمنوا أو أنجدوا أو أتهموا
وهم مجال الفكر من قلبي، وإن ... بعد المزار فصفو عيشي معهم
أحبابنا، ما كان أعظم هجركم ... عندي، ولكن التفرق أعظم
غبتم فلا والله ما طرق الكرى ... جفني ولكن سح بعدكم الدم

وزعمتم أني صبور بعدكم ... هيهات لا لقيتم ما قلتم
وإذا سئلت بمَن أهيم صبابة ... قلت: الذين هم الذين هم هم
النازلين بمهجتي وبمقلتي ... وسط السويدا والسواد الأكرم
لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى ... أني حفظت العهد لما خنتم
فأقمت حين ظعنتم، وعدلت لما ... جرتم، وسهرت لما نمتم
يا محرقًا قلبي بنار صدودهم ... رفقًا ففيه نار شوق تضرم
أسعرتم فيه لهيب صبابة ... لا تنطفي إلا بقرب منكم
يا ساكني أرض العذيب سقيتم ... دمعي إذا ضن الغمام المرزم
بعدت منازلكم وشط مزاركم ... وعهودكم محفوظة مذ غبتم
لا لوم للأحباب فيم قد جنوا ... حكمتهم في مهجتي فتحكموا
أحباب قلبي أعمروه بذكركم ... فلطالما حفظ الوداد المسلم
واستخبروا ريح الصبا تخبركم ... عن بعض ما يلقى الفؤاد المغرم
كم تظلمونا قادرين وما لنا ... جرم ولا سبب، لمن نتظلم؟
ورحلتم وبعدتم وظلمتم ... ونأيتم وقطعتم وهجرتم
هيهات لا أسلوكم أبدًا وهل ... يسلو عن البيت الحرام المحرم؟
وأنا الذي واصلت حين قطعتم ... وحفظت أسباب الهوى إذ خنتم
جار الزمان عليَّ لما جرتم ... ظلمًا ومال الدهرُ لما ملتم
وغدوت بعد فراقكم وكأنني ... هدف يمر بجانبيه الأسهم
ونزلت مقهور الفؤاد ببلدة ... قلَّ الصديق بها وقلَّ الدرهم
في معشر خلقوا شخوص بهائم ... يصدى بها فكر اللبيب ويبهم
إن كورموا لم يكرموا، أو علموا ... لم يعلموا، أو خوطبوا لم يفهموا
لا تنفق الآداب عندهم ولا ال ... إحسان يعرف في كثير منهم
صم عن المعروف حتى يسمعوا ... هجر الكلام فيقدموا ويقدموا

فـــالله يغنـــي عـــنهم ويزيـــد في زهـدي لهـم ويفـك أسري مـنهم[١]

فهذه القصيدة التي أجاب بها عن قصيدة أخيه، والتي قالها الرشيد وهو أسير في اليمن، تؤيد ما ذهبنا إليه من أن قصة دعوته الإمامة لنفسه، إنما هي قصة موضوعة، فالرشيد لم يُشِر إليها ولم يعتذر عنها، وإنما يتحدث عن أعدائه الذين لم يقدِّروا شعره، فلم تنفق الآداب عندهم، ولم يقدروا إحسانه إليهم، فهم صمٌّ عن المعروف، وهم «شخوص بهائم». فالرشيد لم يكن بالرجل الذي يطلب الإمامة لنفسه، ثم يقول مثل هذا القول.

كان الرشيد كما وصفه ياقوت: على جلالته وفضله ومنزلته من العلم والنسب، قبيح المنظر، أسود الجلدة، جهم الوجه، سمج الخلقة، ذا شفة غليظة وأنف مبسوط كخلقة الزنوج قصيرًا[٢]؛ فكان ذلك سببًا في تهكم شعراء مصر به، فقد قيل: إن الرشيد ولي على المطبخ، فقال الشريف الأخفش يخاطب الملك الصالح بن رزيك:

يـــولي عـــلى الـــشيء أشـــكاله فيـــصبح هـــذا لهـــذا أخـــا
أقـــام عـــلى المطـــبخ ابـــن الـــزبير فـــولى عـــلى المطـــبخ المطبخـــا[٣]

ومما يُروَى في ذلك أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء والفضلاء؛ فألقى الصالح مسألة في اللغة، فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد؛ فأُعجب به الصالح، فقال الرشيد: ما سُئلت قطُّ عن مسألة إلا وجدتني أتوقد فهمًا. فارتجل الشاعر ابن قادوس:

إن قلـــت: مـــن نـــار خلقـــ ـــت، وفُقْـتُ كـل النـاس فهـمَا
قلنـــا: صـــدقت، فـــما الـــذي أطفـــاك حتـــى صرت فحـــمَا

(١) معجم الأدباء: ج٤، ص٦٢.
(٢) معجم الأدباء: ج٤، ص٥٨.
(٣) الخريدة.

وهجاه ابن قادوس مرة أخرى بقوله:

يا شبه لقمان بلا حكمة ... وخاسرًا في العلم لا راسخَا
سلخت أشعار الورى كلها ... فصرتَ تدعى الأسود السالخا

وتروى عنه قصة هي أشبه بقصة الجاحظ مع المرأة التي أرادت نقش صورة الشيطان على الخاتم، ولعل سواده ودمامته وقصره كانت من الأسباب التي جعلته يكثر من ذم الدهر والناس، وأن يظهر في شعره سمة حزن لعدم وفاء الإخوان وغدرهم به، فقد أنشد وهو في اليمن:

لئن خاب ظني في رحابك بعد ما ... ظننت بأني قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتني كل منة ... ملكت بها شكري لدى كل موقف
لأنك قد حذرتني كل صاحب ... وأعلمتني أن ليس في الأرض من

وأنشد مرة أخرى وهو في مصر:

تواصى على ظلمي الأنام بأسرهم ... وأظلم من لاقيت أهلي وجيراني
لكل امرئ شيطان جن يكيده ... بسوء، ولي دون الورى ألف شيطان[٢]

اتصل الرشيد بن الزبير بآل رزيك ثم بالوزير شاور وابنه، ولي سنة ٥٥٩هـ النظر على الدواوين السلطانية بالإسكندرية، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي أثناء محاصرته الإسكندرية، فكان ذلك سبب غضب شاور عليه، فاختفى الرشيد بالإسكندرية، وفي أيام اختفائه أرسل إليه ابن قلاقس هذه الأبيات:

تدانيت دارًا والوصول نسوع ... فخلك ذو الود الوصول قطوع
حجبت ولم تحجب محاسنك التي ... تأنق منها يا غمام ربيع
وضيعت في صون فضعت وهكذا ... يصان فتيت المسك وهو يضوع

(١) الخريدة: ورقة ٣٦ب.
(٢) الخريدة.

وإنك والبيت الذي قد عمرته ... لكالقلب قد ضمت عليه ضلوع
وما أنت إلا العضب لازم جفنه ... لينضى بكف إذ يروق يروع
سيفتق عن زهر بديع كمامه ... فما ذاك من صنع الإله بديع
وتسفر عن صبح شريق دجنة ... ولا سيما قد كان منه طلوع
كأني بها يابن الكرام مغيرة ... لها فوق هاتيك الربوع ربوع
بحيث تريك البر كالبحر ذبل ... وبيض، وبيض أشرقت ودروع
وفرسان حرب لا البعيد عليهم ... بعيد، ولا العالي الرفيع رفيع
بذلك لا تعجب فإني قائل ... وإنك في الشهر الأصم سميع[1]

وظلَّ الرشيد مختفيًا إلى أن قُبِض عليه، وأُشهر على جملٍ وعلى رأسه طرطور، ووراءه مَن ينال منه، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال:

إن كان عندك يا زمان بقية ... مما تهين به الكرام فهاتها

ثم صُلِب شنقًا ودُفن حيث شُنِق، ومن غريب الاتفاق أن يُدفن شاور بعد أيام قليلة في نفس المكان الذي دُفن فيه الرشيد. ورثى الجليس بن الحباب صديقه الرشيد بقوله:

ثروة المكرمات بعدك فقر ... ومحل العلا ببعدك قفر
بك تجلى إذا حللت الدياجي ... وتمر الأيام حيث تمر
أذنب الدهر في مسيرك ذنبًا ... ليس منه سوى إيابك عذر[2]

القاضي الجليس:

هو أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب المعروف بالقاضي الجليس السعدي، ولُقِّب بأمين الدين[1]، وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين كان يقتدي

(١) ديوان ابن قلاقس: ص٦٥.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص٥١.

بهم عمارة اليمني في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك، والاثنان الآخران هما ابنا الزبير المهذب والرشيد، ولكن يُخيل إليَّ أن الجليس كان أقل الثلاثة جودة في الشعر، وأقلهم إنتاجًا في القريض، وربما كان عمله في ديوان الإنشاء مع الموفق بن الخلال أيام الفائز[٢]، جعله لا يهتم بالشعر اهتمام زميليه ابني الزبير، وقد رأينا كيف كانت قصيدته في استدعاء الملك الصالح من الصعيد للأخذ بثأر الخليفة الظافر، والقدماء يذكرون أن الجليس له المعاني المبدعة في شعره، ومثَّلوا لذلك بقوله:

ومن عجب أن الصوارم في الوغى ... تحيض بأيدي القوم وهي ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم ... تأجج نارًا والأكف بحور[٣]

ولا أدري ما الذي أعجب القدماء في هذه الصورة التي أتى بها في البيت الأول، فإني لا أعجب بها كإعجاب القدماء، وإن كنتُ أعجب بالبيت الثاني.

ومن مقطوعاته التي حُفظت لنا قوله يتهكم بطبيب:

وأصل بليتي من قد غزاني ... من السقم الملح بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين ... يفرق بين عافيتي وبيني
أتى الحمى وقد شاخت وباخت ... فعاد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف ... حكاه عن سنان أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم ... فصيَّرها بحذق نوبتين[٤]

ثم قوله في مدح طبيب:

يا وارثًا عن أب وجد ... فضيلة الطب والسداد

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله: ج١٢، ص٢١٨٧، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٢) فوات الوفيات: ج١، ص٣٧٨.
(٣) النجوم الزاهرة: ج٥، ص٣٧١.
(٤) فوات: ج١، ص٣٧٨.

وحـــاملًا رد كـــل نفـــس همـــت عـــن الجـــسم بالبعـــاد
أقـــسم لـــو قـــد طبيـــت دهـــرًا لعـــاد كونًـــا بـــلا فـــساد[1]

وكان الجليس من كبار رجال الدولة، ولُقب بالجليس لأنه كان جليس الخلفاء مقرَّبًا إليهم، فلا غرو أن رأينا شعراء عصره يلوذون به، وينشدونه مدائحهم فيه[2]؛ فقد مدحه ابن قلاقس بعدة قصائد منها قوله:

عفـــا طـــربي إلى عـــافي الرســـوم فـــلا روى الغـــمام ربـــى الغمـــيم
وكنـــت أبـــا المنـــازل والفيـــافي فـــصرت أخـــا المدامـــة والنـــديم
أميـــل إلى ســـلافة بنـــت كـــرم وأدنـــو مـــن ســـوالف أم ريـــم
هـــدتنا للـــسرور نجـــوم راح بهـــا قـــذفت شـــياطين الهمـــوم
وكـــف الـــصبح يلقـــط مـــا تبـــدى بجيـــد الليـــل مـــن درر النجـــوم
فـــإن توجـــت راحـــي كـــأس راح فـــشرب الإثـــم أولى بـــالأثيم
ولمـــا أقفـــرت أوكـــار وفـــري عمـــرت بعزمتـــي أكـــوار كـــومي
إلى القـــاضي الجلـــيس اســـتنجدتها أزمـــة نجـــدة وحـــداة خـــيم
فقـــال لهـــا لـــسان الـــدهر: هـــذا تمـــام الفـــضل أودع في تمـــيم
تقـــسم بـــين شـــمس ضـــحى وبحـــر هدايـــة قاصـــد، وغنـــي عـــديم
وجـــلى ظلمتـــي خطـــب وجـــدب بـــرأي مجـــرب ونـــدى عمـــيم
وملـــك حاســـديه فجاذبتـــه خلائقـــه إلى الطبـــع الكـــريم
عجبـــت لوجهـــه ولراحتيـــه ســـنا شـــمس تبـــدى في غيـــوم
ومطلـــب مـــداه كبـــا فقلنـــا ألـــيم العـــيش أولى بـــاللئيم
وقافيـــة أهـــز بهـــا إذا مـــا نطقـــت معـــاطف الطـــرب الـــرميم
تـــسير وإن أقـــام بهـــا ثنـــاه وأعجـــب مـــا تـــرى ســـفر المقـــيم[1]

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الخطط: ج٢، ص٢٢٦.

ومدحه رضي الدولة أبو سليمان داود بن مقدام، الذي أنشد قصيدة في وصف حاله ومدح فيها الجليس، ومنها:

وقد بكرت تلوم على خمولي ... كأن الرزق يجلبه خيالي
تقدر أنني بالحرص أحوي الثـ ... ـراء وذاكم عين المحال
تقول إذا رأت إرشاد قولي ... هبلت ألا تهب إلى المعالي
ومن لم يعشق الدنيا قديمًا ... ولكن لا سبيل إلى الوصال
لو أدليت دلوك في دلاء ... متحت به من الماء الزلال
وكم أدليت من دلو ولكن ... بلا بلل يرد على قذالي
ولا أنا بالكفاف النزر راضٍ ... ولا أنا عن طلاب الكثر سال
ولكن ذاك من قبل اعتمادي ... على عبد العزيز أبي المعالي[٢]

كما مدحه الشاعر عمارة اليمني بعدة قصائد.

ولكن الشاعر أبا القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد كان مولعًا بهجاء القاضي الجليس، كثير التهكم بأنفه الكبير، حتى قيل: إن ابن الصياد أنشد أكثر من ألف مقطوعة في أنف الجليس[٣] إلى أن انتصر له الشاعر أبو الفتح بن قادوس الذي هجا ابن الصياد بقوله:

يا مَن يعيب أنوفنا الشـ ... ـم التي ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا ... وقرونك الشم اكتساب[٤]

وتوفي الجليس سنة ٥٩١هـ قبل المهذب بن الزبير بشهر واحد، وقيل: إنه لما مات ابن الحباب شمت به المهذب، ومشى في جنازته بثياب مذهبة،

(١) ديوان ابن قلاقس: ص١٠٠.
(٢) الخريدة: ورقة ٩٩ب.
(٣) فوات الوفيات: ج١، ص٧.
(٤) المصدر نفسه.

فاستقبح الناس فعله ونقص بهذا السبب[١]، ورثى الجليس عدد من الشعراء منهم ابن قلاقس، فمن قوله يرثي الجليس ويمدح ابنيه:

علمنا وقد مات الكمال التساويا ... فيا حسنات الدهر عدن مساويا
وقمنا نرجي في المصاب مواسيا ... فأعوزنا لما عدمنا موازيا
ومما شجا أن المعالي تجدلت ... ولم تنتصر فيها الكماة العواليا
سألت فقالوا مصرع لو علمته ... فأيقنت لكني خدعت فؤاديا
فحين احتوت كف المنون على المنى ... تقلص عن يأسي جناح رجائيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب ... فلا بد أن يلقى بشيرًا وناعيا
ولما سرى بي نحوه الوجد قاعدًا ... ولم أستطع عقرًا عقرت القوافيا
وسيرت منها بالنوادي نوادبا ... شوائد بالذكر الجميل شواديا
وعضب جدال فلل الدهر حده ... وما كان إلا قاضب الحد قاضيا
ونور هدى أسرى به خابط الهدى ... فلما خبت أضواؤه عاش عاشيا
لمنعاه قام الرعد بالجو نائحًا ... وبالبرق ملطومًا وبالغيث باكيا
وأسلبت الظلماء نور غدائر ... إلى أن أشاب الصبح منها النواصيا
تخرمه الدهر المخاتل صائدًا ... فخلف حتى الري في الماء صاديا
ولو رامه شاكي السلاح محسدًا ... لراح كما لا يشتهي عنه شاكيا
وهيهات جر الدهر من قبل «جرهمًا» ... وشد على «عاد» «وشداد» عاديا
وكدر ندماني «جذيمة» بعد ما ... أقاما زمانًا يشربان التصافيا
جليس أمير المؤمنين أقمتها ... لفقدك فاسمع صالحات بواقيا
وقد كنت أجلوها عليك تهانئًا ... فوا أسفًا كيف استحالت تعازيا
ولولا سليلاك اللذان توارثا ... حلاك ملأت الخافقين مراثيا
هما ألبساني عنك ثوب تصبر ... وأعلاق قلبي باقيات كما هيا

(١) المصدر نفسه: ص١٢٤.

سقى الرائح الغادي ضريحك صوبه وإن كان يسقي الرائحات الغواديا
ولا برحت فيك القلوب عقيرة تسيل بأسراب الدماء المآقيا[1]

عمارة اليمني:

هو الشاعر الذي يقرن اسمه بأسماء فحول شعراء العصر الفاطمي؛ بالرغم من أنه لم يكن مصريًّا، ولكنه وفد على مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ برسالة من أمير مكة قاسم بن هاشم، فأدخل عمارة قاعة الذهب بقصر الخليفة، وأنشد قصيدته التي مطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدًا يقوم بما أولت من النعم

فأعجب الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ورجال القصر بقصيدته، فأغدقوا على الشاعر نعمهم وعطاياهم، فأمر الوزير بأن يحضر عمارة مجلسه الذي يضم كبار رجال الأدب والعلم بمصر أمثال الجليس، وابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وابن قادوس، والمهذب بن الزبير ... وغيرهم. ومكث عمارة بمصر حتى شوال سنة ٥٥٠هـ ثم عاد إلى مكة، ومنها رحل في صفر سنة ٥٥١هـ إلى وطنه الأصلي اليمن، وفي هذه السنة نفسها ذهب لتأدية فريضة الحج، فطلب منه أمير مكة أن يسفر بينه وبين الملك الصالح مرة أخرى، فجاء إلى مصر حيث أمضى ما بقي من سني حياته.

اتصل عمارة بمصر بالأحداث التي مرت عليها منذ وزارة الملك الصالح طلائع بن رزيك حتى انقرضت الدولة الفاطمية؛ لصلته الوثيقة برجال الدولة إبان هذه الحقبة من الزمان. ويُعَدُّ شعر عمارة من السجلات والوثائق التي تطلعنا على تاريخ مصر إبان هذه السنوات المضطربة التي أدت إلى زوال الدولة الفاطمية، فإن الجزء الذي بقي لنا من شعر عمارة يدل على أنه أنشد في كل

(١) ديوان ابن قلاقس: ص١١٥.

حادثة أَلَمَّتْ بمصر في هذه السنين؛ فقد كان يمدح الوزراء الذين كان بيدهم مقاليد الأمور، وكان يمدح الأمراء الذين هم كبار رجال الدولة، فوجد من الحوادث مناسبات لهذه المدائح، كما أنه وجد منها مادة لكتابة «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية»، وهو أوثق المصادر عن تاريخ هذه الأيام من أيام مصر الفاطمية، كما أنه شارك شعراء مصر في الإشادة بالأعياد المصرية وأيام المواسم، ونحن نعلم أن عمارة كان سُنيَّ المذهب؛ بل كان متعصبًا لمذهبه، ولم يتحول عن هذا المذهب بالرغم من محاولة الوزراء والأمراء معه لكي يعتنق مذهب الفاطميين، ومع ذلك كله فإن عمارة تأثَّر بما كان يجري في مصر، وأسهم مع غيره من شعراء مصر في الإشادة بعقائد الفاطميين، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك فيما قبلُ. ونستشهد الآن بقصيدته النونية التي قالها في رثاء أهل البيت في عاشوراء، وضمنها مدحًا للملك الصالح، وهي القصيدة التي أولها:

شأن الغرام أجل أن يلحاني ... فيه، وإن كنت الشفيق الحاني
أنا ذلك الصب الذي قطعت به ... صلة الغرام مطامع السلوان
ملئت زجاجة صدره بضميره ... فبدت خفية شأنه للشاني
غدرت بموثقها الدموع فغادرت ... سرى أسيرًا في يد الإعلان
عنفت أجفاني فقام بعذرها ... وجد يبيح ودائع الأجفان

وفيها يقول عمارة:

يا صاحبي وفي مجانبة الهوى ... رأي الرشاد، فما الذي تريان؟
قبضت على كف الصبابة سلو ... تنهى النهي عن طاعة العصيان
أمسى وقلبي بين صبر خاذل ... وتجلد قاص وهم دان
قد سهلت حزن الكلام لنادب ... آل الرسول نواعب الأحزان
فابذل مشايعة اللسان ونصره ... إن فات نصر مهند وسنان

واجعل حديث بني الوصي وظلمهم ... تشبيب شكوى الدهر والخذلان
غصبت أمية إرث آل «محمد» ... سفهًا وشنت غارة الشنآن
وغدت تخالف في الخلافة أهلها ... وتقابل البرهان بالبهتان
لم تقتنع أحلامها بركوبها ... ظهر النفاق وغارب العدوان
وقعودهم في رتبة نبوية ... لم يبنها لهم «أبو سفيان»
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم ... أخذوا بثأر الكفر في الإيمان
فأتى «زياد» في القبيح زيادة ... تركت «يزيد» في النقصان
حرب، بنو «حرب» أقاموا سوقها ... وتشبهت بهم بنو «مروان»
لهفي على النفر الذين أكفهم ... غيث الورى ومعونة اللهفان
أشلاؤهم مزق بكل ثنية ... وجسومهم صرعى بكل مكان
مالت عليهم بالتمالئ أمة ... باعت جزيل الربح بالخسران
دفعوا عن الحق الذي شهدت لهم ... بالنص فيه شواهد القرآن
ما كان أولاهم به لو أيدوا ... بالصالح المختار من «غسان»
أنساهم المختار صدق ولائه ... كم أول أربى عليه الثاني[1]

فهذه القصيدة من شعر عمارة تدل على أن الشاعر جارى القوم في عاداتهم، وفي أشعارهم، فهو لم يتشيَّع، ولكنه لم يستطع أن يتخلف عن غيره من شعراء مصر في رثاء أهل البيت في أيام مآتمهم، وشاركَ المصريين في احتفالاتهم، فله عدة قصائد في كسر الخليج؛ من ذلك ما أنشده سنة تسع وخمسين وخمسمائة في مدح العاضد:

سجودًا فهذا صاحب الركن والحجر ... ووارث علم النمل والنحل والحجر

وفيها يقول:

(١) النكت: ص٣٦٣ وما بعدها.

تمـــل أمـــير المـــؤمنين مواســـمًا ... تـزورك مـن صـوم شريـف ومـن فطـر
يواصـــلها ســـعد بجـــدك مقبـــل ... فعـــام إلى عـــام وشـــهر إلى شـــهر
ركبـــت إلى كـــسر الخلـــيج وإنـــما ... ركبـت إلى جـبر الرعايـا مـن الكـسر
ولمـــا رأيـــت الـبر بحـرًا مـن الظبـا ... تعجبـت مـن بحـر يـسير إلى نهـر
غـدوت بفـتح الـسد في زحـف أرعـن ... يـسد هبـوب الـريح بالأسـل الـسمر
يـــرد ظـــلام النقـــع فجـــرًا كـــأنما ... أســـنته مطبوعـــة بـــسنا الفجـــر
كـــأن عـــلى البيـــداء منـــه صـــحيفة ... كتائبهـــا ســـطر يـــضاف إلى ســـطر
إذا خفقـــت أعلامـــه وبنـــوده ... رأيـت عليهـا غـرة العـز والنـصر
وقـد خلـع التأييـد فوقـك حلـة ... تطـرز بالإحـسان والعـدل والـبر
أوارث مجـد الحـافظ بـن محمـد ... وحـافظ حكـم الله في محكـم الـذكر
إذا مـا اسـتجاب الله صـالح دعـوة ... فمتعـك الـرحمن بالنـاصر الـذخر[1]

وهكذا اضطر هذا الشاعر السُّني إلى أن يتأثر بما كان في مصر في العصر الفاطمي، وأن يتأثر بعقائد الفاطميين فأكثر منها في شعره، بل بلغ به تأثُّره بالفاطميين إلى أن يرثيهم ويثني عليهم في الوقت الذي تخلى عنهم جميع المصريين، وشمت بهم أعداؤهم العباسيون وجمهور أهل السنة، فعمارة اليمني السني المذهب كان وفيًّا لهم الوفاء كله، فأنشد قصيدته التي مطلعها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

وفيها يقول بعد أن وصف أيامهم وذكر أعيادهم ومنشآتهم:

والله لا فـاز يـوم الحـشر مبغـضكم ... ولا نجـا مـن عـذاب الله غـير ولي
ولا سـقي المـاء مـن حـر ومـن ظمـأ ... مـن كـف خـير البرايـا خـاتم الرسـل
ولا رأى جنـــة الله التـــي خلقـــت ... من خان عهد الإمام العاضد بن علي

(١) المصدر نفسه: ص٢٣٥.

أئمتي وهداتي والذخيرة لي ... إذا ارتهنت بما قدمت من عملي
تالله لم أوفهم في المدح حقهم ... لأن فضلهم كالوابل الهطل
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت ... ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة هم دنيا، وآخرة ... وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجى ومحل ... الغيث إن ربت الأنواء في المحل
ائمة خلقوا نورًا فنورهم ... من محض خالص نور الله لم يغل
والله ما زلت عن حبي لهم أبدًا ... ما أخر الله لي في مدة الأجل[1]

فكانت هذه القصيدة، وما قيل من أنه اشترك مع نفر من الأوفياء للفاطميين لإعادة ملكهم بتولية ابن العاضد، سببًا في القبض عليه معهم وصلبه سنة تسع وستين وخمسمائة، واتهمه الفقهاء بالكفر، وقال فيه تاج الدين الكندي الشاعر:

عمارة في الإسلام أبدى خيانة ... وبايعَ فيها بيعة وصليبًا
فأمسى شرك الشرك في بغض أحمد ... فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته ... تجد منه عودًا في النفاق صليبا
سيلقى غدًا ما كان يسعى لأجله ... ويسقى صداعد في لظى وصليبا[2]

وهكذا أصاب عمارة ما أصاب الفاطميين الذين حبوه أموالهم وعطاياهم، وأكرموه الإكرام كله، فقابلَ ذلك كله بوفاء الوفي الأمين.

ابن قلاقس:

أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس اللخمي الإسكندري، ولُقِّبَ بالقاضي الأعز، وُلِد بالإسكندرية سنة

(١) الخطط: ص٣٩٣.
(٢) النكت: ص٣٩٧.

٥٣٢هـ، وبها نشأ وتثقف فأخذ عن الحافظ أبي طاهر السلفي وعن غيره، ثم رحل عن مصر إلى اليمن، فدخل عدن سنة ٥٦٣هـ متكسبًا بشعره، فمدح بها ياسر بن بلال، ثم سافر إلى صقلية سنة ٥٦٥هـ ومدح بها القائد أبا القاسم بن الحجر، وصنَّف باسمه كتابًا سماه: «الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم»، وشاء العودة إلى مصر، وتوفي بعيذاب سنة ٥٦٧هـ[١]، فالشاعر كان يتجر بشعره، ويرحل إلى الممدوحين بقصد الكسب؛ مع أنه اتصل ببعض رجالات مصر وأخذ نوالهم. مدح الخليفة الفاطمي بقوله:

في مرتقى الوحي تعلو مرتقى الأمل ... فافسح رجاءك واطلب فسحة الأجل
لا تنتجع للأماني بعده دولًا ... فقد تأملت منه واهب الدول
وانظر إلى صفوة الخلق التي ظهرت ... للناس أيامه عن صفوة الرسل
لو عاد ينطح ذو القرنين صخرته ... لعاد واهي قرون الرأس كالوعل[٢]

ومدح الوزير شاور، وعرض بشيركوه بقوله:

عارض الصفح في يديك الصفاحا ... ورأى البأس أن تطيع السماحا
فرفعت الجناح عن جارم الذنـ ... ـب بعفو خفضت منه الجناحا
وضعت السلاح حين أراك الـ ... ـعزم والرأي إن وضعت السلاحا
أي ثغر سما إليه أبو الفتـ ... ـح فلم يبتدر إليه افتتاحا
بخيول طارت بأجنحة النصـ ... ـر فراحت بها تباري الرياحا
وكماة غرقد اقتطعوا الليـ ... ـل وساقوه في العجاح صباحا
ورماح تجني فنجنيك في الحر ... ب شقيقًا ما كان قبل أقاحا
وظبي تقطع الترائب مهما ... ألقحت بالضراب حبًّا لقاحا
شاركت شيركوه في النفس والما ... ل وصاحت به فصاحًا فصاحا

(١) راجع معجم الأدباء: ج١٩، ص٢٢٦، وابن خلكان: ج٢، ص١٥٦.
(٢) ديوان ابن قلاقس: ص٨٨.

طلب الأمن فاستجيب وما يعـ ـرف منك الطلاب إلا النجاحا
بعد ما ضيق الحمام عليه سبلًا غودرت لديه فساحا
وأقامته كالجذور حماة ضربت بالقنا عليه القداحا
فليطل بعدها الفخار فقد را ح طليقًا لبيضكم حيث راحَا
يا معل الظبا البواتر ضربًا تترك المجد والمعالي صحاحا
فيك لله والخليفة سر أوضحاه لمبصر إيضاحا
ذاك أعطاك آية النصر تصريـ ـحًا، وهذا أعطاك ملكًا صراحا[1]

ومدح الكامل بن شاور، والقاضي الجليس، والقاضي ابن خليف، والحافظ السلفي، وابن مصال، والقاضي الفاضل ... وغيرهم من رجال مصر؛ فمن مدائحه للكامل بن شاور قوله:

حمد السرى من كنت وجه صباحه من بعد ذم غدوه ورواحه
ورأى النجاح مؤمل ألحقته من حسن رأيك فيه ظل جناحه
وأما وعزمك وهو أنهض فاتك لقد انبرى والصفح تلو صفاحه
وبديع مدحك وهو أينق متجر لقد اغتدى والعز من أرباحه
فالدهر بين فريده وفرنده متقلد بنجاده ووشاحه
بأس تورد في خدود شقيقه وندى تبسم في ثغور أقاحه
والكامل المسعود في آفاقه بدر جلا الإمساء عن إصباحه
بمناقب سمت النجوم لنيلها فاستخدمتها في رءوس رماحه
ومواهب عان السحاب معينها فاستغرقته في بحور سماحه
يا آل شاور أنتم دون الورى للملك كالأرواح في أشباحه
وإلى معاليكم إشارة خرسه وعلى أياديكم ثناء فصاحه
لم لا يكون الشكر عندك منتجًا وندالك قوام بأمر لقاحه[1]

(١) ديوان ابن قلاقس: ص٢٥.

ولكنه كان مولعًا بالأسفار وركوب البحر، ولذلك يقول:

والناس كثر ولكن لا يقدر لي ... إلا مرافقة الملاح والحادي[٢]

ويقول في مدح ياسر بن بلال الداعي بمدينة عدن، وكان قد فارقه، ولكن سفينته غرقت فعاد إليه مرة أخرى، وأنشده هذه القصيدة يصف فيها غرقه، ويتحدث عن ولعه بالأسفار:

سافر إذا ما شئت قدرًا ... سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى ... طيبًا ويخبث ما استقرَّا
وبنقلة الدرر النقيـ ... ـة بدلت بالبحر نحرا
وصلا إذا امتلأت يداك ... فإن هما حلتا فهجرا
فالبدر أنفق نوره ... لما بدا ثم استسرا
حركات عيسك ما أرد ... ت مهاد عيشك أن يقرا
إما ترينـي شاحب الـ ... ـوجنات قد ألبست طمرا
فوقائع الأيام تخـ ... ـرج أهلها شعثًا وغبرا
مدت إلى الأربعو ... ن يدًا وقد قهقرت عشرا
واستحدثت في لمتي ... نقطًا فهلَّا كنَّ حبرا
ما قلت أف فإنها ... شرر بأف يعود جمرا
وكفاك أني إن نظر ... ت لها نظرت النجم ظهرا
كان الشباب الغض ليـ ... ـلًا فاستنار الشيب فجرَا
ولئن تقلب بي الزما ... ن كما اشتهى بطنًا وظهرَا
فبما قتلت صروفه ... وقتلته جلدًا وخبرا
غاض الوفاء وفاض ما ... ء الغدر أنهارًا وغدرا

(١) المصدر نفسه: ص٢٧.
(٢) ابن خلكان: ج٢، ص١٥٧.

فانظر بعينك هل ترى ... عرفًا، وليس تراه نكرَا
خلق جرى من آدم ... في نسله وهلم جرا
ومروعي بالبحر يحـ ... ـسب أنني أرتاع بحرَا
أَوَمَا درى أني بتسـ ... ـهيل المصاعب منه أدرى
أعددت نظرة «ياسر» ... نحوي وسوف تعود يسرَا
من صرف الأقدار في ... أيامه كسرًا وجبرَا
واستخدم الأيام في ... أحكامه نهيًا وأمرا
وانتاشني في نظرة ... أولى سيتبعها بأخرى
فالسحب ترشح إذ جرت ... في إثره بالجهد قطرا
والرعد رجع جاهدًا ... أنفاسه تعبًا وبهرا
غرس الصنائع في الرقا ... ب فأنبتت حمدًا وشكرا
يقظان إن نبَّهته ... عمرًا أو استنجدت عمرا
ولرب طرة معرك ... سوداء أعدته طرًّا
أسرى إلى أبطالها ... فأبادهم قتلى وأسرى
من كل متشح على ... نهر الدلاص الرعف نهرا
جروا الذوائب والذوا ... بل خلفهم بيضًا وسمرَا
فالسيف يقرع بينهم ... بثقيفه، والضيف يقرى
يا راويًا عن شخصه ... خبرًا ولم يعرفه خبرا
والثم بنان يمينه ... وقل السلام عليك بحرَا
وغلطت في تشبيهها ... بالبحر، اللّٰهم غفرا
أَوَلَست نلت بذا ندى ... جمًّا، ونلت بذاك فقرَا
بنوافذ ترنو الريا ... ح لها بطرف الحقد شزرا

لا زال ينظـــــــر عودهـــــــا بنـــداه لـــدن المـــتن نـــضرًا[١]

وهـذا الـشاعر الرحالـة كـان يميـل إلى الإكثـار مـن المحسنات البديعيـة في شـعره؛ بخـلاف بعـض الـشعراء الـذين عـاصروه أمثـال المهـذب والرشـيد والجليس وغـيرهم، وإن كـان هـؤلاء الـشعراء قـد ألمـوا بالمحسنات البديعيـة، ولكنهم لم يتعمدوها كما تعمَّدَها ابن قلاقس الذي كان يجهد نفسه على ما يظهر لنا في الإتيان بهذه المقابلات والتوريات وغيرها من ألوان الزينة اللفظية.

من هذا الفصل نستطيع أن ندرك كيف كان للوزراء أثر في حياة الشعر في العصر الفاطمي، وكيف اجتمع الشعراء حول الوزراء يمدحونهم، ويأخذون عطايـاهم، أسـوة بـما كـان يحـدث لـدى الخلفـاء أنفـسهم إبَّـان سـطوتهم وقـوة ملكهـم، ونحـن نأسـف أن يضيع أكثر شعر هـؤلاء الشعراء، فلـم يصلنا منه إلا هذه القطع المتفرقة أو القصائد الناقصة، ومع ذلك فالذي بقي لنا من الشعر يدلنا على أن نهضة الشعر كانت قوية، وأن تياره كان جارفًا، وأن عدد الشعراء المجيدين تضاعف بحيث يُخيل إلينا أن كل مثقف في ذلك العصر كان ينشد الشعر، وأن كتَّاب الدواوين والقضاة كانوا من الشعراء. ويكفي أن نُلقِيَ نظرة على مجاميع الشعر، أمثال اليتيمة والدمية والخريدة، أو كتب التراجم؛ لندرك أن عددًا كبيرًا جدًّا من المصريين أنشد الشعر، وأن الشعر كان من الجودة بحيث استطاعت مصر أن تبز غيرها في مضمار القريض.

(١) ابن خلكان: ج٢، ص١٥٧، وديوان ابن قلاقس: ص٣٨.

الفصل الرابع
الشعر والحروب الصليبية

يُخَيَّل لكل مَن يقرأ تاريخ الفاطميين في مصر أن مصر في هذا العهد كان يسودها الأمن، وأن المصريين كانوا يعيشون في دعة ولين، ألم يتحدث المؤرخون عن النعيم الذي كان في العصر الفاطمي، والترف الذي كان يرفل فيه المصريون، والحياة الناعمة اللينة التي كان يحياها الناس؟ ولكن المؤرخين أنفهسم تحدَّثوا أيضًا عن لون آخر من الحياة، هي حياة الاضطرابات والحروب الكثيرة التي كان يشنها أعداء الفاطميين على بلادهم وممتلكاتهم، منذ أقام الفاطميون دولتهم في شمال إفريقية، فقد كان أعداؤهم يحيطون بممتلكاتهم من كل جانب، ويتحيَّنون الفرص للإيقاع بهذه الدولة الفاطمية التي قامت لتثل عرش العباسيين في المشرق والأمويين في المغرب، كما كان أمام الفاطميين عدو المسلمين العتيد -أعني الروم- ودول جنوب أوربا التي كان يهدِّدها الفاطميون من صقلية ومستعمراتهم في إيطاليا، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة رأينا الفاطميين يشتبكون في حروب صعبة المراس، هي التي عُرِفت في التاريخ بالحروب الصليبية. أَضِفْ إلى ذلك كله ما ذكره المؤرخون أيضًا من قيام خوارج على الدولة الفاطمية في مصر وفي ممتلكاتها، وحروب بين الأمراء لتولي الوزارة. فكل هذه الاضطرابات والحروب اضطلعت بها مصر بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية الفاطمية، وسجَّلَ الشعراء هذه الحروب في أشعارهم ومدائحهم، فالأمير تميم مدح أخاه الإمام العزيز بالله عندما هزم هفتكين الشرابي التركي -مولى معز الدولة البويهي- في دمشق، ثم طلب العفو من العزيز، فوصف تميم هذا الحادث بقوله:

وإنَّا لقوم نروع الزمان ... ولسنا نراع إذا ما سطا

ومنا الإمام العزيز الذي ... به عاد سيف الهدى منتضى
سعى للشآم وقد أصبحت ... بها الحرب نزاعة للشوى
فكشف من ليلها ما سجا ... وقوم من زيغها ما التوى
ولما تقابلت الجحفلان ... وعاد كجنح الظلام الضحى
ولم يَبْقَ في الصف من قائل: ... هل؟ ولا من مجيب: أنا
وقد ولغت في الصدور الرماح ... وصلت لبيض السيوف الطلى
وغنت على البيض بيض الذكور ... غناء يعيد الفرادى ثنى
كأن الرماح سكارى تجول ... بها الخيل في النقب قب الكلا
فلولا الإمام العزيز الذي ... تداركها وهي لا تصطلي
فسكن عارض شؤبوبها ... وأمسك من سجله ما انهمى
بدا لهم دارعًا في العجاج ... كصبح بَدَا طالعًا في الدجى
يكر ويبسم في موقف ... عبوس الكماة به قد بدا
ولم يخذل السيف منه يدًا ... ولم يسكن الروع منه حَشَا
يقود إلى الحرب من جنده ... أسود رجال كأسد الشرى
فلو فدت الحرب قومًا، إذن ... لفدتك صارخة بالعدا
فلم تصدر الرمح حتى انثنى ... ولم تغمد السيف حتى انفرى
ولم يحمل الموت حتى حملت ... ولولاك ما خاب ذاك اللظى
فما انفرجت عنك إلا وأنت ... بها الفارس الملك المتقى
فجاءك منهم ملوك الرجال ... وفدتك منهم ذوات اللمى
ولاذوا بعفوك مستأمنين ... ولم يجدوا غيره ملتجا
ولما رأى فتحها هفتكين ... عليه وأخلفه ما رجا
تولى لينجو فخفت به ... جيوشك واستوقفته الربا
ولو طلب العفو قبل الهروب ... لكنت له غافرًا ما مضى
ولكنه اعتاد فيها الإباق ... وليس الفتى كل يوم فتى

ورام الخلاص وكيف الخلاص ... وقد بلغ الماء أعلى الزبى
ولم يكُ كفؤك في حربه ... وإن كان في بأسه المنتهى
وقد هزم الأسد حتى انتهاك ... فلما رآك غدًا لا يرى
فراح وحشو حشاه أسى ... وقد مُلئت مقلتاه عمى
أريتهم وقعات تزيد ... على وقعات الدهور الألى
ببغداد من ذكره جولة ... تذود عن المارقين الكرى
فأنفس ديلمها تغتدي ... وتمسي على مثل جمر الغضا
إذا سمعوا بالإمام العزيز ... أساءوا الظنون وحلوا الحبا
يخافون من بأسه وقعة ... تدور عليهم بقطب الرحى
ينادي «بويه» بنيه بها ... ويندبهم وهو رهن البلى[1]

ونحن مضطرون إلى أن نترك هذه الحروب الكثيرة التي خاضها الفاطميون، وأن نمر بالأشعار التي أنشدها شعراؤهم في وصف تلك المعارك، لنتحدث عن شعر الفاطميين في هذه الحروب الطاحنة التي شغلت العالم الإسلامي عدة قرون، وكانت مصر هي الدولة الإسلامية الكبرى التي أوقفت مواردها ورجالها للذود عن البلاد الإسلامية وعن الدين الإسلامي، ووقفت أمام مسيحيي أوربا تكافح وتناضل طوال هذه القرون، حتى أدخلت اليأس في قلوب الأوروبيين، وجعلت آمالهم وأحلامهم قصورًا بُنيت في الهواء.

ظهرت الحرب الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ في عهد المستعلي ووزيره الأفضل بن بدر الجمالي، وليس لنا في هذا البحث أن نعرض لهذه الحروب الصليبية من الناحية التاريخية، ونكتفي بأن نذكر أن الأفضل استهان بأمر هذه الحركة في أول الأمر، ولم يدرك الأخطار التي نجمت عن تخاذله وتهاونه؛ بَيْدَ أنه بدأ يدرك خطأ تقديره بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية ومعرة النعمان

(١) ديوان الأمير تميم.

سنة ٤٩١هـ، وواصلوا زحفهم إلى بيت المقدس، فاضطر حينئذ على أن يعبئ جيوشه ويرسلها إلى فلسطين من طريق البحر والبر، ولكن جيوشه هُزمت أمام الصليبيين سنة ٤٩٢هـ بجوار بيت المقدس، واضطرت إلى الانسحاب إلى عسقلان، ثم إلى العودة إلى مصر.

على أنَّ شعراء الأفضل ذكروا لنا أن سبب عودة هذه الجيوش المصرية لم يكن هزيمتها أمام الصليبيين؛ بل سببها ثورة بعض الجنود على الأفضل وتآمرهم للفتك به، ولعل قصيدة أمية بن أبي الصلت التي رويناها من قبل تدلنا على أن الشعراء أخذوا يعتذرون عن الأفضل، وعن انهزامه في هذه الحرب الصليبية الأولى. وفي هذه القصيدة إشارة إلى مؤامرة الجنود، كما أن الشاعر يصرح بأن وزير مصر هو الوحيد الذي قام بالذود عن الدين ونصرة المسلمين، على حين ظلت البلاد الإسلامية الأخرى لاهية عن هذا الخطر الذي دهمهم، فهو يقول:

جردت للدين والأسياف مغمدة ... سيفًا تفل به الأحداث والغير

وبعد أن تحدَّثَ الشاعر عن شجاعة الأفضل وإقدامه في الحروب، أخذ في الاعتذار عن هزيمته، وتوعَّدَ الصليبيين بعودة الأفضل إليهم، والانتصار عليهم:

وإن هم نكصوا يومًا، فلا عجب ... قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
العود أحمد والأيام ضامنة ... عقبى النجاح ووعد الله ينتظر
وربما ساءت الأقدار ثم جرت ... بما يسرك ساعات لها أخر

ونقل المقريزي عن ابن الطوير: أن الأفضل قصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج، فوصل إلى عسقلان، وزحف عليها بذلك العسكر، فخُذِل من جهة عسكره، وهي نوبة النصة، وعلم أن السبب في ذلك من جنده، وكان عند الفرنج شاعر منتجع إليهم، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج:

نصرت بسيفك دين المسيح فللـه درك من صنجل
وما سمع الناس فيما رووه بأقبح من كسرة الأفضل

فتوصَّل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر[١].

وعاد الأفضل إليهم، وكانت جيوشه تصاب بهزائم منكرة، ولكنه لم ييأس من الظفر، واضطربت أمور مصر من بعده حتى ولي الملك الصالح طلائع بن رزيك، فأخذ يرسل الجيوش المصرية لمحاربة الفرنج، فكان ينتصر حينًا وينهزم حينًا آخر، وسجل شعراؤه هذه الحروب، فمن ذلك قول شرف الدولة ابن جبر أبو محمد يحيى بن حسن في إحدى المعارك التي خاضها ابن رزيك ضد الفرنج:

أطفى ابن رزيك لهيب ضرامه والبيض تخطب في الرءوس فتسمع
وكتائب للشرك كنت إزاءها متعرضًا فانفض ذاك المجمع
ولكم صرعت من الفرنج سميدعًا بلقائه لك قيل: أنت سميدع[٢]

وقال المهذب بن الزبير في حروب ابن رزيك، ولم يذكر العماد الواقعة التي كانت سبب هذه القصيدة ولا تاريخها:

وتلقى الدهر منه بليث غاب غدت سمر الرماح له عرينا
تخال سيوفه إما انتضاها جداول والرماح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن يرحن مع الظلام ويغتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت سنًا يغشى عيون الناظرينا
وإن صبحت مع الإصباح عدوًا أثارت للعجاج به دجونا
كأن الشمس حين تثير نقعًا تحاذر من سطاه أن تبينا

(١) المقريزي: ج٢، ص٣١٠.
(٢) الخريدة: ١٢.

وما كسفت بدور الأفق إلا ... أسى إذ أبصرت منه الجبينا
وما اضطربت رماح الخط إلا ... مخافة أن يحطمها مبينا
وما تندق يوم الروع حتى ... يدق بها الكواهل والمتونا
عجبت لها تصافح من يديه ... وتوصف بالظما، بحرًا معينا
ويوردها ولا تحظى بري ... نطافًا من دروع الدارعينا
وهل يشفى لها أبدًا غليل ... وقد شربت دماء الكافرينا
إذا لقيت عيون الروم زرقًا ... حسبت نصالها تلك العيونا
تخال البحر مد به خليج ... إذا ما مد بالقضب اليمينا[1]

ومرة أخرى ذكر العماد أن الملك الصالح أرسل أسطوله سنة ٥٥٣هـ لحرب الصليبيين، وانتصر الأسطول، فأنشد المهذب يمدح الصالح ويصف الأسطول، ومن هذه القصيدة ندرك أن الموقعة كانت بالقرب من العريش:

أعلمت حين تجاوز الحيان ... أن القلوب مواقد النيران
لما أبوا ما في الجفان قريتهم ... بصوارم سلمت من الأجفان
وثللت في يوم العريش عروشهم ... بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما أن جرى ... منه ومن دمهم معًا بحران
ومدح الورى بالبأس إذ خضبوا الظبا ... في يوم حربهم من الأقران
ولأنت تخضب كل بحر زاخر ... ممن تجاوب بالنجيع القاني
حتى يرى دمهم وخضرة مائه ... كشقائق نُثِرت على الريحان
وكأن بحر الروم خلق وجهه ... وطفت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما ... لم يأتِ في حين من الأحيان
أحبب إليَّ بها شواني أصبحت ... من فتكها ولها العداة شواني
شبهن بالغربان في ألوانها ... وفعلن فعل كواسر العقبان

(١) الخريدة: ص٣٨.

وقرتهـا عـدد القتـال فقـد غـدت ... فيهـا القنـا عوضًـا مـن الأشـطان
حـرب عـوان حكمتـك مـن العـدا ... في كـل بكـر عنـدهم وعـوان
وأعـدت رسـل ابـن القـسيم إليـه في ... شـعبان كـيما يـلأم الـشعبان
والفـأل يـشهد باسـمه أن سـوف يغـ ... ـدو الـشام وهـو علـيكما قـسمان
وأراك مـن بعـد الـشهيد أبًـا لـه ... وجعلتـه مـن أقـرب الإخـوان
وهـو الـذي مـا زال يفعـل في العـدا ... مـا لم يكـن ليعـد في الإمكـان
قتـل الـبرنس ومـن عـساه أعانـه ... لمـا عـسا في البغـي والعـدوان
وأرى البريـة حـين عـاد برأسـه ... مـر الجنـا يبـدو عـلى المـران
فليهنـه أن فـاز منـك بـسيد ... أوفى برتبتـه عـلى كيـوان[1]

ولعل هذه القصيدة تبين لنا ناحية تاريخية هامة لم يذكرها المؤرخون في كتبهم، ولم يتحدث عنها المؤرخون من الغربيين، تلك هي علاقة الملك الصالح بن رزيك بنور الدين زنكي إبان الحروب الصليبية، فالشاعر هنا يذكر نور الدين، مرة يذكره «بابن القسيم» أي ابن قسيم الدولة أتابك زنكي، ويذكره مرة ثانية باللقب الذي عُرف به وهو «الشهيد»، ويتحدث الشاعر عن الاتفاق الذي كان بين الملك الصالح وبين نور الدين، ويقضي هذا الاتفاق على أن يواصِلَا الحرب ضد الصليبيين حتى يتركوا الشام، فتقسم حينئذ بين مصر ونور الدين، هذا الاتفاق الذي أشار إليه المهذب في هذه القصيدة لم يذكره أحد من المؤرخين، ويغلب على ظني أنه لولا هذه الصلة الوثيقة التي كانت بين الشاعر والملك الصالح، لما استطاع الشاعر أن يعرف مثل هذا الاتفاق الذي كان بين العاهلين.

وفي عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك، كان الصليبيون يمعنون في شن غاراتهم على حوران وما حولها من البلدان، ووردت الأنباء بأن عسكر

(١) الخريدة: ورقة ٤٠ وما بعدها.

المصريين استولوا على عسقلان، وقتلوا مَن بها من عسكر الفرنج، وسُرَّ المصريون بذلك الانتصار سرورًا عظيمًا نلمح أثره في قصيدة الملك الصالح التي أرسلها إلى أسامة بن منقذ صاحب حصن شيزر، وأحد الأمراء الذين كانوا يساعدون نور الدين زنكي في حروبه ضد الصليبيين:

ألا هكذا في الله تمضي العزائم ... وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم ... وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزي جيوش الكفر في عقر دارها ... ويوطا حماها والأنوف رواغم
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم ... وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما انـ ... ـثنى حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعًا ... مفاوز، وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى ... عزيمته جهد الظما والسمائم
يباري خيولًا ما تزال كأنها ... إذا هي ما انقضت نسور قشاعم
يسير بها «ضرغام» في كل مأزق ... وما يصحب الضرغام إلا الضراغم
وواجههم جمع الفرنج بحملة ... تهون على الشجعان فيها الهزائم
وما زالت الحرب العوان أشدها ... إذا ما تلاقى العسكر المتضاخم
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت ... رءوس وحزت للفرنج غلاصم
فلم ينجُ منهم يوم ذاك مخبر ... ولا قيل: هذا وحده اليوم سالم
فقولوا «لنور الدين» لا فل حده ... ولا حكمت فيه الليالي الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن ... وتظهر فتورًا إن مضت منك (حارم)
فما مثلها تبدي احتفالًا به ولا ... يعض عليها للملوك الأباهم
فعندك من ألطاف ربك ما به ... علمنا يقينًا أنه بك راحم
أعادك حيًّا بعد ما زعم الورى ... بأنك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها ... وحلت بها تلك الدواهي العظائم
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر ... فسيقت سبايا واستحلت محارم

فقُمْ واشكر الله الكريم بنهضة ... إليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت نروعهم ... ونحلف جهدًا أننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم ... وليس ينجي القوم منا الهزائم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائرًا ... إليهم فلا حصن لهم منه عاصم[1]

ومرة أخرى يرسل الملك الصالح إلى أسامة:

يا سيدًا يسموا بهمَّته إلى الرتب العلية
أنت الصديق وإن بعدت ... ت وصاحب الشيم الرضية
يهنيك أن جيوشنا ... فعلت فعال الجاهلية
سارت إلى الأعداء من ... أبطالها مائتا سرية
فتغير هذي بكرة ... وتعاوِد الأخرى عشية
فالويل منها للفرنج ... فقد لقوا جهد البلية
جاءت رءوسهم تلوح ... على رءوس السمهرية[2]

وفي قصيدة للشاعر ابن الصياد حديث عن موقعه بين الملك الصالح والصليبيين، وعن قتل مقدم خيل الفرنج الذي سمَّاه ابن الصياد «بأرناط»، واسمه الصحيح «رينولد» Renauld.

قال ابن الصياد:

عن سيف دين الله سَلْ «أرناطا» ... حيث المنية كأسها يتعاطَى
والمشرفية قد حكت في جيشه ... في العل والنهل القطا الفراطا
قد سام طير الكفر منه منسرًا ... أشغى وعاين مخلبًا عطاطا
هو ملبس جيش العدا في الحرب من ... حلل النجيع مجاسدًا ورياطا

(١) الروضتين: ج١، ص١١٥.
(٢) الروضتين: ج١، ص١١٦.

فجيـــاده تـــشكو مزاحمـــة القنـــا ... وتـــرد خرصـــان الرمـــاح سـياطا
هــو فــارس الإسـلام يحفـظ بالظبـا ... مــن دينــه الأطــراف والأوســاطا
كــم قــد أنــار مــن الأسـنة أنجـمًا ... لمـــا أثـــار مـــن العجـــاج عطاطـــا
فتخالـــه ملكًـــا رمـــى بـــشهابه ... في الـروع شيطان الحـروب فـشاطا(١)

ويحدِّثنا عمارة اليمني في النكت أن في وزارة الملك الصالح غزا الصليبيون مصر، ووصلوا إلى إقليم الحوف، فأرسل الوزير الجيوش بقيادة ابنه العادل الناصر خلفهم، وطاردهم إلى أبي عروق من إقليم فلسطين، وعاد بجيوشه منتصرًا إلى بلبيس، ففرق في الجيش مالًا كثيرًا، وخلع على الأعيان.

ويذكر عمارة أن له ولغيره من شعراء مصر شعرًا في هذه الموقعة، ولكن لم يصل إلينا من هذا الشعر إلا مقطوعة من قصيدة لعمارة منها قوله:

أنـت الـذي يعقـد الإسـلام خنـصره ... عليـه إن جـلَّ خطـب أو طـرا وطـر
متـــوج تـــشرق الـــدنيا بطلعتـــه ... وتخجـل الـشمس مهـما لاح والقمـر
إذا أقامـــت عـــلى ثغـــر صـــوارمه ... فللنوائـــب عـــن ســـكانه ســـفر

ومنها قوله:

أغـــاث أعـــمال «بلبـــيس» وأمنهـــا ... مـن بعـد مـا غالهـا الإشـفاق والحـذر
وحـين أبليـت عـذرًا في اللحـاق بهـم ... والنـصر يقـسم لا فـاتوك والظفـر
وقـــال: عزمـــك لمـــا أن ألـــح ولم ... تلـــح لـــه مـــنهم عـــين ولا أثـــر
إن يـنج منهـا «أبـو نـصر» فعـن قـدر ... نجـا، وكـم قـدرة قـد عاقهـا القـدر
وعـدت نحـو مقـر العـزم في عـصب ... يفنـى بهـا الأكثـران: الرمـل والمطـر
وللـــصوارم في أجفانهـــا أســـف ... تكـاد مـن حـره الأجفـان تـستعر(٢)

---

(١) الخريدة: ورقة ٦٧.
(٢) النكت: ص٥٤ ومابعدها، وص٢٤٧.

هذا الشاعر الذي مدح الوزير بانتصاره على الصليبيين يحدثنا أن ابن الوزير نجا من هذه الموقعة (عن قدر)، فهذا البيت إنما يدل على أن الحرب بين الفريقين كانت عسيرة شاقة كاد يُقتَل فيها ابن الوزير، ولكن القدر فقط هو الذي أنجاه من خطر محقَّق. ومع ذلك فقد وصلت إلينا قصيدة أخرى من شعر عمارة في مدح الملك الصالح، وفيها ذكر لهذه الموقعة؛ منها قوله:

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد ... ديارهم لم ينجهم منك مهرب
وخافتك إن لم تعطها الأمن منعمًا ... فجاءتك يا ليث الشرى تتغلب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهم ... ومن بعض ما أهدوا مجن ومقلب
وذلك فأل صادق أن عزهم ... بسيفك يا سيف الهدى سوف يسلب[1]

وهذه الموقعة هي إحدى الغلطات الثلاث التي كان يعدها الصالح نفسه؛ إذ يروي ابن خلكان أن ثالث هذه الغلطات: خروج الملك الصالح إلى بلبيس بالعساكر، ورجوعه بعد أن أنفق فيهم أكثر من مائتي ألف دينار، حيث لم يتم زحفه إلى بلاد الشام ويفتح بيت المقدس، ويستأصل شأفة الفرنج[2]. وفي هذه الموقعة نفسها قال عمارة أيضًا في مدح الملك الناصر بن الصالح:

رأيتك لم تقنع بمنصبك الذي ... علا فنجوم الأفق عنه سفال
فباشرت مكروه الوغى في مواطن ... حرام المنايا بينهن حلال
وهل يفخر الصمصام إلا بقطعه ... وإن راق منه جوهر وصقال
كأنك خلت السلم نقصًا على العلا ... وليس لها غير القتال كمال
ولما تشكى الخوف حيفًا على الهدى ... وكاد الهوى يسطو عليه ضلال
نهضت إلى الإفرنج تزجي كتائبًا ... تغل بها أعناقهم وتغال
فولوا وقد أبقت عليهم نفوسهم ... سباسبب حالت دونهم ورمال

(١) النكت: ص١٧٦.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص٢٢٠.

وأتبعتهم ركضًا على كل سابح إذا الريح كلت لم يصبه كلال[١]

والمؤرخون يذكرون قصة شاور، واستنجاده بالصليبيين ضد أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، ففي موقعة بلبيس التي انتصر فيها شاور والفرنج، قال عمارة يمدح شاور ويعرض بالغزو:

ولقد دفعت إلى ثلاث نوائب كادت تشيب لهولها ولدانها
من معشر تغدو السماحة والندى فيما حوت أجفانها وجفانها
فعصابة غزية غادرتها وأجل ما نرجوه منك أمانها
وعصابة رومية عاشرتها فتأدبت وتهذبت أذهانها
وعصابة مصرية بك أصبحت فوق البرية راجحًا ميزانها
وتداركت بلبيس منك عواطف يسع الزمان وأهله غفرانها
أقسمت لولا حسن رأيك لاغتدى الناقوس في بلبيس وهو أذانها
بلد لو انهدمت قواعد سوره بيد النصارى لم يعد بنيانها
أبقيتها للمسلمين وإنه ليعز بعد خرابها عمرانها[٢]

فهو هنا يمدح شاور باتفاقه مع الصليبيين، ولولا هذا الاتفاق لاستولى الفرنج على بلبيس، ولدثر الدين في هذا البلد، ولذلك لم يهج الصليبيين في هذا الشعر، وإن كان عرَّض بهم تعريضًا خفيفًا، ونستطيع أن نعرف رأي عمارة في الإفرنج إذا قرأنا مقطوعة أخرى له لم يقصد بها مدح الوزير، بل هي أبيات صادرة عن عاطفة الشاعر نحو هذه الأحداث والنكبات التي جرَّتها سياسة شاور على البلاد، فهو يقول:

يا رب إني أرى مصرًا قد انتبهت لها عيون الأعادي بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية واحرس عقود الهدى من حل عقدتها

(١) النكت: ص٣٠٧.
(٢) النكت: ص٣٦٩.

وهب لنا منك عونًا نستجير به ... من فتنة يتلظى جمر وقدتها[١]

وفي مديحه لصلاح الدين، وذكر وقعة الجسر بالجيزة التي انتصر فيها على الصليبيين بقيادة مري، يقول عمارة:

حمى الله منكم عزمة أسدية ... فككتم بها الإسلام من ربقة الكفر
لئن نصبوا في البر جسرًا فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدا ... ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر
أخذتم على الإفرنج كل ثنية ... وقلتم لأيدي الخيل مري على «مري»
وأزعجه من مصر خوف يلزه ... كما لز مهزوم من الليل بالفجر[٢]

وهكذا نرى شعراء مصر يشيدون بالحروب الصليبية التي شغلت العالم الإسلامي عدة قرون، ولم يَرَ العصر الفاطمي منها سوى زهاء نصف قرن فقط، ومع ذلك فإن هذه الحروب جعلت الشعراء المصريين ينشدون أشعارًا حماسية يمدحون شجاعة جنود مصر الذين أخذوا على عاتقهم طرد الصليبيين من فلسطين، على حين بقيت الدويلات الإسلامية تنظر إلى هذه الحروب نظرة عدم اكتراث. وقد سجَّلَ المصريون في هذه الحروب جهودًا كثيرة سجَّلها الشعراء الفاطميون في شعرهم، كما سجَّلها شعراء الأيوبية وشعراء الفاطميين في شعرهم، كما سجَّلَها شعراء الدولة الأيوبية وشعراء المماليك في العصور التالية لهذا العصر الذي نؤرِّخه الآن.

(١) النكت: ص١٩٠.
(٢) النكت: ٢٧٠.

الفصل الخامس
الفكاهة والمجون

رأينا في كتاب «أدب مصر الإسلامية» كيف تطورت الحياة في مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، وكيف كثر المجون واللهو بتأثير التطور الذي حلَّ بالبلاد، ولكن مصر في العصر الفاطمي تطورت تطورًا آخر، فقد كانت حياة المرح واللهو على أشدها بالرغم مما ألمَّ بمصر في هذا العصر من كوارث ونكبات، وكانت أعياد الفاطميين ومواسمهم التي ابتدعوها تزيد في لهو الشعب ومجونه. أضفْ إلى ذلك ما كان يحدث في مصر في أعياد الأقباط التي شارك المسلمون في إحيائها والاحتفال بها، فقد كان الفاطميون يحتفلون «بعيد الميلاد» ويفرقون فيه على أرباب الرسوم من الأستاذين المحنكين والأمراء المطوقين وسائر الموالي من الكتاب وغيرهم الجامات من الحلاوة القاهرية والمثارد التي فيها السميذ وقربات الجلاب وطمافير الزلابية والسمك المعروف بالبوري[1]. وينقل المقريزي عن المسبحي أنه في سنة ٣٨٨ كان الغطاس فرضت الخيام والمضارب والأسرة في عدة مواضع على شاطئ النيل، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان، وأوقدت له الشموع والمشاعل، وحضر المغنون والملهون وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف[2]. وقال: إنه في سنة ٤١٥ هـ نزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله بقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم، وأمرَ أمير المؤمنين بأن توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيدًا كثيرًا[3]. ونقل المقريزي عن ابن المأمون أنه في غطاس سنة ٥٢٧ هـ فرق أهل

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٥.
(٢) المصدر نفسه ص٢٧.
(٣) المصدر نفسه.

الدولة ما جرت به العادة لأهل الرسوم[١]. وفي خميس العدس كانت تضرب خمسمائة دينار فتعمل خراريب تفرق في أهل الدولة[٢]. وفي يوم النوروز كان اللعب بالماء ووقود النيران، ويقول ابن زولاق في سنة ٣٦٤هـ: وطاف أهل الأسواق وعملوا فيه وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ولعبوا ثلاثة أيام أظهروا فيها السماجات[٣]. ويروي ابن المأمون أنه حل موسم النوروز في سنة ٥١٧هـ ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز من ثغر الإسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة والحريري والسوادج، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم[٤]. فالفاطميون كانوا يشاركون المسيحيين في أعيادهم ومواسمهم ويحتفلون بذلك احتفالًا يكاد يكون رسميًّا، فلا شك أن الشعب كان يحتفل بذلك كله؛ مع ما كان للمسلمين من أعياد خاصة بهم، كما كان في مصر أيام ليست دينية، إنما هي مصرية يساهم فيها المسلمون وغير المسلمين؛ مثل يوم فتح الخليج مثلًا، وقد وصف الرحالة ناصري خسرو ما شاهده في هذا اليوم، وختم حديثه بقوله: «وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج وتجري فيه أنواع الألعاب العجيبة»[٥]. ووصف المسبحي ما كان في يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين من المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة وكان ثالث الفتح -أي فتح الخليج- بقوله: فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير للأكل والشرب واللهو، ولم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم، وركب أمير المؤمنين -يعني

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص٣١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سفر نامة (ترجمة يحيى الخشاب) ص٥٥.

الظاهر- في مركبه إلى المقس وعليه عمامة مشرب مفوطة بسواد وثوب ديبقي من شكل العمامة، ودار هناك طويلًا وعاد إلى قصره سالمًا، وشوهد من سكر النساء وتهتكهنَّ وحملهنَّ في قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال أمر يقبح ذِكرُه[١]. فكل هذه الأعياد التي كانت في العصر الفاطمي أدت بمصر إلى الاندفاع نحو حياة كلها فرح وحبور. أضف إلى ذلك كله ما كان عليه ثراء مصر في هذا العصر وبذخ الخلفاء والأمراء، وقد لمس ناصري خسرو هذا الثراء فذكر أن أهل مدينة مصر (ويقصد الفسطاط) كانوا في غنى عظيم حين كنت هناك[٢]. فهذا الثراء جعل المصريين يتأنقون في ملبسهم ومسكنهم ومأكلهم، ويتباهون بذلك كله، ويتنافسون عليه، وقد حدثنا المؤرخون عن ذلك كله بصور مختلفة هي أقرب إلى الصور التي تحدثنا عنها القصص. ومع ذلك فإن ما بقي لنا من آثار الفاطميين يدل على أن ما ذكره المؤرخون لم يكن من وحي الخيال إنما كان من الواقع المشاهد[٣].

كانت هذه الحياة المرحة في مصر وثراء المصريين من أشد العوامل على تطور الحياة في مصر الفاطمية؛ وذلك أن حياة اللهو انتشرت واشتد تيارها، فخاض غمارها المصريون، وقد وصف «أبو الصلت» أخلاق المصريين التي شاهدها فقال: «أما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك في اللذات»[٤].

وفي حديث المقريزي عن خزانة البنود قال عن الظاهر لإعزاز دين الله: «وكانت أيام الظاهر هذا سكونًا وطمأنينة، وكان مشتغلًا بالأكل والشرب

(١) الخطط: ج٣، ص ٢٣٥.
(٢) سفر نامة: ص٦٢.
(٣) راجع كتاب «كنوز الفاطميين» للدكتور زكي حسن.
(٤) الخطط: ج١، ص٧٧.

والنزه وسماع الأغاني، وفي زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة في اتخاذ الأغاني والرقاصات، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة»[١].

ويحدثنا المقريزي أيضًا أن اللحاكم ألزم الناس بالوقيد، فاستكثروا منه في الشوارع والأزقة، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة، وصار الناس في القاهرة ومصر طول الليل في بيع وشراء، وأكثروا أيضًا من وقود الشموع العظيمة، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج، وغلب النساء الرجال على الخروج بالليل، وعظم الازدحام في الشوارع والطرقات، وأظهر الناس اللهو والغناء وشرب المسكرات في الحوانيت وبالشوارع من أول المحرم سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة[٢].

ويروي المقريزي: قال إبراهيم بن الرقيق في تاريخه: حدثني محمد الكهيني -وكان أديبًا فاضلًا قد سافر ورأى بلدان الشرق- قال: ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبةً في القصف والعزف؛ وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير إلا خرج إلى بركة الحبش متنزهًا، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات، ويخرجون باللأهل والولد، ومنهم من يخرج بالفتيات المسمعات المماليك والمحررات، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون[٣].

وظهر أثر ذلك كله في الشعر، وكان شعر مصر الفاطمية أصدق مرآة لهذه الحياة الصاخبة الماجنة، فوصف الشعراء مجالس الشراب واللهو، وتغزلوا بالمذكر حينًا وبالمؤنث حينًا آخر، وتهادوا الجواري والغلمان، ودعا بعضهم

(١) الخطط: ج٢، ص٢٧٨.
(٢) الخطط: ج٣، ص١٧٦.
(٣) الخطط: ج٣، ص٢٥١.

بعضًا للاستمتاع بلحظات يختلسونها للهوهم ومجونهم، وخرجوا إلى الأديرة ينتهبون فيها اللذات، واشترك الشعراء في ذلك كله حتى لا نستطيع أن نجد شاعرًا لم يأخذ بنصيب من حياة المجون، إلا إذا استثنينا المؤيد في الدين الذي لم يُعرف عنه فحش في القول، ولم يسهم في هذه الحياة مثل غيره من الشعراء؛ بل هو القائل:

قد شيبت مني العذار العفه ... ما زلت من ميزانها في الكفه
ما شاق قلبي وتر أو زهر ... ولم تدب في عروقي خمر
عبادتي كل الزمان عادتي ... ما ملكت يد الهوى مقادتي

أمَّا غير المؤيد من الشعراء فقد كانوا جميعًا يشتركون في المجون واللهو، وها هو ذا الشاعر أبو الرقعمق يعرض في مجونه بالمذاهب الدينية، ويصرح بأجزاء من الجسم في قصيدة يمدح بها الإمام العزيز:

أظن ودادها من غير نيه ... وهل هي فيه إلا مدعيه
فتاة لا تمل عذاب قلبي ... ولا تخليه وقتًا من أذيه
ولا ذنب له إلا التوافي ... لمن في الحب ليست بالوفيه
ويعجبني التمنع والتشاجي ... من الخود الممنعة الشجيه
فوا أسفًا على حر يعزي ... أخا رزء على عظم الرزيه
وذلك أن أيري فيه رطل ... وما في حرها إلا وقيه
ومن بعث المدام فليس بد ... ولا تك غير بكر بابليه
فثم هناك حر شافعي ... عظيم الشأن واست مالكيه
ونفسي غير مائلة إليها ... لأحوال مقبحة بذيه
وجملة أمرنا أني بغي ... وأيضًا فهي فاجرة بغيه
أحب دنوها وتحب قربي ... وهذا لا يكون بلا بليه
وما لاقيتها إلا تلاقي ... مبالانا بإسقاط التقيه

وهـــذا الـــرأي لا رأي ســـواه ... فـــلا تحفـــل بـــأقوال الرعيـــه
ولا عـــيش ســـوى تقليـــب بظـــر ... وثقـــب مـــن صـــبي أو صـــبيه
عـــلى أني أقـــول بكـــل شيء ... ســـوى نيـــك العجـــوز القزمليـــه
ولا ألـــوي عـــلى أحـــد يـــراني ... بعـــين الـــنقص والحـــال الدنيـــه
ولكنـــي أقـــول بمـــدح قـــوم ... تفـــرد بـــالعلا دون البريـــه

ويستمر أبو الرقعمق في مدح العزيز بعد أن قدم للمدح بهذا المجون، وربما كان أبو الرقعمق من أشد الشعراء إمعانًا في الحماقة والفُحش في الشعر، فقد اتخذ لنفسه هذه الطريقة العجيبة في الشعر حتى عرفت به، فهو يشبه ابن الحجاج في هذه الناحية؛ ولكن أبا الرقعمق إذا شاء أن يترك هذه الحماقات في الشعر، وأن يعود إلى الجد، فهو يأتي بشعر جيد لا يأباه السمع ولا يزوي عنه أهل الفضل، فهو يقول مثلًا:

لـــيلي بتنـــيس ليـــل الخـــائف العـــاني ... تفنـــى الليـــالي ولـــيلي لـــيس بالفـــاني
أقـــول إذ لـــج لـــيلي في تطاولـــه ... يـــا ليـــل أنـــت وطـــول الـــدهر ســـيان
لم يكـــف أني في تنـــيس مطـــرح ... مخـــيم بـــين أشـــجان وأحـــزان
حتـــى بليـــت بفقـــدان المنـــام فـــما ... للنـــوم إذ بعـــدوا عهـــد بأجفـــاني
مـــا صـــاعد الـــبرق مـــن تلقـــاء أرضـــهم ... إلا تـــــذكرت أيـــــامي بعـــــمان
ولا حننـــت إلى نجـــران مـــن طـــرب ... إلا تكنفنـــــي شـــــوق لنجـــــران
لا تكـــذبن فـــما مـــصر وإن بعـــدت ... إلا مـــــواطن أطـــــرابي وأشـــــجاني
ليـــالي النيـــل لا أنـــساك مـــا هتفـــت ... ورق الحـــمام عـــلى دوح وأغـــضان
أصـــبو إلى هفـــوات فيـــك لي ســـلفت ... قطعـــتهن وعـــين الـــدهر ترعـــاني
مـــع ســـادة نجـــب غـــر غطارفـــة ... في ذروة المجـــد مـــن ذهـــل بـــن شـــيبان
وذي دلال إذا مـــا شـــئت أنـــشدني ... وإن أردت غنـــــاء منـــــه غنـــــاني
ســـقيته وســـقاني فـــضل ريقتـــه ... وجـــاد لي طرفـــه عفـــوًا ومنـــاني

ما زلت أجني بلحظي ورد وجنته ... وأستغير على تفاح لبنان
ما زال يأخذها صفراء صافية ... حتى توسد يسراه وخلاني
الله يعلم ما بي من صبابته ... وما علي جناه طرفه الجاني
كم بالجزيرة من يوم نعمت به ... على تصاحب نايات وعيدان
سقيا لليلتنا بالدير بين ربا ... باتت تجود عليها سحب نيسان
والطل منحدر والروض مبتسم ... على أصفر فاقع أو أحمر قاني
والنرجس الغض منهل مدامعه ... كأن أجفانه أجفان وسنان

فإذا قارنا بين هذه القصيدة وبين قصائده الأخرى التي يظهر فيها الحمق نجد أن الشاعر كان له لونان من الشعر، ذلك اللون الذي يظهر فيه مجونه وحماقته، ولون آخر هو الذي يظهر فيه الجد؛ ولكن أبا الرقعمق عرف بالمجون أكثر مما عرف بالجد، وقد ذكرنا لونًا من شعره الماجن في مقدمة المدح، وله في ذلك عدة قصائد منها القصيدة الرائية المعروفة التي مطلعها:

كتب الحصير إلى السرير ... أن الفصيل ابن البعير

وفي أشعاره الماجنة يتحدث الشاعر عن تصافع الشعراء الماجنين، وهذه ظاهرة بدأت في الشعر المصري في العصر الإخشيدي واستمرت إلى أوائل العصر الفاطمي، فقد كان الشعراء يذكرون في قصائدهم هذا اللون من المزاح بينهم ويتنادرون به، وكان أكثرهم ذكرًا للتصافع هو الشاعر كشاجم وأبو الرقعمق؛ فأبو الرقعمق يقول في إحدى قصائده -يذكر التصافع بين الشعراء الماجنين-:

ولكم بتنا على طرب ... ورءوس القوم تستلب
وكئوس الصفع دائرة ... ملؤها اللذات والطرب
وانتخبناها وهامهم ... وأكف القوم تصطخب
وكأن الصفع بينهم ... شعل النيران تلتهب

ويقول في قصيدة أخرى:

ولا أتـــــــرك في مـــــــصر لــــذكر الحمـــق مـــن أثـــر
فمــــن بعــــدي ليطببـــــــ ـــــه في الـــنظم وفي النثـــر
ومــــن يلعــــب في الــــرأس مـــن العـــصر إلى الفجـــر
ومـــن مـــن شـــدة الـــصفع لـــــه رأس بـــــلا شـــعر
ومــــن هامتــــه أقــــوى عـــلى الـــصفع مـــن الـــصخر
إذا أمـــــــراني الـــــــصفع تجـــــشأت مـــــن الـــــدبر
وهيهــــات تــــرى صــــفعًا لغـــــيري أبــــدًا يمــــري(١)

ويقول في قصيدته الرائية المشهورة:

لا تنكـــرن حماقـــاتي لأن بهـــا لـــواء حمقـــى في الآفـــاق منـــشور
ولـست أبغـي بهـا خـلًا ولا بـدلًا هيهـات غـيري بـترك الحمـق معـذور
لا عيــب في ســوى أني إذا طربــوا وقـد حـضرت يـرى في الـرأس تفجـير
والأخـدعان فـما زالا يـرى بهـما لكثـــرة المـــزح تـــوريم وتحمـــير
وذا الفعـال مـع الأعـراض مطـرد صـفع ونقـع وتيـسير وتعـسير(٢)

فالشاعر في هذه المقطوعات يظهر حماقاته ومجونه؛ وهذا المزاح الثقيل الذي كان بين الماجنين ظهر في العصر الإخشيدي وأوائل العصر الفاطمي، ويخيل إليَّ أن هذا المزاح أتى به الشعراء الوافدون على مصر؛ فكشاجم أحد أبطال التصافع لم يكن مصريًّا، وأبو الرقعمق لم يكن مصريًّا، ولم أجد في شعر المصريين الذي وصلنا هذا النوع من المزاح، ولكن كشاجم وأبا الرقعمق تحدثا عنه في أشعارهما التي أنشداها في مصر، ولعلهما كانا يعبثان في شعرهما بذكر هذا المزاح، وإذا ذكر شعراء مصر الصفع فإنما يكون ذلك في الهجاء،

(١) اليتيمة: ج١، ص٢٤٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٩.

فالشاعر صالح بن مؤنس الذي كان يعيش في عصر أبي الرقعمق هجا زميله الشاعر ابن أبي الجوع فقال:

وقال قوم قد غدا شاعرًا ... والشعر لا يعرف للمفحم
فقلت لا لوم على مثله ... من أخذ الصفع قفاه حمى
أن الذي ألبسته حسرة ... بما جرى من ذكره في فمي
والله لا يجهل من بعدها ... وفي قفاه للردى ميسمي
أبين به من ميسم واضح ... يضيء كالغرة في الأدهم[1]

فالصفع في هذه الأبيات ليس للمزاح كالذي رأيناه في شعر كشاجم أو في شعر أبي الرقعمق؛ إنما هو في معرض الهجاء.

كان أبو الرقعمق أستاذًا لمدرسة في شعر الهزل والمجون، وسنرى أن صريع الدلاء وابن مكنسة وغيرهما ساروا على نهجه.

وفي هذا العصر الذي كان فيه أبو الرقعمق، عاش عدة شعراء مثلوا في مصر جماعة أبي نواس في العراق، فقد كان هؤلاء الشعراء يجتمعون وينشدون أشعارهم ويتبارون في النشيد وهم يقصفون ويلهون، فجماعة كانت تضم صالح بن رشدين وعبد الله بن أبي الجوع ومحمد بن الحسن اليمني والحسن بن محمد الشهواجي وصالح بن علي بن مؤنس وابن أبي الزلازل وأبا تميم سليمان بن جعفر وأحمد بن عبد الله بن أبي العصام وغيرهم من شعراء ذلك العصر. وكانت هذه الجماعة على صفاء أحيانًا وفي خصام أحيانًا أخرى. وكان أكثر هؤلاء الشعراء يتغزلون في صالح بن رشدين، أحد أئمة الكتاب في الديوان، ولقي المتنبي في مصر، وروى شعره، كما كان شاعرًا بارعًا جيد المعاني، ففيه يقول صالح بن مؤنس:

(١) المصدر نفسه: ص٣١٠.

بـــك يـــا صـــالح أرضى ... عـــن زمـــاني حـــين أســـخط
فـــأدم لي الوصـــل إني ... بـــك في العـــالم أغـــبط
أنـــت والـــرحمن مـــذ كنـــ ... ـــت عـــلى قلبـــي مـــسلط
ومـــصيب أنـــا في الحـــ ... ـــب ومـــن بعـــدي يغلـــط
يـــا جـــوادًا في لهـــاه ... بنـــداه أتبـــسط

وفيه يقول محمد بن الحسن اليمني:

فاضـــح الغـــض النـــضير ... كاســـف البـــدر المنـــير
أنـــت عـــذري في حيـــاتي ... ومـــماتي ونـــشوري
مـــا سرور غـــاب عنـــه ... (صـــالح) لي بـــسرور

وأنشد فيه ابن أبي الجوع:

يـــا أطيـــب النـــاس ريحًـــا ... وأطيـــب النـــاس راحـــا
ومـــن بـــه أتـــصدى الأ ... طـــراب والأفراحـــا
هـــات اســـقني، أو تـــراني ... لا أعـــرف الأقـــداحا
واحفـــظ عـــلي فـــؤادي ... مـــن أن يطـــير ارتياحـــا
لـــو كنـــت كاســـمك يـــا صـــا ... لـــح اعتمـــدت الـــصلاحا
لكـــن أبـــى الله إلا ... أن تفـــسد الأرواحـــا

ويطول بي الأمر لو ذكرت كل الأشعار التي بقيت لهذه الجماعة في صالح بن رشدين، وكان هؤلاء الشعراء يقصفون ويلهون ويدعو بعضهم بعضًا على الشراب والقصف وسماع الموسيقى والغناء، ويتهادون الجواري. وقد روى الثعالبي أنَّ القائد أبا تميم سليمان بن جعفر كتب إلى صالح بن رشدين رسالة يستدعيه فيها إلى الشراب فامتنع عليه، وكتب له هذه الأبيات:

يـــا أيهـــا القائـــد الجليـــل ومـــن ... أصـــبح بالمكرمـــات يفتخـــر

آليـــت لا أشرب المـــدام وإن ... كانـــت ذنـــوب المـــدام تغتفـــر
يكفـــي أخـــا العقـــل أن ســـورتها ... تجنـــي عـــلى عقلـــه ويعتـــذر

فكتب إليه القائد أبو تميم:

أبـــا عـــلي حاشـــاك يـــا أمـــلي ... مـــن أن أراك الغـــداة تعتـــذر
قلبـــي إذا غبـــت ســـاعة قلـــق ... يكـــاد شـــوقًا إليـــك يـــستعر
فـــسر إلينـــا فوقتنـــا حـــسن ... ســـاعد فيـــه الـــسحاب والمطـــر

ويروى أيضًا أنَّ ابن رشدين قال: حضرت عند القائد أبي تميم في ضيعة له، فلما عمل فينا الشراب نظرت إلى جارية له تسمى عبدة ذاهبة جائية، فحملني النبيذ أن أخذت رقعة وكتبت فيها إليه:

صـــالح لا يـــزال يطلـــب عبـــده ... مـــن كـــريم يـــصفي الأخـــلاء وده
قـــد بثـــت الغـــداة وجـــدي وحبـــي ... مـــن ولي يـــولي لمـــولاه مجـــده
فـــإذا شـــئت أن أرى لـــك عبـــدًا ... فتفـــضل أبـــا تمـــيم بعبـــده

فقرأها وأمسك، وتماديت في الشرب معه، ثم نهضت إلى منزل أنزلني فيه بقربه، فلما استقر بي أنفذ لي الجارية ومعها درج فيه طيب كثير وعليها ثياب رفيعة حسنة ورقعة فيها شعر:

قـــد بعثنـــا أبـــا عـــلي بعبـــده ... وقـــضينا بـــذاك حـــق المـــوده
وحمـــدناك إذ خطبـــت إلينـــا ... أســـأل الله أن يهنيـــك حمـــده
فاتخـــذها فأنـــت أكـــرم كـــفء ... وهي ما عشت كاسمها لك عبده

ويروي ابن سعيد في المغرب أن أبا علي أحمد بن صدقة الكاتب أرسل إلى صالح بن رشدين:

بـــالله يـــا صـــالح قـــم مـــسرعًا ... إلى عقـــار أدركـــت تبعـــا
وســـاعد الليلـــة في شربهـــا ... وخـــذ مـــن الـــسكر لهـــا مـــصرعا

فقد بذلنا لك أرواحنا ... كما رأيناك لها موضعا

فجاوبه صالح:

يا سيدًا يسمع ما قد دعا ... خذني كما ألزمته مسرعا
منادمًا ما شئت أعمالها ... كأسًا ترينا للسنا مطلعا
نشربها حتى ترى الهم لا ... يهدى ولا يدرى لنا موضعا

ومن الجماعات التي كانت في أوائل العصر الفاطمي جماعة الأمير تميم والرسي والعقيلي وغيرهم، وكلهم عُرف بالمجون والفحش، وقد ذكرنا أنَّ المعز منع الإمامة من ابنه الأكبر الأمير تميم لمجونه وفسقه؛ انظر إليه وهو يقول:

وشادن شرط الصبا مرهف ... قرة عين من تمناه
كأنما الحسن رأى وجهه ... إليه محتاجًا فأغناه
وانتشرت بالغنج ألفاظه ... وانكسرت باللحظ جفناه
ولاح بريق الثغر من مبسم ... المسك والقهوة مجناه
وبتل الأرداف فاستثقلت ... وأرهف الخصر وأضناه
زرنا به منزل خمارة ... والليل في صبغ بريه
وقد علا الأفق هلال بدا ... كعطفة الحاجب محناه
حتى إذا الخمار أصغت إلى ... صحبنا في المشي أذناه
قام إلينا عجلًا شاغلًا ... بالراح يمناه ويسراه
ماسل من إبريقه قهوة ... أشرق منها ليل مغناه
حتى إذا سمناه في بيعها ... قطب غيظًا حين سمناه
وقال ما استام بها ماجد ... قبلكم فيما علمناه
دونكموها وزنوا مثلها ... درًّا وتبرًا، ووزناه
فغاب عن ألحاظنا ساعة ... ثمت وافانا ودناه

فقام بالكأس هضيم الحشى ... لولا قناه لشربناه
كأنه في كفه حده ... لكنها في السكر عيناه
إذا سقى ندمانه كأسه ... ألثمه فاه وغناه
ولم تنكه غير ألحاظنا ... يا كاشحًا قد زاد معناه
فإن تداخلك بنا ظنة ... فقد على رغمك نكناه
ولم تزل في بيت خمارها ... نشربها شهرًا ومثناه
إذا أشاب الصبح رأس الدجى ... وهزنا الساقي أجبناه
نحنو إذا نادى إليه كما ... يحنو إلى الوالد ابناه
وإن بدا من صاحب بعض ما ... يأتي به السكر عذرناه[1]

ثم اقرأ قوله -وفيها يذكر مجونه في دير القصير-:

ولي صاحب لا يمرض العقل جهله ... ولا تتأذى النفس منه ولا القلب
إذا قلت: «لا» في قصة لم يقل: «بلى» ... وإن قلت: أصبو، قال: لا بد أن أصبو
وإن قلت هاك الكأس، قال مبادرًا ... ألا هاتها، طاب التنادم والشرب
سريع إذا لبى، صبور إذا دعا ... يهون عليه في رضى خله الصعب
غدوت به يومًا إلى بيت حانة ... وللغيم دمع ما يكف له سكب
وقد نفحت ريح الصبا بمنافس ... عبيرية الأنساب طاب لها الترب
فأفضى بها الإدلاج بعد تعسف ... إلى زولة شمطاء منزلها رحب
مدثرة، أما أبوها فقيصر ... وحسبك ملك جده قيصر خسب
قصيرية ديرية هرقلية ... تقاصر منها الحظ واحدودب الصلب
فلما قرعنا بابها ابتدرت لنا ... وفي يدها نجم محيط به قعب
فقالت لنا: أهلًا وسهلًا ومرحبًا ... وقل لكم مني البشاشة والرحب
من أنتم؟ فقلنا عصبة من بني الصبا ... دعاهم إليك القصف والعزف واللعب

(١) ديوان الأمير تميم، (مخطوط).

فقالت: على اسم الله حطوا رحالكم ... فعندي الفتاة الرود والأمرد الرطب
وراح نفى إقذاءها طول عمرها ... فجاءت كما يذري مدامعه الصب
أرق إذا رقرقتها في زجاجة ... وألطف من نفس تداولها الحب
كأن سراجًا في ترائب دنها ... إذا أقبلت من كيلة الدن تنصب
فقلنا لها: كيلي لنا وتعجلي ... ولا يك فيما قلت خلف ولا كذب
فجاءت تجر الزق نحوي كأنه ... على الأرض زنجي بلا هامة يحبو
فلما مزجناها بدا فوق رأسها ... حباب كما ينساب من سكله الحب
وطافت بها هيفاء مهضومة الحشا ... ملاطفها سلم وألحاظها حرب
تمايل ردفاها وأدرج خصرها ... ليانًا ولطفًا مثل ما تدرج الكتب
شكا كشحها الزنار مما يجيعه ... وضاق بها الخلخال وامتلأ القلب
أغار على أعطافها كلما انثنت ... مع الكأس، أو قذى ملاحتها الشرب
أحلت لي الصهباء تقبيل وجهها ... وما كان قبل السكر في لثمه عتب
كأني وقد أضجعتها وعلوتها ... من الشكل رفع تحت ضمته نصب
وما فض لامي صادها بجناية ... سوى قولها إن المسيح لها رب
فلما أغاظتني بإظهار كفرها ... ذببت عن الإسلام إذ أمكن الذب
وضرجت فخذيها دمًا بمصمم ... تقر له البيض المهندة القضب
فما برحت حتى أنابت وأسلمت ... فهل لي في فتكي بها بعد ذا ذنب؟
أبا حسن، هات المدامة واسقني ... فقد شاب رأس الشرق واحلولك
كأن الثريا في ملاءة فجرها ... مصابيح، إلا أنها قد بدت تخبو
سلام على دير القصير ومرحبًا ... به فله مني التخصص والقرب
فكم لذة فيه قضيت وغلة ... شفيت ولا واش علينا ولا شغب
منازل يستن الصبا في عراصها ... ويعذب فيها ماء ديمته العذب[1]

(١) ديوان الأمير تميم، (مخطوط).

والأمير تميم هو الذي يقول في إحدى مقطوعاته:

دع مقـــال العـــاذلات والـــه عـــن ســعي الســعادة
واشرب الـــراح وشــبها بالثنايـــا العطـــرات
وانتقـــل إن شـــئت تفـــا ح ريـــاض الوجنـــات
أنـــا مـــا بـــين نـــداما ي وراحـــي وســـقاتي
ممـــل لا أعـــرف الـــصحـ ــو ولا وقـــت الـــصلاة
فـــإذا نـــومني الـــسكـ ــر عـــلى تلـــك الهبـــات
لم ينبهنـــي ســـوى حـــ ــن مثـــاني الغانيـــات
وغنـــاهن ســـحيرًا: «اســـقنيها بحيـــاتي»

فهذا الشاعر الماجن لم يتورع عن التهكم بالدين المسيحي طورًا وبالدين الإسلامي طورًا آخر، حتى يخيل إلينا من شعره الذي وصلنا في المجون أنه رجل عاش للذاته وفجوره، ولم يفكر إلا في قصفه ولهوه، حتى أنه في شعره الذي كان يمدح فيه أباه الإمام المعز أو أخاه الإمام العزيز كان يقدم لمدائحه بالغزل حينًا وبشعر ماجن حينًا آخر؛ مع أنه كان يمدح شخصًا أخص ما يمتاز به هو صفته الدينية. ولكن نجد في ديوان تميم بعض قطع في الزهد والنسك لا تقل روعة وصدق إيمان عن شعر أشد الشعراء تمسكًا بالدين وأشدهم خوفًا من عذاب الآخرة، فهو يقول مثلًا:

يـا عجبًـا للنـاس كيـف اغتـدوا في غفلـــة عـــما وراء الممـــات
لـــو حاســـبوا أنفـــسهم لم يكـــن لهـم عـلى أخـذ المعـاصي ثبـات
مـــن شـــك في الله فـــذاك الـــذي أصـــيب في تمييـــزه بالـــسبات
يجيـــئهم بعـــد الـــبلى مثـــل مـــا أخـــرجهم مـــن عـــدم للحيـــاة

ويقول مرة أخرى:

أفنيـــت دهـــرك تتقـــي فيـــه الحـــوادث والمـــصائب

ولـــو اتقيـــت معـــاصي الـــر ... حمـــن فـــيما أنـــت راكـــب
لأمنـــت مـــن نـــار الجحيـــ ... ـــم وفي الحيـــاة مـــن المعائـــب
إن لم تراقـــب مـــن لـــه ... حكـــم عليـــك فمـــن تراقـــب

فالأمير تميم شأنه في مجونه وزهده شأن كثير من بني البشر الذي يعصون الله؛ ولكنهم في الوقت نفسه يخافون عقابه، فهؤلاء لهم شخصيتان: شخصية الماجن اللاهي وشخصية الزاهد المتعبد، ولكن الأمير تميم كان يغلب عليه المجون حتى عُرف به.

أمَّا أصدقاؤه الذي كان يقصف ويلهو معهم، فلعل أشدهم صلة به هم ولدا الرسي: أبو إسماعيل الرسي، وأبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الرسي، وهؤلاء جميعًا من الأشراف العلويين الذين وفدو على مصر قبل العصر الفاطمي واستقروا بها. وكان لبيت الرسي نقابة الطالبيين في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين، وكان هؤلاء جميعًا من شعراء مصر، ويتحدث صاحب المغرب عن الحسين بن إبراهيم الرسي فيقول: «وهذا الشريف الرسي هو الذي كان بينه وبين تميم بن المعز مجاوبات بالنظم، وكان يكثر التنزه معه في بساتينه وفرجه».

ويروي الثعالبي للرسي أبياتًا في الدعوة إلى اللهو منها:

شـــم النـــسيم لذيـــذًا ... مـــن قبـــل ألا تـــشمه
واصرف عـــن القلـــب مـــا اسطعـــ ... ـــت بالمـــسرة همـــه
وغـــالط الـــدهر إن كنـــ ... ـــت لـــست تملـــك حكمـــه
وقـــد نـــصحتك جهـــدي ... فـــلا تـــصم وتكمـــه

وهذا الشاعر هو الذي كتب إليه الأمير تميم يصفه بقوله:

يـــا شـــاعرًا جـــلَّ عـــن أن ... يقـــاس بـــه الـــشعراء

ويـــا ظريفًـــا بليغًـــا أربـــى عـــلى البلغـــاء
قـــد جـــاء شـــعرك يـــشفي قاريـــه مـــن كـــل داء
كـــالقرب بعـــد بعـــاد والوصـــل بعـــد جفـــاء
وأنـــت للـــنفس أشـــهى مـــن الغنـــى والبقـــاء

كان بنو الرسي يكاتبون الأمير تميم بالشعر كلما بعد عنهم، وكانوا يكاتبونه يستهدونه بعض الطرائف أو يدعونه إلى الشراب، ويصرح الأمير تميم في إحدى قصائده إلى الحسين بن إبراهيم الرسي أن الإخاء بينهما قوي وثيق؛ لأنهما متفرعان من أسرةٍ واحدةٍ:

ولـــيس الإخـــاء الـــذي بيننـــا ببـــدع إذا مـــا اســـتوى وانعقـــد
لأنـــا إلى والـــد واحـــد تفرعنـــا حـــين نـــدعى وجـــد

وكان إذا تأخر الرسي عن مكاتبته يرتاع الأمير ويسأل عن سبب هذا الانقطاع ويرسل إليه يعاتبه؛ من ذلك قول تميم من قصيدة طويلة:

أبـــا عبـــد الإله ووجـــه ودى مـــزال عـــن أسرتـــه القنـــاع
عـــلام وأنـــت فـــيما صـــح عنـــدي صـــديق مـــا لخلتـــه انـــصداع
تـــأخرت الرســـائل منـــك عنـــي وأبطـــت عـــن تعاهـــدي الرقـــاع
أســـهوًا يـــا ابـــن إبـــراهيم عنـــي فأســـهو أم أعاتـــب أم أراع
ومثلـــك لا يبيـــع أخـــا بـــبخس عـــلى حـــال ومـــثلي لا يبـــاع
ولـــسنا نلتقـــي لقيـــا اجـــتماع فيغنينـــا عـــن الكتـــب اجـــتماع
ولكـــن تعـــرب الأقـــلام عنـــا إذا افترقـــت بشخـــصينا البقـــاع
وأكثـــر حظنـــا في البعـــد أنـــا أمنـــا أن يروعنـــا الـــوداع

فأجابه الرسي بقصيدة منها:

عـــدلت عـــن المقـــال إلى الـــسماع يـضيق عـن الجـواب مـدى ذراعـي

أميري ظلت في نعم جسام ... رتاع أو شبيهات الرتاع
أعهدي كالسراب لدى الموالي ... وقطر مودتي حلف انقشاع
عتبت علي يا ترب المعالي ... لتأخيري موالات الرقاع
وعادتك التي سلفت إلينا ... ستنسبني إلى حسن الطباع

ابن وكيع التنيسي:

أمَّا هذا الشاعر الماجن فهو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد المعروف بابن وكيع التنيسي؛ أصله من بغداد ومولده بتنيس، وذكره الثعالبي في اليتيمة وقال في حقه: شاعرٌ بارع وعالم جامع قد برع على أهل زمانه، فلم يتقدمه أحدٌ في أوانه، وله كل بديعة تسحر الأوهام وتستعبد الأفهام. ويضيف ابن خلكان إلى ما رواه عن الثعالبي أن لابن وكيع ديوان شعر جيد، وكتابًا بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبي سماه «المنصف» ولم يعرف عن ابن وكيع أنه اتصل بأمير أو أنه تكسب بشعره، وكل شعره الذي وصلنا في وصف الطبيعة وفي المجون، فمن قوله في المجون والطبيعة معًا:

جانبت بعدك عفتي ووقاري ... وخلعت في طرق المجون عذاري
ورأيت إيثار الصبابة في الذي ... تهوى النفوس ممحق الأعمار
لا تأمرني بالتستر في الهوى ... فالعيش أجمع في ركوب العار
إن التوقر للحياة مكدر ... للعيش فهو تهتك الأستار
من تابعت أمر المروءة نفسه ... فنيت من الحسرات والأفكار
لا تكثرن على أن أخ الحجا ... برم بقرب الصاحب المهذار
خوفتني بالنار جهدك دائبًا ... ولججت في الإرهاب والإنذار
خوفي كخوفك غير أني واثق ... بجميل عفو الواحد القهار
أقررت أني مذنب، ومحرم ... تعذيب ذي جرم على الإقرار
انظر إلى زهر الربيع وما جلت ... فيه عليك طرائف الأنوار

أبدت لنا الأمطار فيه بدائعًا ... شهدت بحكمة منزل الأمطار
ما شئت للأزهار في صحرائه ... من درهم بهج ومن دينار
وجواهر لولا تغير حسنها ... جلت عن الأثمان والأخطار
من أبيض يقق وأصفر فاقع ... مثل الشموس قرن بالأقمار
ناحت لنا الأطيار فيه فأرهجت ... عرس السرور ومأتم الأطيار
دار لو اتصل البقاء لأهلها ... لم يحفلوا بنعيم تلك الدار
فانهض بنا نحو السرور فإنه ... ما زال يسكن حانة الخمار
فاشرب معتقة كأن نسيمها ... مسك تضوعه يد العطار
أخفى دبيبًا في مفاصل شربها ... وأدق إلطافًا من المقدار
أحكامها في العقل إن هي حكمت ... أحكام صرف الدهر في الأحرار
يرضى على الأقدار شاربها الذي ... ما زال ذا سخط على الأقدار
وكأنها والكأس ساطعة بها ... ذوب تحلل في عقيق جاري
لا سيما من كف أغيد شادن ... يسبي العقول بطرفه السحار
فضل الغصون لأنها من غرسنا ... عند التأمل وهو غرس الباري
قد غيب الزنار دقة خصره ... حتى ظنناه بلا زنار
متنصر قويت على أسلامنا ... بالحسن منه حجة الكفار
قالوا: أيصنع مثل هذا ربكم ... ويرى فساد صنيعه بالنار
مع مسمع حلفت له أوتاره ... ألا تنافر رنة المزمار
فطن يحرك كل عضو ساكن ... تحريكه لسواكن الأوتار
شدو إذا الحلماء زار حلومهم ... باعوا بطيب السخف كل وقار
والشدو أحسنه الذي لم يستمع ... إلا أطار العقل كل مطار
ذا العيش لا نعت المهامه والفلا ... وسؤال رسم الدار والأحجار
لا فرج الرحمن كربة جاهل ... يبكي على الأطلال والآثار

فالشاعر هنا يتهكم بالأديان أيضًا؛ ولكنه في الوقت نفسه يظهر قدرة الرحمن في وصفه لأزهار الطبيعة، وينعى على الناس أنهم لم يأبهوا بالطبيعة ومناظرها البهيجة، ويختم شعره بأن الحياة هي في المجون، والتمتع بالرياض، وليس في وصف صحراء وما فيها من رسوم وأطلال، بل يلعن هؤلاء الذي يكتفون بالبكاء على الأطلال والآثار. فنحن أمام شاعر يختلف عن شعراء المجون الذي رأيناهم من قبل؛ لأن المجون عند ابن وكيع مذهب في الحياة، فهو ليس بحمق أبي الرقعمق ولا فسق تميم وجماعة صالح بن رشدين، إنما ابن وكيع يمتاز بهذا اللون من فلسفة خاصة في الحياة، فهو يدعو إلى الفجور، ولكن في الوقت نفسه يتأمل الطبيعة ويفكر فيها طويلًا. وقد يستهويه جمالها فتمتلئ بها نفسه، فيخلع عليها هذه الصفات، ويصورها بهذه الصورة الملونة؛ فيزداد سرورًا، فإذا به يدعو إلى الشراب فيصف الخمر ودبيبها في المفاصل وسلطانها على شاربها، ويصف الساقي وجماله ومجلس الغناء والموسيقى. تحدث عن كل ذلك في صور متلاحقة متتابعة، وهذه هي الحياة عنده.

وفي قصيدة أخرى يحبذ هذه الحياة التي اختارها لنفسه، ودعا إليها فهو يقول:

علل فؤادك، والدنيا أعاليل ... لا يشغلنك عن اللهو الأباطيل
ولا يصدنك عن أمر هممت به ... من العواذل لا قال ولا قيل
فخير يوميك يوم أنت فيه إذا ... ميزت في الناس محمود ومعزول
وإن أتوك فقالوا كن خليفتنا ... فقل لهم: إنني عن ذاك مشغول
فإن ذلك أمر مع نفاسته ... ونبله بفناء العمر موصول
وارض الخمول فلا يحظى بلذته ... إلا امرؤ خامل في الناس مجهول
ولا تبع عاجل الدنيا بآجل ما ... ترجو، فذلك أمر شأنه الطول
واسفك دم القهوة الصهباء تحيا به ... روحي فإن دم الصهباء مطلول

يا خائف الإثم فيها حين يشربها ... لا تقنطن فعفو الله مأمول
قم فاسقني النض مما حرموه ولا ... تعرض لما كثرت فيه الأقاويل
من قهوة عتقت في دنها حقبًا ... كأنها في سواد الليل قنديل
عروس كرم أنت تختال في حلل ... صفر على رأسها للمزج إكليل
كأنها بأكف القوم إذ جلبت ... ذوب من الذهب الإبريز محلول
في فتية جعلوا للهو طاعتهم ... فما لهم عن طريق اللهو معدول
جليسهم ليس يروى من حديثهم ... يومًا وبعض حديث القوم مملول
لا كالذين إذا ما كانت حاضرهم ... ففي سكوتهم المأمول والسول
ترى مجالسهم مملوءة لجبًا ... وكل ذاك فضول عنك معزول[1]

وعلى هذا النحو يسير الشاعر في وصف حياته التي اختارها لنفسه. ولعل قصيدته المربعة التي وردت في اليتيمة تدلنا على أن الشاعر كان ماجنًا خليعًا، وقد شهد على نفسه بأنه «شيخ الملاهي والغزل» وذلك بقوله في ختام قصيدته المزدوجة التي أنشدها في وصف فصول السنة:

دونك هذي صفة الزمان ... مشروحة في أحسن التبيان
فأصغ نحو شرحها كي تسمعا ... ولا تكن لحقها مضيعا
وارض بتقليدي فيما قلته ... فإنني أدرى بما وصفته
ولا تعارضني في هذا العمل ... فإنني شيخ الملاهي والغزل

الشريف العقيلي: شاعر الطبيعة والخمر:

أمَّا الشاعر الذي خلف ابن وكيع التنيسي في وصف الطبيعة والخمر معًا، فهو الشريف أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة العقيلي؛ من ولد عقيل بن أبي طالب من رجال النصف الأول من القرن الخامس الهجري، فهو شاعر

(١) اليتيمة: ج١، ص٢٩٤.

حَبَاه الله بسطة في الرزق، فلم يكلف نفسه مشقة الوقوف على أبواب الأمراء والخلفاء يستجدي عطاءهم، ولم يشتغل بخدمة سلطان، ووهبه الله دقة حس ورقة شعور، فأولع بجمال الطبيعة، وجرى على لسانه شعر رقيق هو ذلك الشعر الذي يصدر عن عاطفة قوية وإحساس عميق. وقد أكثر من تنسيق متنزهاته بجيزة الفسطاط، ولا أشك في أنها كانت آية من آيات عبقريته المحبة للفن والجمال، كان يزور هذه المتنزهات ويمتع ناظريه بما حوته من أزهار وجداول مياه، ويشرف على هذه المناظر الممتعة، ويصف مجلسه هذا بشعر جُمع في ديوان لم يقدر له أن يصل إلينا؛ ولكن صاحب المغرب أخذ من ديوان ابن حيدرة العقيلي عدة مقطوعات وقال عن ذلك: «ثم وقع لي ديوان شعره، فنقلت منه ما يشهد بعلو قدره، وهو من أئمة المشبهين». فمن قول ابن حيدرة:

ألا رب خمار طرقت فناءه ... وزهر الدياجي مثل در مبدد
فقام وقد أقلقته من منامه ... إلى الباب يمشي كالأسير المقيد
ينادي: من الساري إلي ومزعجي ... فقلت: جواد ذو محل وسؤدد
حسام على الأعداء ماض غراره ... وملك لدى ذي الخلة المتودد
أتيتك أطوى الأرض شرقاً ومغربًا ... على ضامر الأحشاء كالبرق أجرد
فقال: وما تبغي؟ فقلت: مدامة ... تشتت شمل الهم عين كل مكمد
فقال: نعم عند سلافة كرمة ... كوجنة معشوق الشمائل أغيد
وأبرزها عذراء أحلى من المنى ... كشمس الضحى أو كاللظى المتوقد
إذا مزجت أبدت حبابًا كأنه ... من الدر طوق في غلالة عسجد
فسرت بها وهي الحياة لروضة ... تروح عليها الغاديات وتغتدي
كأن البهار الغض فيها مداهن ... من التبر صيغت في غصون زبرجد
كأن انتشار القطر والزهر زاهر ... على الورد دمع فوق خد مورد
وأطيارها تغني النديم إذا شدت ... على الأيك عن شدو الغريض ومعبد
ونرجسها بين الشقائق شاخص ... يردد لحظ المستهام المسهد

فما زلت بالإبريق أقبض روحها ... من الدن ما بين الربا بتمدد
وأشربها حتى انثنيت مجدلًا ... صريعًا على شدو الحمام المغرد
أنا ذاك أعطي اللهو ما عشت مقودي ... وأعدل عن تفنيد كل مفند

وقوله من قصيدة أخرى:

وخمار دخلت عليه وهنا ... وجنح الليل مسود الجناح
على هوجاء تنشر في الفيافي ... لغامًا في الغدو وفي الصباح
إذا وخدت تخال الريح تحتي ... وإن كانت أخف من الرياح
فقال: من الفتى؟ فأجبت: ضيف ... تسربل بالمكارم والسماح
فقال: وما تريد فدتك روحي ... فقلت له: أرح روحي براح
فقام إلى دنان مترعات ... معممة بكافور رباحي
وفض ختام أقدمها فلاحت ... على الظلماء أنوار الصباح
وأبرز منه في الإبريق راحًا ... ألذ إلى الأسير من السراح
كأن حبابها طل تبدى ... على ورد جنى في أقاح
وجاء بأهيف عذب الثنايا ... دقيق الخصر غرثان الوشاح
تراه يتيه من أدب وظرف ... ومن تيه على الغيد الملاح
يقول إذا رآه كل لاح: ... محبك ما عليه من جناح
هي الأيام تندرج اندراجًا ... وصرف الدهر ذو وجه وقاح
فصِل قصفًا بقصف واغتباقًا ... بأفراح، ولهوًا باصطباح[1]

ففي هاتين المقطوعتين من شعر ابن حيدرة العقيلي نستطيع أن ندرك أن الشاعر كان يجمع بين وصف الطبيعة ووصف الشراب، ويأخذ من الطبيعة التي أحبها وهام بها صورًا يصور بها حباب الخمر في الكئوس، فهو في كل

(١) المغرب: ص٦٠.

شعره الذي انتهى إلينا لا يصف الطبيعة دون أن يتحدث عن الخمر، ولا يتحدث عن الخمر إلا إذا تحدث عن الطبيعة، فهو يقول:

الروض في ديباجة خضراء ... والجو في فرجية دكناء
والأرض قد نظم الربيع لجيدها ... عقدًا من الصفراء والحمراء
والراح ينثر من مذاب عقيقها ... درر الفواقع جوهري الماء
فاقصد رضى رضوانها بالشرب إن ... أحببت سكنى جنة السراء[1]

وقد كان شعر هذا الشاعر سببًا في أن يتهم المستنصر بالله الفاطمي بالمجانة والفسق؛ فقد روى المقريزي أنه كان من عادة الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر في كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة -وهو موضع نزهة- بهيئة أنه خارج إلى الحج على سبيل اللعب والمجانة، وربما حمل معه الخمر في الروايا عوضًا عن الماء ويسقيه من معه، وأنشده مرة الشريف ابن حيدرة العقيلي في يوم عرفات:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ... ولا تضح ضحى إلا بصهباء
أدرك حجيج الندامى قبل نعزهم ... إلي من قصفهم مع كل هيفاء
وعج على مكة الروحاء مبتكرًا ... فطف بها حول ركن العود والناء

ويضيف المقريزي نقلًا عن ابن دحية: فخرج في ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهي وتساق، حتى أناخ بعين شمس في كبكبة من الفساق، فأقام بها سوق الفسوق على ساق، وفي ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين[2].

(١) المصدر نفسه: ص٥٢.
(٢) الخطط: ج٢، ص٣٨٣.

ولعل القصة وضعت على هذا النحو للطعن على الفاطميين؛ فلم نعرف عن المستنصر أنه كان ماجنًا فاسقًا، ولم نعرف أن الشريف ابن حيدرة اتصل بإمام من أئمة الفاطميين، وقد تكون القصة أن المستنصر كان يخرج إلى جب عميرة في عيد الأضحى بقصد النزهة، واتفق أن سمع ابن دحية بهذا الخبر وسمع أبيات ابن حيدرة السابقة، فنسج خياله قصة لهو المستنصر وخروجه على هذا النحو الذي وصفه استهزاء بالحج، ولكن تعصب المؤرخين ضد الفاطميين جعلهم يبدعون في حياكة مثل هذه القصص عنهم، وهكذا كان شعر ابن حيدرة سببًا في هذه القصة.

وكان ابن حيدرة شاعرًا يحب الدعابة ويجيد الفكاهة، وله عدة مقطوعات منها قوله يداعب من خضب شيبه:

يا من يدلس شيبه بخضابه ... إن المدلس لا يزال مريبا
هب ياسمين الشيب عاد بنفسجًا ... أيعود عرجون القوام قضيبا[1]

وقال مرة أخرى:

قد هجونا وكان غير صواب ... ورمينا بعنبر في تراب
وظلمنا الحسام وهو صقيل ... إذ جعلناه في أخس قراب
يا لها غلطة، وإلا فماذا ... ينفع الباز صيده للغراب

وقال:

سألت أبا يوسف حاجة ... فقال: أجيء بها في غد
فقد سلط السل من مطله ... فأضنى به جسد الموعد

وبجانب شعره في المجون والدعابة والطبيعة نرى لابن حيدرة شعرًا في الفخر بنسبه إلى آل أبي طالب، فهو يقول:

---

(١) المغرب: ص٥٥.

من عندنا أتت الحكم ... وبنا تأدبت الأمم
ولنا نوال هاطل ... ينهل من سحب الهمم
قوم إذا استرفدتهم ... تركوك من أهل النعم[1]

ويقول مرة أخرى:

نحن الذين غدت رحا أحسابهم ... ولها على قطب الفخار مدار
قوم لغصن نداهم من رفدهم ... ورق ومن معروفهم أثمار
من كل وضاح الجبين كأنه ... روض خلائقه له أزهار[2]

كان ابن حيدرة يمتاز بناحية خاصة في فنه الشعري هي تلك الناحية التي أشار إليها صاحب المغرب وقال: «إنه كان من أئمة المشبهين»، وكأن صاحب المغرب أراد أن الشاعر كان من المكثرين من الزينة اللفظية والبيانية في شعره، ولعل هذه الأبيات القليلة التي رويناها له تدلنا على صدق ما ذهب إليه ابن سعيد.

القليوبي الكاتب:

وممن يجري في حلبة ابن وكيع التنيسي وابن حيدرة العقيلي وغيرهما من شعراء المجون والطبيعة شاعر كان يكتب في ديوان العزيز بالله الفاطمي والحاكم، وتوفي أيام الظاهر، ويروي ابن شاكر عن ابن سعيد أن ابن الزبير وصفه بالإجادة في التشبيهات، وأنه غلا في ذلك فقال: إن أنصف لم يفضل عليه ابن المعتز. ذلك الشاعر الكاتب هو علي بن محمد بن أحمد بن حبيب القليوبي الكاتب. قيل: إنه كان أحد الشعراء الذين مدحوا الأئمة والقواد

(١) المغرب: ص٧٨.
(٢) المغرب: ص٦٩.

والكتاب، ولكن مدائحه ضاعت ولم يبق منها شيء، بل قل: إن شعره كله فُقد ولم يبق منه إلا عدة أبيات؛ منها قوله:

وصافية بات الغلام يديرها ... على الشرب في جنح من الليل أدعج
كأن حباب الماء في وجناتها ... فرائد در في عقيق مدرج
ولا ضوء إلا من هلال كأنما ... تفرق منه الغيم عن نصف دملج
وقد حال دون المشتري من شعاعه ... وميض كمثل الزئبق المترجرج
كأن الثريا في أواخر ليلها ... تحية ورد فوق زهر بنفسج

ولست أدري ما الذي حدا بهذا الشاعر إلى أن يذكر أسماء الكواكب ويتحدث عن النجوم، وذلك في كل المقطوعات التي بقيت لنا من شعره، ولعل الشاعر كان من المشتغلين بالأرصاد في عصر اهتمت الدولة بها، فالشاعر يقول مثلًا:

نجمت نجوم الزهر إلا أنها ... في روضة فلكية الأنوار
وكأنما الجوزاء منها شارب ... وكأنما المريخ كأس عقار

ويقول من قصيدة أخرى:

وصفراء من ماء الكروم كأنما ... دجى الليل منها في إزار معصفر
كأن حباب الماء في وجناتها ... من الدم إكليل لتاج مزعفر
قطعت بها ليلًا كأن نجومه ... إذا اعترضتها العين نيران عسكر
تراها بآفاق السماء كأنما ... مطالعها منها معادن جوهر
ومنطقة الجوزاء تبدو كأنها ... وسائط در في قلائد عنبر
وبانت بعيني الثريا كأنما ... على الأفق منها غصن ورد منور
فبت أراعي الفجر حتى تشمرت ... ذيول الدجى عن مائه المتفجر[1]

(١) فوات الوفيات: ص٧٠.

قتيل الغواني:

ولقب أيضًا بصريع الدلاء، ونبز بذي الرقاعتين، ويسميه ابن خلكان بأبي حسن علي بن عبد الواحد الفقيه البغدادي، وسماه مرة أخرى بأبي الحسن محمد بن عبد الواحد القصار البصري، ولم يحقق أحد الاسمين، واكتفى بقوله: «والله أعلم»[1]. أمَّا ابن شاكر فاكتفى في ذكر اسمه بأن قال: محمد بن عبد الواحد الملقب بصريع الدلاء وقتيل الغواني. ويرى السيوطي أنَّ اسمه علي بن عبد الواحد، ويخيل إليَّ أن اسمه محمد بن عبد الواحد؛ لأن ابن خلكان ذكر أنه قرأ ذلك في نسخة ديوان شعره.

لم يكن هذا الشاعر مصريًّا ولكنه وفد على مصر سنة اثنتي عشرة وأربعمائة من الهجرة، ومدح الإمام الظاهر، وعرف بمجونه، وسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق في هزله ومجونه، ومن ذلك قصيدته التي عارض بها مقصورة ابن دريد، وفيه يقول:

من لم يرد أن تثقب نعاله ... يحملها في كفه إذا مشى
ومن أراد أن يصون رجله ... فلبسه خير له من الحفا
من دخلت في عينه مسلة ... فاسأله من ساعته عن العمى
من أكل الفحم تسود فمه ... وراح صحن خده مثل الدجا
من صفع الناس ولم يدعهم ... أن يصفعوه فعليهم اعتدى
من ناطح الكبش يفجر رأسه ... وسال عن مفرقه شبه الدما
من أكل الكرش ولم يغسله ... سال على شاربه ذاك الدوا
من طبخ الديك ولم يذبحه ... طار من القدر إلى حيث يشا
من شرب المسهل في فعل الدوا ... أطال تردادًا إلى بيت الخلا
من مازح السبع ولم يعرفه ... مازحه السبع مزاحًا بجفا

(١) ابن خلكان: ج١، ص٣٥٩.

وألف حمل من متاع تستر ... أنفع للمسكين من لقط النوى
والدرج يلفى بالنشا ملصقًا ... والسرج لا يلزق إلا بالغرا
والذقن شعر في الوجوه نابت ... وإنما الاست التي تحت الخصا
من فاته العلم وأخطاه الغنى ... فذاك والكلب على حد سوا
فاستمعوها فهي أولى لكم ... من زخرف القول ومن طول المرا

وقال في آخرها مشيرًا إلى ابن دريد:

فتلك كالدر يضيء لونها ... وهذه في وزنها مثل الحذا[1]

وهذا الشاعر هو الذي أشار إليه أبو العلاء المعري في قوله:

دعيت بضارع فتداركته ... مبالغة فرد إلى فعيل[2]

ولكن هذا الشاعر لم يمكث طويلًا في مصر؛ إذ توفي في السنة التي وفد فيها.

وفي القرن السادس نرى عددًا كبيرًا من شعراء الفكاهة والمجون خلعوا على أنفسهم ألقابًا فكاهية؛ فالشاعر يحيى بن علي الكتبي نبز «بالوضيع»، وهو صاحب الأبيات التي يفخر فيها بنسبته إلى مذهب أبي نواس في المجون:

أنا نائب الشرع النواسي ... دعني وباطيتي وكاسي
أهوى الغزالة كاعبًا ... وأهيم بالظبي الخماسي
من كل معتدل رشيق القـ ... ـد ممشوق خلاسي
متعكرش فإذا اختبر ... ت وجدت منحل الأساس
لكن لإفلاسي جبب ... ت السامري بلا مساس
لي منزل لا شيء فيـ ... ـه كأنه كيسي وراسي[1]

---

(١) فوات الوفيات: ج٢، ص٢٣٧.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص٣٥٩.

والشاعر الفقيه، ونبز «بالنسناس»، ومن شعره:

خلعت رداء التصابي المعارا ... وكان بفودي غراب فطارا
وكم خضت باللهو ليل الشباب ... إلى أن أراني المشيب النهارا
لئن كدر الشيب صفو الشباب ... وبات برغمي ديارًا ديارا
فلا بأس أن مد لج البعاد ... فإن لكل مسيل قرارا[٢]

والشاعر محمد بن إسماعيل وعرف «بالتاريخ»، ومن مجونه:

ألا فاسقياني ما تدير ثناياه ... وما أودعت من خمرها بابل فاه
ولا تنكرا سكري بغير مدامة ... فسيان عندي ريقه وحميّاه
إذا كان كاسي مترعًا من رضابه ... ونقلي ما تبدى من الورد خداه
كفاني ريحانًا وراحًا سلاف ما ... حوى ثغره أو أنبته عذاراه
غزال ينابيع المدامع ورده ... وروض القلوب المستهامة مرعاه
سل البان عنه هل إلى البان أصله ... فربي جدياه ودوياه رويّاه
فلله ما أشجى فؤادًا ملكته ... وأغراه بالبيض الحسان وأصباه[٣]

ومن شعره:

لاه بغانية وراح ... نداه لعاذلة ولاح
ما زال يشرب كأسه ... صرفًا على ضرب الملاح
ما بين زمزمة البنود ... وبين وسواس الوشاح
حتى مضى مسك الدجى ... وأنار كافور الصباح

(١) الخريدة: ورقة ١٠٥.
(٢) الخريدة: ورقة ١٠٦.
(٣) المصدر نفسه.

والشاعر الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي سعد، نبز «بالكاسات»، ووصفه ابن الزبير بقوله: «إنه كان خفيف الروح كثير المجون، يضحك بنوادره وسخفه المحزون». ولكن فُقد شعر هذا الشاعر الماجن، ولم يبق له سوى أبيات في المدح.

والقائد أبو طاهر إسماعيل بن محمد عرف «بابن مكنسة» وهو يُعد من فحول الشعراء في أواخر القرن الخامس، وشهد القرن السادس، وهو الشاعر الذي ذكرنا أن الأفضل هجره وأبعده لمدائحه في أبي المليح النصراني، وهو أحد الذين أشاد بذكرهم أمية بي أبي الصلت في رسالته المصرية. وكان ابن مكنسة في بعض هزله يذهب مذهب أبي الرقعمق في الحماقة والمجون؛ من ذلك قوله:

أنا الذي حدثكم ... عنه أبو الشمقمق
وقال عني إنني ... كنت نديم المتقي
وكنت كنت كنت كنـ ... ـت من رماة البندق
حتى متى أبقى كذا ... تيسًا طويل العنق
بلحية مسبلة ... وشارب محلق
يا ليتها قد حلقت ... من وجه شيخ خلق[1]

وفي مقطوعة أخرى يشكو كبره وضعفه:

عشت خمسين بل تز ... يد رقيعًا كما ترى
أحسب المقل بندقًا ... وكذا الملح سكرا
وأظن الطويل من ... كل شيء مدورا
قد كبر بر ببر ... ت وعقلي إلى ورا
عجبًا كيف كل ... شيء أراه تغيرا

(١) الخريدة: ورقة ١٩٣.

لا أرى البيض صار يؤ ... كل إلا مقشرا
وإذا دق بالحجا ... ر زجاج تكسرا[١]

وانظر إلى هذه المقطوعات في وصف منزله وضيقه:

لي بيت كأنه بيت شعر ... لابن حجاج[٢] من قصيد سخيف
سابقتني بنات وردان حتى ... أنا فيه كفأرة في كنيف
أين للعنكبوت بيت ضعيف ... مثله، وهو مثل عقلي الضعيف
وإذا هب فيه ريح السراويل ... فسلم على اللحى والأنوف
بقعة صد مطلع الشمس عنها ... فأنا مذ سكنتها في الكسوف
وهو لو كان من حجيجي ونسكي ... صدني بغضه عن التطويف[٣]

فابن مكنسة في هذه الأبيات يتحامق كأستاذه أبي الرقعمق، وذلك بجانب قصائده التي كان يجد فيها، فلا نجد أثرًا لهذه الحماقات وهذا الهزل وتلك الدعابة، فهو يقول مثلًا في إحدى مدائحه:

ملك بكفيه وأسيافه ... تقسم آجال وأرزاق
ذلت لنعماك نفوس كما ... ذلت لأسيافك أعناق

ويقول في إحدى مقطوعاته:

أقول ومجرى النيل بيني وبينكم ... ونار الأسى مشبوبة بضلوعي
تراكم علمتم أنني لو بكيتكم ... على النيل لاستغرقته بدموعي

وهكذا نرى الشاعر قد ضرب بسهم في جد الشعر وهزله.

---

(١) المصدر نفسه: ورقة ١٩٤.
(٢) يقصد الحسين بن الحجاج الشاعر العراقي الماجن.
(٣) الخريدة: ورقة ١٩٢.

ومن شعراء المجون في القرن السادس الشاعر أبو علي حسن بن إسماعيل المعروف «بالمكربل»؛ وكان شاعرًا هجاء، وصفه ابن الزبير بقوله: كان لسانه مقراض الأعراض، بلغ المائة من العمر، ولم يسمع له في المديح شعر إلا نزر يسير، ولا قبل من أحد جائزة، ولا امتد أمله إلى نيل رغبة[1]. ومقطوعاته كلها التي وصلت إلينا هي في الهجاء المقذع؛ فمن ذلك قوله في الشاعر ابن باقي الجزار، وكان في مقدمة الشعراء في عصره:

قالوا ابن باقي شاعر ... مقدم في الشعرا
قلت نعم قد قدمو ... ه عنهم إلى ورا
كأنما يمضغ في إنشا ... ده الشعر خرا

وقوله في ابن باقي الجزار أيضًا:

لا تظن أنني أهجوكا ... قد كفاني بأن يعيش أبوكا

وقوله في بعض علماء عصره:

فهل عندكم من مفخر أو فضيلة ... سوى طول أجسام وعرض كمام
طوال بلا طول، قصار عن العلى ... عجبت لنقص منهم وتمام

وقوله:

قولوا لمن يكرمني في السلام ... بهزة القامة لي والقيام
أشهى إلى النفس وأحلى من الـ ... ـقيام يا سيدي أن تنام

وعلى هذا النحو كان هجاء هذا الشاعر المنبوز بالمكربل، وقد وجد المكربل من الشعراء من يقف له ويهجوه، فالشاعر ابن قتادة المعدل المصري

(١) الخريدة: ورقة ١٩٨.

كان يضطر إلى الرد عليه، فكلما هجاه المكربل أجابه ابن قتادة، فمن قوله في المكربل:

ما نال خلق في الهجا ... ما ناله المكربل
كل الهجاء آخر ... وهو الهجاء الأول
لأنه يأخذ من ... عرضه ويعمل[1]

ومن شعراء المجون في آخر عصر الدولة الفاطمية الشاعر علي بن حسن بن إسماعيل، ففي إحدى مقطوعاته الماجنة يقول:

قم قبل تأذين النواقيس ... واجل علينا بنت قسيس
عروس دن لم يدع عتقها ... إلا شعاعًا غير ملموس
تجلى علينا باسمًا ثغرها ... فلا تقابلها بتعبيس
مذهبة اللون إذا صفقت ... مذهبة للهم والبوس
لا غرو ما تأتيه من ريبة ... لأنها عنصر إبليس
ليس لها عيب سوى أنها ... حسرة أقوام مفاليس
في روضة كانت أزاهيرها ... كأنها ريش الطواويس
فاغتنم اللذات في دولة ... صافية من كل تعكيس[2]

وقوله:

وليلة كاغتماض الطرف قصرها ... وصل الحبيب ولم تقصر عن الأمل
بتنا نجاذب أهداب الظلام بها ... كف الملام وذكر الصد والملل
وكلما رام نطقًا في معاتبتي ... سددت فاه بطيب اللثم والقبل
وبات بدر تمام الحسن معتنقي ... والشمس في فلك الكاسات لم تفل

(١) الخريدة: ورقة ١٠.
(٢) ورقة ١٣٥.

فبت منها أرى النار التي سجدت لها المجوس من الإبريق تسجد لي
راح إذا سفك الندمان من دمها ظلت تقهقه في الكاسات من جذل
فقل لمن لام فيها إنني كلف مغرى بها مثلما أغريت بالعذل[1]

ومن شعراء المجون أيضًا الشاعر أبو الغمر الإسناوي محمد بن علي الهاشمي المتوفى سنة ٥٤٧هـ، الذي وصفه العماد بقوله: أشعر وقت زمانه، وأفضل أقرانه. وروى له من شعره عدة مقطوعات تدل على رقة الشاعر وعذوبة شعره مع سهولة هذا الشعر؛ فمن ذلك قوله:

أيها اللائم في الحـ ـب لحاك الله حسبي
لست أعصي أبدًا في طاعة العذال قلبي

وقوله في غلام لبس في عاشوراء ثوبًا من الصوف:

أيا شادنًا قد لاح في زي ناسك فباح بمكنون الهوى كل ماسك
رويدك قد أدركت ما يعجز الظبا وأضرمت نيران الجوى المتدارك
أنحن فتكنا بابن بنت محمد فتثأر منا بالجفون الفواتك

وقوله -وقد أفحش في مجونه-:

بي شادن هو أدنى إلي مذ كان مني
فقد تعجلت قبل المـ ـمات جنة عدن
به تعففت عما يصـ ـم بالعذل أذني
لأنه صان عرضي عن أن ألوط وأزني
وزادني فيه حبًّا وصف يطابق فني
لم يتسع خرقه لي كلَّا ولا ضاق عني
فحلقة الظهر منه صيغت لإصبع بطني

(١) ورقة ١٣٦.

ومن قوله:

ألحاظكم تجرحنا في الحشا ... ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاحسبوا ذا بذا ... فما الذي أوجب جرح الصدود

ومن قوله:

أيا ليلة زار فيه الحبيب ... ولم يك ذا موعد ينتظر
وخاض إلى سواد الدجا ... فيا ليت كان سواد البصر
وطابت ولكن ذممنا بها ... على طيب رياه نشر الشجر
وبتنا من الوصل في حلة ... مطرزة بالتقى والخفر
وعقلي بها نهب سكر المدام ... وسكر الرضاب وسكر الحور
وقد أخجل البدر بدر الجبين ... وتاه على الليل ليل الشعر
وأعدى نحولي جسم الهوى ... وأعداه مني نسيم عطر
فمني معتبر العاشقين ... ومن حسن معناه إحدى العبر
ومن سقمي وسنا وجهه ... أريه السها ويريني القمر

وله مقطوعة يذم الزمان ويبرم بالناس حوله:

زمان يخلط في فعله ... كأن به سكرة العاشق
وخلق إذا ما تأملتهم ... جحدت بهم حكمة الخالق

وقد ذكرنا شيئًا عن دعابة ابن الصياد في أنف ابن الحباب حتى بلغت مقطوعاته ألف مقطوعة، ولم يرده عنه سوى تعرض ابن قادوس له، وذكرنا فكاهة الجليس في الطبيب، وها هو ذا ابن قادوس يداعب رجلًا كان يكبر كثيرًا في الصلاة، فيقول:

وفاتر النية عنينها ... مع كثرة الرعدة والهزه
يكبر سبعين في مرة ... كأنه صلى على حمزه

ويداعب آخر كان يلوم ابن قادوس على مجونه، فيجيبه بقوله:

ولائـــــم يلـــــومني يريـــــد منـــــي تـــــوبتي
يقـــول لي المـــوت غـــدًا فقلـــت هـــذا حجتـــي

وانظر إلى هذه الدعابة الطريفة من ابن شمول المقري:

تبـــسمت إذ رأتنـــي وشـــيب رأسي يحـــوم
فقلـــت شـــعري ليـــل والـــشيب فيـــه نجـــوم
فاستـــضحكت ثـــم قالـــت كـــما يقـــول الظلـــوم
يـــا ليتهـــا مـــن نجـــوم غطـــت عليهـــا الغيـــوم

ومما يروى أن الطبيب جرجيس الملقب كان بالفيلسوف، كان يزور فصولًا طبية فلسفية على الطبيب أبي الخير سلامة بن رحمون، وكان يبرز هذه الفصول في معارض ألفاظ القوم وهي لا معنى لها، ثم ينفذها إلى من يسأل أبا الخير عن معانيها ويستوضحه أغراضها، فيتكلم أبو الخير عليها ويشرحها دون تيقظ ولا تحفظ، فيوجد فيها عنه ما يضحك، ولذلك هجاه أحد الشعراء بقوله:

إن أبـــا الخـــير عـــلى جهلـــه يخـــف في كفتـــه الفاضـــل
عليلـــه المـــسكين مـــن شـــؤمه في بحـــر هلـــك مـــا لـــه ســـاحل
ثلاثـــة تـــدخل في دفعـــة طلعتـــه والـــنعش والغاســـل(١)

وللشاعر محمود بن ناصر الإسكندراني –وكان كاتب ابن حديد القاضي– يداعب طبيبًا:

صـــديقنا المـــستطب نـــادرة قـــد أخـــذت منـــه أعـــين النـــاس
أنيـــاب غـــول ومـــشفرا جمـــل ورأس بغـــل وذقـــن نـــسناس(٢)

---

(١) الخريدة: ورقة ١٢٩.

(٢) الخريدة: ورقة ١٢.

ونختم هذه الكلمة بقصيدة الشاعر رضي الدولة أبي سليمان داود بن مقدام، وكان أحد الشعراء الذين عُرفوا بالفكاهة وقال عنه ابن الزبير: إنه من أبناء الجند بأسفل مصر (أي بالوجه البحري) إلا أن همته سمت به من الأدب إلى دوحة يقصر عنها أمثاله، ولا يطمع فيها أضرابه وأشكاله، وعضده على ذلك جودة الطبع ونفاذ القريحة، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديهته ما لم يبلغ إليه كثير من أبناء عصره في الدأب على اقتناء الأدب. وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه، وجحدت حقوقه[1]، وفي هذه القصيدة التي نذكرها له يصف حالة ولاة الأقاليم والجند وما كانوا عليه من ظلم وفساد، ويصور حالة الرشوة التي كانوا يأخذونها من الناس وما كانوا يحبونه من الأسواق، فهي قصيدة تهكمية، ولكنها تصور حالة العصر أصدق تصوير، فهو يقول في الأمير ابن كازوك -وكان والي الغربية-:

أيها المخلص المسكين ومن كفـ ... ـاه في كل أزمة تكسفان
بان عنا أهل المحبة واعتضـ ... ـنا بأهل البغضاء والشنآن
نحن أشقى بختًا وأتعس حظًّا ... إذ قضانا بصفقة الخسران
إذ رعانا بأبغض الخلق مذ كا ... ن وكانوا لكل قاص ودان
رجل صيغ من حماشيب بالشر ... ة خلطًا والشؤم والخذلان
والرياء والبغاء والجهل والإفـ ... ـك وسوء الطباع والبهتان
ما ظننا من قبله أننا نلـ ... ـقى جميع السوءات في إنسان
يتلقاك كالحًا عابس الوجه ... بقلب خال من الإيمان
وله إخوة وأفعالهم في المـ ... ـا ل فعل الذئاب بالحملان
حر قلبي على مثولي بالبا ... ب وقولي لصاحب الديوان
أيها الألمعي أعوزك الرعيا ... ن حتى استرعيت بالذئبان

(١) الخريدة: ورقة ٩٩.

أي شيء غال الكفاة من الكتـ ـاب لولا عوائق الحرمان
صاحب الخيل والجواشن والبيـ ـض وبيض الطلى وسمر اللدان
ما له والنكول عن سفر الشـ ـام وصدم الأقران بالأقران
وطلاب المشارفات وتحقيـ ـيق بقايا العمال والخزان
ليس هذا إلا لأن الخراف الـ ـبيض في ريفنا بلا أثمان
والرحيق الذي عهدناه لا يـ ـباع إلا بالنقد أو بالرهان
تجتلي في الكئوس صرفًا مع المجان والمسمعات بالمجان
والإجابات للمآدب أشهى للفتى من إجابة الديوان
وطلاب الدليل بالرسم أو لي من طلاب البراز للفرسان
فاتركونا معاشر الجند واعنوا بدرور الأرزاق كل أوان
والولايات والحمايات والزم وأخذ الأجعال من كل خان
والمعاصير والسواقي وتسو يغ الضياع المسورات الحسان
وارتعوا في جزور ذي الدولة الها مي نداها في أطيب اللحمان
واشغلونا بما فيه يشغل الهر لنفع أو خيفة العدوان
بالطحال المسدود أو طرف الر ئة أو بالمعلاق والمصران
واغنموا هدية، كتهوية الـ ـركب، وقيتم بها من الحدثان

الفصل السادس

في الغزل

لا أكاد أعرف شاعرًا من شعراء مصر الفاطمية لم ينشد في الغزل، فجميع الشعراء الذين بلغنا شيء من شعرهم كانوا يتغزلون؛ سواء أكان هذا الغزل في المؤنث أم في المذكر، شأنهم في ذلك شأن شعراء العربية في الأقطار الأخرى، فكان شعراء المدح -الذين ألموا بالعقائد المذهبية في شعرهم- يتبعون سنة الشعراء الأقدمين في الابتداء بالغزل، ولما أراد العماد الأصبهاني أن يروي شيئًا من شعرهم، اكتفي بالمقدمات الغزلية التي افتتحوا بها قصائدهم، وأبى أن يروي شيئًا من مدح الأئمة.

وإذا نظرنا فيما بقي لنا من شعر الغزل في هذا العصر رأينا المصريين كانوا يرددون في أشعارهم هذه الصفات العديدة التي ردَّدها الشعراء من قبلُ في صفات المرأة، وما تمتاز به المعشوقة من فتنة ودلال وسحر، ولكن الشيء الذي يلفت نظرنا في هذه الأشعار الغزلية أن الصور التي صاغ فيها المصريون هذه الصفات اختلفت باختلاف الحياة المصرية والبيئة المصرية، انظر مثلًا إلى قول أبي الحسن التنيسي الملقب برضي الدولة:

راح من خمر الصبا مغتبقًا ... ثملًا، أحسن شيء خلقا
تفعل النشوة في أعطافه ... فِعْل عينيه بأرباب التقى
رشأ قد أقسمت ألحاظه ... ليريقنَّ دمًا عن عشقا
من عذيري من غزال كلما ... سئل الرحمة أبدى حنقا
ورأيت النرجس الغض وقد ... أخجل الورد بما قد أحدقا
ينهب الناهب من زهرته ... ويذود اللمس عمَّا بسقا

كـــم أناديـــه وذلي شـــافعي ... وفـــؤادي يتلظـــى حرقـــا
هكـذا يجـزى بكـم مـن عـشقا ... لاعجًـا يـسري وقلبًـا موبقـا[١]

فالمعاني التي جاء بها الشاعر في هذه المقطوعة، والتي قدَّم بها للمدح، ليست بجديدة في الشعر العربي؛ إنما الجديد في هذه الأبيات هي هذه الصور المختلفة التي صاغ فيها هذه المعاني القديمة.

وانظر إلى قول الشاعر ابن قتادة المعدل، وقد أتى بمعانٍ لم يطرقها القدماء في غزلهم:

نظـــري إليـــك يزيـــد في نظـــري ... فعـــلام تحجبنـــي عـــن النظـــر
يـا جملـة الحـسن التـي اقتـسمت ... منهـــا المحاســـن جملـــة البـــشر
لهـــواك بـــين جـــوانحي كتـــب ... قـــد عنونـــت بالـــدمع والـــسهر[٢]

فهذه المعاني التي ألمَّ به الشاعر في هذه الأبيات لم يطرقها -فيما أعرف- شاعر عربي من قبل، وإن كان القدماء قد أكثروا من ذكر الدمع والسهر، ولكن الشاعر المصري جعل لهوى المحبوب في نفسه كتبًا عنوانها الدمع والسهر.

ويتغزَّل الشاعر أبو الحسن علي بن الحسن بن معبد القرشي الإسكندري، فيقول في مقدمة إحدى قصائده:

ومهفهـــف طالـــت ذوائـــب فرعـــه ... كالليـل فـاض عـلى الـصباح المـسفر
قـصر الـدلال خطـاه فاعتلقـت بـه ... لي مهجـــة عـــن حبـــه لم تقتـــصر
وسـنان كحـل الـسحر حـشو جفونـه ... ففتورهـــا عـــن مهجتـــي لم يفـــتر
ملـك القلـوب بـدر سـمطى لؤلـؤ ... عـذب اللمـى في غـنج طـرف أحـور
وبوجنـــة رقـــم الجـــمال رياضـــها ... ببنفـــسج مـــن فـــوق ورد أحمـــر

(١) الخريدة: ورقة ٩.
(٢) الخريدة: ورقة ٢٩.

كتب العذار على صحيفة خده ... هذا بداية حيرة المتحير
وهبت محاسنه الكمال فأصبحت ... فتن العقول وروض غير المبصر[١]

ويقول مرة أخرى في مقدمة قصيدة أخرى:

وإني لأهوى رشأ ساحرًا ... أعار فتور العيون الظبا
إذا ما تثنى فغصن نقا ... وبدر جلا شعره غيهبا
وزانت محياه خيلانه ... كما يتبع الكوكب الكوكبا
وبي أسمر ناسبته القنا ... يروقك خدًّا جلا مذهبا
سقى روض خديه ماء الشباب ... ففتح زهرًا به معجبا
تقلد من لحظه صارمًا ... أسأل النفوس وما ذنبا
وملك من حسنه دولة ... لطاعتها كل قلب صبا[٢]

فهذه الصور المختلفة التي رسمها الشاعر في هذه الأبيات ليس بها هذه الصور التي رأيناها في شعر القدماء، ولكنها صور متحضرة، لا يذكر الشاعر جزءًا من أجزاء الجسم إلا ليصور أثره في نفسه، ويقرن بين هذه الصورة التي أتى بها وبين صورة أخرى أخذها الشاعر من الطبيعة التي حوله، والحياة التي يحياها؛ فالشاعر المصري في غزله لا يأتي بأجزاء الجسم ليصفها وصفًا واقعيًّا - إن صح هذا التعبير - إنما كان يتحدث دائمًا عن الناحية النفسية أكثر مما يتحدث عن الصفات الحسية، وهنا نرى فرقًا كبيرًا بين شعراء العرب القدماء وبين شعراء مصر الفاطمية، فالشاعر العربي كان ماديًّا في وصفه، والشاعر المصري كان عاطفيًّا؛ وإنما جاء هذا الخلاف من تحضر مصر الفاطمية، ورقي عاطفة المصريين برقي حياتهم.

---

(١) الخريدة: ورقة ١٣.
(٢) المصدر نفسه: ورقة ٢٨.

ناحية أخرى نراها فيما بقي لنا من شعر الغزل في مصر الفاطمية، تلك أن المصريين بدءوا يتركون الأوزان الطويلة، وينشدون غزلهم في أشعار إما مجزوءة وإما منهوكة، ويميلون إلى استخدام اللغة التي يصطنعها الشعب التي لا يزال أثرها باقيًا في مصر إلى اليوم. انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمري:

ملك الشوق مهجتي ... حبذا مَن تملكا
قد رماني بحبه ... ونهاني عن البكا
إنما راحة المحب ... إذا أن أوشكا
ما أرى السلو عنه ... وإن جاز مسلكا[1]

فهذا الشاعر الدقيق الحس، الرقيق الشعور، وصف حالة المحب المضني، وقد تملكه الشوق فلم يجد راحة إلا أنَّ واشتكى، بالرغم من أن المحب نهاه عن البكاء، فاتخذ هذا الوزن الخفيف، واصطنع هذه الألفاظ التي تكاد تكون من ألفاظ الشعب، فهذه المقطوعة وغيرها هي التي سنرى مثلًا لها بعد ذلك واضحة في شعر البهاء زهير، ثم انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمري أيضًا:

أنعموا لي بالوصال ... وارحموا رقة حالي
لا تذيبوا مهجتي بين ... ن التجني والدلال
ليس عذري في هواكم ... قد بدا لي قد بدا لي
إنما قصدي رضاكم ... قد حلا لي قد حلا لي
وإن اخترتم عذابي ... لا أبالي لا أبالي[2]

أليست هذه المقطوعة أقرب إلى لغة الشعب المصري منها إلى لغة الشعراء الذين عوَّدونا الجزالة في اللفظ مع حسن الديباجة، ولكن الشاعر هنا كان

(١) المصدر نفسه.
(٢) الخريدة: ورقة ٢٩.

شاعرًا مصريًّا قبل كل شيء، كان يتغزل، فاصطنع هذه الألفاظ السهلة والأوزان الخفيفة.

وليس معنى ذلك أن كل شعر الغزل على هذا النحو الذي رأيناه عند طلائع الآمري، فقد كان للمصريين لونان من شعر الغزل: اللون الأول الذي يختار فيه الشاعر ألفاظًا جزلة ووزنًا قويًّا طويلًا، أما اللون الآخر فهو الذي يترك الشاعر فيه نفسه على سجيتها بلا تصنُّع، فلا ينتقي الألفاظ الجزلة بل ينشد ما يجري به لسانه وما تمليه عاطفته. وقد رأينا طلائع الآمري في المقطوعة الأولى السابقة يميل إلى اللون الثاني من ألوان الغزل، ونراه مرة أخرى ينشد المعنى نفسه، ولكن في صياغة أخرى تختلف تمام الاختلاف عما رأيناه له، فهو يقول:

تريد الهوى صرفًا من الضر والبلوى ... لعمرك ما هذي قضية من يهوى
إذ لم يكن طرف المحب مسهدًا ... وأدمعه تجري، فهذي هي الدعوى
ولا حب إلا أن ترى كلفة الهوى ... ألذ من المن المنزل والسلوى
وحتى ترى القلب القريح من الهوى ... يمانعه الصبر الجميل من السلوى
رعى الله مَن أعطى المحبة حقها ... وإن لم يكن فيها من الأمر ما يقوى[1]

فالشاعر في هذه المقطوعة يختلف في غزله عمَّا جاء به في مقطوعته الأولى، فالشاعر حاولَ اللونين من شعر الغزل؛ على أن أكثر شعر الغزل الذي انتهى إلينا هو من اللون الخفيف الذي يقرب من أسلوب العامة، فالشاعر مروان بن عثمان اللكي تلمح في غزله أثر السهولة التي تتفق مع رقة الغزل وعاطفة الحب، حين يقول مثلًا:

ما بال قلبك يستلين ... أبه غرام أم جنون

(١) الخريدة: ورقة ٣٠.

بـــرح الخفـــاء بـــما يجـــن ... فأذهـــب الـــشك اليقـــين
حتـــى متـــى بـــين الجـــوا ... نـــح والـــضلوع هـــوى دفـــين
وإلى متـــى قلبـــي المتيـــ ... ـــم في يـــد البلـــوى رهـــين
يـــا مـــاطلي بـــديون قلـــ ... ـــبي آنَ أن تقـــضي الـــديون
شخـــصت لـــه فيـــك العيـــون ... وتقـــسمت فيـــك الظنـــون
وســـلبت ألبـــاب الـــورى ... بلـــواحظ فيهـــا فنـــون
وقـــوام أغـــصان الريـــا ... ض وأيـــن تـــدركك الغـــصون؟
الحـــسن في الأغـــصان فـــن ... وهـــو في هـــذا فنـــون
مـــن أيـــن للأغـــصان ذا ... ك الغـــنج والـــسحر المبـــين؟
أم ذلـــك الـــورد الجنـــي ... بخـــده والياســـمين؟[1]

ثم اقرأ هذه المقطوعة الأخرى من غزل ابن عثمان اللكي التي تظهر فيها عاطفة الشاعر في أسلوب أهل مصر الآن، ولا سيما في البيت الثالث:

تمكـن منـي الـسقم حتـى كـأنني ... تـوهم معنـى في خفـي سـؤال
ولـو سـامحت عيناه عيني في الكـرى ... لأشـكل مـن طيـف الخيـال خيـالي
سمحت بروحي وهي عندي عزيزة ... وجـدت بـدمعي وهـو عنـدي غـالي
وقـد خفـت أن تقـضي عـلى منيتـي ... ولم أقـض أوطـاري بيـوم وصـال
وهـون مـا ألقـى مـن الوجـد أنـه ... صـدود دلال لا صـدود مـلال[2]

وها هو ذا الشاعر أحمد بن محمد المادرائي يتغزل:

يـا حبيـب العمـر عطفًـا فـإني ... بهـواكم عـلى لظـى أتقـلى
إن وصـلتم، وصـلتم مـستهامًا ... عـن هـواكم وحـبكم مـا تخـلَّى
هـو عبـد الهـوى ولـيس بباغي ... عتقـه في هـوى ولـو مـات قـتلا[1]

(١) الخريدة: ورقة ١٢٩.
(٢) الخريدة: ورقة ٧١.

ويقول الشاعر إبراهيم بن إسماعيل الدمياطي:

يا هذه، رقي على صبٍّ دنف ... صيره الهجر إلى حد التلف
رقي عليه، وصلي حباله ... فإنه عن حبكم لا ينصرف[٢]

وبالرغم من أن الشاعر أبا محمد هبة الله بن عرام كان من إقليم أسوان، فإن غزله كان متأثرًا بالحياة اللينة التي عُرفت بها مصر، ولا سيما أنه وفد على القاهرة، ومدح بها الوزير رضوان وغيره من رجال الدولة، فأسهم مع غيره من شعراء مصر في التغزل في الأوزان السهلة الخفيفة والألفاظ والصور الشعبية، فهو الذي يقول:

من معيني على اقتناص غزال ... نافر عن حبائلي رواغ
قلبه قسوة كجلمود صخر ... خده رقة كزهر الباغ
كلما رمت أن أقبِّل فاه ... لدغتني عقارب الأصداغ

وقوله أيضًا:

لدغتني عقارب الصدغ منه ... فسلوه من ريقه دریاقا
إنني عاشق له، وهو مذ كا ... ن ظلوم لا يرحم العشاقا[٣]

وقوله:

يا لائمي في غزال ... قلبي رهين يديه
لا تطمعن في سلوى ... فلا سبيل إليه
كم لامني فيه قوم ... وعنفوني عليه
حتى إذا أبصروه ... خروا سجودًا لديه

(١) الخريدة: ورقة ٢٥.
(٢) الخريدة: ورقة ٢٥.
(٣) الخريدة: ورقة ١٨١.

فـــاحفظ فـــؤادك فـــالمو ت في ظبـــا مقلتيـــه[١]

أضف إلى ذلك أن القدماء لاحظوا أن للمصريين بعض المعاني المبتكرة؛ من ذلك قول الأخفش في العذار:

وكـــأن العـــذار في حمـــرة الخـــد عـــلى حـــسن خـــدك المنعـــوت
صـــولجان مـــن الزمـــرد معطـــو ف عـــلى أكـــرة مـــن اليـــاقوت[٢]

ولكن العماد أخذ على الشاعر أنه ذكر «الخد» مرتين في البيت الأول، مع اعترافه بأن المعنى مبتكر لم يسبق الشاعر إليه.

وكذلك قال القدماء: إن قول أبي الغمر الإسناوي في العذار من المعاني المبتكرة:

وغـــزال خلعـــت قلبـــي عليـــه فهـــو بـــادٍ لأعـــين النظـــار
قـــد أرانـــا بنفـــسج الـــشعر بـــدرًا طالعًـــا مـــن منابـــت الجلنـــار
وقـــدت نـــار خـــده، فـــسواد الـــشـ ـــعر فيـــه دخـــان تلـــك النـــار[٣]

وقول أبي الغمر الإسناوي أيضًا:

وغـــزال أبـــدى لنـــا الله مـــن بـــسـ ـــتان خديـــه في الحيـــاة الجنانـــا
قـــد أرانـــا قـــدًّا وخـــدًّا وصـــدغًا وعـــذارًا ونـــاظرًا فتَّانَـــا
غـــصنًا يحمـــل البنفـــسج والنـــر جـــس والجلنـــار والريحانـــا[٤]

وقال القدماء أيضًا: إنَّ قول أبي إسحاق إبراهيم بن شعيب من المعاني المبتكرة في التغزل بغلام أسمر:

---

(١) الخريدة: ورقة ١٨١.
(٢) الخريدة: ورقة ١٣١.
(٣) الخريدة: ورقة ١٣٠.
(٤) المصدر نفسه.

يـــا ذا الـــذي ينفـــق أموالـــه ... في حـــب هـــذا الأســـمر الفـــائق
مـــا الـــذهب الـــصامت مـــستنكرًا ... ذهابـــه في الـــذهب النـــاطق[١]

وكذلك قول المهذب بن الزبير في غلام تغرغرت عند الوداع عيناه:

ومـــرنح الأعطـــاف تحـــسب أنـــه ... رمـــح، ولكـــن قـــد قلبـــي قـــده
إن قلـــت إن الوجـــه منـــه جنـــة ... أضـــحى يكـــذبني هنالـــك خـــده
ولـــئن ترقـــرق دمعـــه يـــوم النـــوى ... في الطـــرف منـــه ومـــا تنـــاثر عقـــده
فالـــسيف أقطـــع مـــا يكـــون إذا غـــدا ... متحـــيرًا في صـــفحتيه فرنـــده[٢]

وقول ابن الضيف الداعي في أمرد التحى:

كنـــت حيًّـــا في المـــدر حتـــى إذا ... عـــذرت جـــاء المـــمات والتعـــذير
مثـــل ســـطر العنـــوان يبـــدو وتطـــوى ... منـــه في بـــاطن الكتـــاب ســـطور[٣]

وقول الشاعر علم الدولة مقرب بن ماضي صاحب الواحات:

أهـــــــدى إلى معـــــــالي ... وردًا ولم يـــــــك وقتـــــــه
فـــــسألته عنـــــه فقـــــا ... ل مـــــن الخـــــدود قطفتـــــه
قبلتـــــــه وكـــــــأنني ... في خـــــــده قبلتـــــــه[٤]

ومن الطريف أن العماد الأصفهاني عندما أراد أن يروي شيئًا من شعر هذا الشاعر قال: «فمن شعره قوله وأنا أكبرها عندي»، ثم روى هذه المقطوعة السابقة، ولا أدرى ما الذي جعله يكبر هذه المقطوعة عنه. على حين أن ابن

(١) المصدر نفسه.
(٢) الخريدة: ورقة ٤٤.
(٣) المصدر نفسه ورقة ٥٧.
(٤) المصدر نفسه ورقة ١٠٥.

الزبير وصفه بقوله: «كان قمر الفواضل، كثير الفضائل، غمر النائل، مغناه مرمي ذوي الآداب من المصريين، ومترع المسترفدين منهم والمنتجعين».

وهكذا يستطيع الباحث أن يتتبع بعض المعاني المبتكرة في الغزل في الشعر المصري، وهي معان أخذت من الحياة المصرية التي بلغت شأوًا بعيدًا في التقدم في ألوان الحياة المختلفة.

ويقول القدماء: إن بعض مقطوعات الغزل كان يتغنى بها المصريون، ولا غرابة في ذلك، فإن مقطوعات الغناء عند أكثر الشعوب هي مقطوعات غزلية، وليست مصر بدعًا في ذلك، ولكن القدماء أرادوا أن يعطونا صورة مما كان يتغنى به في مصر الفاطمية، فلتتبع القدماء على هذا النحو، ونقدم عدة صور من مقطوعات الغزل التي كان يتغنى بها، فمن ذلك قول ظافر الحداد:

عتبت ولكنني لم أع ... وأين ملامك من مسمعي
وما قدر عتبك حتى يزيـ ... ـل غرامًا تمكن من أضلعي
وما دام لومك إلا وأنـ ... ـت تقدر أن جناني معي
مضى كي يودع سكانه ... غداة الفراق، فلم يرجع
فؤادي في غير ما أنت فيه ... فخذ في ملامته أو دع[1]

وقول الشريف أبي الحسن علي بن حيدرة العقيلي وفيه لحن من غنائه:

يا غزالًا رضابه سلسبيل ... هل لعذري إلى رضاك سبيل
فوحق الرسول ما قلت شيئًا ... من جميع الذي حكاه الرسول
ما أرى خلة يخل بها الحسـ ... ـن فماذا يقال أني أقول[2]

وقوله أيضًا -وفيه لحن من غناء غيره-:

---

(١) ٪.
(٢) ٪.

أعطافه فتنة الفتون ... وقده غصن الغصون
ظبي ظبا لحظ مقلتيه ... لها جفون من الجفون
يقود إن قاده الثني ... كل جنان إلى جنون
ما صد بعد الوصال إلا ... أجرى عيونًا من العيون

وقول ابن حيدرة العقيلي أيضًا، وفيه لحن من غنائه:

وعذول كان من قولي له ... لست أستحسن أجفو الحسنا
قال: لو كنت أنا أنت لما ... رضيت نفسي لجسمي بالضنا
قلت: دعني عنك واصنع ما تشا ... ما أنا أنت ولا أنت أنا[1]

فهذه بعض صور من مقطوعات الغناء من شعر مصر الفاطمية كما حدَّثنا عنها القدماء من رواة شعر مصر، وهي مقطوعات غزلية يظهر فيها لون من ألوان ذوق المصريين في المقطوعات الغنائية، والعاطفة التي كانت تثار عند سماع هذه المقطوعات.

ولم يشأ شعراء مصر أن يقفوا في غزلهم على تصوير مختلف مشاعرهم عند رؤية الحبيب، أو أن يتحدثوا عن جماله وصفاته، وما يفعله ذلك كله في نفوسهم، إنما صوَّروا من ناحية أخرى الشوق لرؤية المحبوب إذا بعد عن أنظارهم أو فارقهم إلى مكان آخر، فالحديث عن الفراق أخذ حيزًا كبيرًا من غزل شعراء مصر الفاطمية، وفي حديثهم عن الفراق نرى لوعة المحب الذي أضناه البعاد وخشينا عليه من الهلاك.

وها هو الشاعر علي بن المؤمل بن غسان ينشد:

فتنت بفاتن الحدق ... وزاد بهجره أرقي
إذا ناديت من جزع ... أخذت القلب في طلق

(١) المغرب: ص٨٠.

رويـــدك ســـوف تلقـــاني ... بـــلا قلـــب ولا رمـــق[١]

وأنشد ابن معبد الإسكندري:

يا حادي الركب رفقًا بالحبيب فقد ... طار الفؤاد وقلَّ الصبر والجَلَد
لعل حبي يرى ذلي فيرحمني ... بنظرة علها تشفي الذي أجد
يا ويح من ظعنت أحبابه وغدا ... مخلفًا بعدهم أكباده تقد[٢]

وقال محمد بن وهب:

ولما تنادوا بالرحيل رأيتني ... أكفكف دمع العين من كل جانب
وأسأل ربي أن تذم ركابهم ... عن السير حتى أشتفي بحبائبي
فلم تكُ إلا ساعة سار ركبهم ... وسار فؤادي بين تلك الركائب
فلم أَرَ يوم البَيْن أعظم حسرة ... وللبين عندي من كبار المصائب[٣]

وأنشد طلائع الآمري:

ما لقلبي من لوعة البين راق ... أتراني أحيا ليوم التلاق
عزمة لم تدع لجفني دمعًا ... لا ولا في الحشا مكان اشتياق
أطمعوني حتى إذا أسروني ... عذبوا مهجتي وشدوا وثاقي
واستلذوا الفراق حتى كأن لم ... يعلموا أنه مرير المذاق
في سبيل الهوى نفوس أقامت ... بعد وشك النوى على الميثاق[٤]

وقال طلائع أيضًا:

ما أودعوك مع الغرام وودعوا ... إلا ليتلف قلبك المشتاق

---

(١) الخريدة: ورقة ٩.
(٢) المصدر نفسه: ورقة ١٣.
(٣) الخريدة: ورقة ٢٤.
(٤) المصدر نفسه: ورقة ٢٨.

قـف فاسـتلم إثـر المطـي تعلُّـلًا إن لم يكـن لـك نحـوهن لحـاق
وتـنحَّ عـن دعـوى هـواك فإنـه إن لم تمـت يـوم الفـراق نفـاق[1]

وإذن فالغزل في شعر مصر الفاطمية صورة أخرى من صور الحياة المصرية والعاطفة المصرية التي سمت فبعدت عن المادية التي عرفناها عند الشعراء الأقدمين؛ وذلك لاختلاف بيئة مصر عن غيرها من الأقطار العربية.

(١) المصدر نفسه.

الفصل السابع

أغراض أخرى في الشعر

التصوف والزهد:

تحدَّثنا في الفصول السابقة عن بعض الأغراض التي قصد إليها الشعراء في مصر الفاطمية، ولكن هناك بعض أغراض أخرى لا تقل خطرًا في تصوير الحياة في مصر في ذلك العصر، عن هذه الأغراض التي تحدثنا عنها من قبلُ، فقد ذكرنا شيئًا عن هذه الحياة الماجنة التي طغت على مصر حتى خُيِّل لنا أن مصر لم تعرف إلا هذا اللون من ألوان العيش، ولكن المصريين كان لهم لون آخر بجانب هذه الحياة الماجنة اللاهية، وهذا اللون الآخر هو التفكير في العالم الآخر، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم عصورهم التاريخية إلى أن يهتموا بأمور الآخرة اهتمامهم بأمور الدنيا، فإذا المصري منذ عرفه التاريخ مضطر إلى أن يعيش لونين من الحياة يناقض أحدهما الآخر أشد التناقض، فهو يعبث في حياته ويمجن ويمزح ما شاء له العبث والمجون والمزاح، وهو في الوقت نفسه حريص على أن يفكِّر في آخرته فيتحدث عنها ويتذكرها، ويظهر استمساكه بالدين وفرائضه وآدابه، وقد رأينا تصوير الشعراء لحياة المجون، أمَّا الزهد أو التقشف فقد أكثر من الحديث عنه شعراء مصر أيضًا، حتى أن شعراء المجون أنفسهم كانوا ينشدون الشعر في الحث على الزهد، والتمسك بأهداب الدين، وطلب سعادة الآخرة، وها هو ذا الأمير تميم الذي عُرف بمجونه حتى حُرم ولاية إمامة الدعوة يقول في الزهد:

أفنيت دهرك تتقي ... فيه الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصي الـ ... ـر حمن فيما أنت راكب

لأمنت من نار الجحيم وفي الحياة من المعايب
إن لم تراقب مَن له حكم عليك، فمن تراقب؟[١]

ويقول مرة أخرى:

يا عجبًا للناس كيف اغتدوا في غفلة عمَّا وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على أخذ المعاصي ثبات
من شك في الله فذاك الذي أُصيب في تمييزه بالشتات
يحييهم بعد البلى مثل ما أخرجهم من عدم للحياة[٢]

فمثل هذه الأبيات لا تصدر من شاعر عُرِف عنه أنه من أشد الشعراء مجونًا وعبثًا؛ ولكن طبيعة مصر اضطرته إلى أن يتحدث عن الآخرة وعن الحياة بعد الموت.

وها هو ذا الشاعر ابن حيدرة العقيلي الذي ذكرنا أنه شاعر الخمر في العصر الفاطمي، وأحد شعراء المجون ينشد في الزهد ويدعو إلى التقى والورع:

قد لاح في فودك المشيب ورث من عمرك القشيب
فكن لداعي التقى مجيبًا من قبل تُدعَى فلا تجيب[٣]

ونرى القاضي المعروف بالأديب أبي النضر ينشد:

النفس أكرم موضعًا من أن تُدنَّس بالذنوب
ما لذة الدنيا لها ثمنًا وإن مُزجت بطيب
فاسبق إلى إعداد زا دك هجمة الأجل القريب

(١) ديوان الأمير تميم.
(٢) ديوان الأمير تميم.
(٣) المغرب: ص٥٥.

والحـقَ الإله عـلى التقـى   والخـوف مـزرور الجيـوب(١)

ويقول مرة أخرى يحث على الزهد وجهاد النفس:

جهـاد الـنفس مفـترض فخـذها   بـآداب القناعـة والزهـادة
فـإن جنحـت لـذلك واسـتجابت   وخالفـت الهـوى فهـو الإرادة
وإن جمحـت بهـا الـشهوات فـاكبح   شـكيمتها بمقمعـة العبـادة
عـساك تحلهـا درج المعـالي   وترفعهـا إلى رتـب الـسعادة(٢)

وهكذا نرى العاطفة الدينية تسير جنبًا إلى جنب مع عاطفة حب المجون، والشعر المصري مملوء بالعاطفتين معًا.

وقد ذكرنا في كتاب «أدب مصر الإسلامية» أنَّ مصر عرفت التصوف، ووجدت فرقة عُرفت بالصوفية كان لها أثر في الحياة السياسية في العصر العباسي، وقد استمر تيار الصوفية في العصر الفاطمي، وكان الأئمة الفاطميون يرعون هذه الفرقة. ويحدثنا المقريزي: أن الآمر الفاطمي جدد قصر القرافة، وعمل تحته مصطبة للصوفية، وكان يجلس في الطاق بأعلى القصر، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية، والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم، والشموع الكثيرة تزهر، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط، ومُدَّت لهم الأسمطة التي عليها كل نوع لذيذ ولون شهي من الأطعمة والحلوى، أصنافًا مصنفة. وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهري الواعظ، ومزق مرقعته، وفرقت على العادة خرقًا، وسأل الشيخ أبو إسحاق إبراهيم المعروف بالقارح المقري خرقة منها ووضعها على رأسه، فقال الخليفة الآمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة: يا شيخ أبا إسحاق. قال: لبيك يا مولانا. قال: أين خرقتي؟ فقال مجيبًا له في الحال: ها هي على رأسي يا أمير المؤمنين. فاستحسن الآمر ذلك، فأمر في

(١) الخريدة: ورقة ١٢٦.
(٢) الخريدة: ورقة ١٢٧.

الساعة فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية، ففُرِّقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة، ونثر عليهم متولي بيت المال من الطاق ألف دينار[١].

ووفد على مصر في هذا العصر سهل بن محمد بن الحسن الصوفي، حدث بالعراق ودمشق وصور، ثم توجه إلى مصر فظلَّ بها إلى أن توفي سنة ٤٤٤هـ، وكان أديبًا شاعرًا على طريقة الصوفية، ولكن شعره فُقِد، ولم يبق منه سوى قوله:

إذا كنت في دار يهينك أهلها ... ولم تك محبوبًا بها فتحول
وأيقن بأن الرزق يأتيك أينما ... تكون ولو في قعر بيت مقفل[٢]

وشاهد هذا العصر فرقة من فرق الصوفية عُرفت «بفرقة الكيزانية» نسبة إلى شيخها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المعروف بابن الكيزاني الفقيه الشافعي الواعظ، ذكره العماد في خريدته ووصفه بقوله: «فقيه واعظ مذكِّر، حسن العبارة، مليح الإشارة، لكلامه رقة وطلاوة، ولنظمه عذوبة وحلاوة، مصري الدار، عالم بالأصول والفروع، عالم بالمعقول والمشروع، مشهود له بألسنة القبول، مشهور بالتحقيق في علم الأصول، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث، ومعرفة بالقديم مكون الحديث؛ إلا أنه ابتدع مقالة ضلَّ بها اعتقاده، وزلَّ في مزلقها سداده، وادَّعَى أن أفعال العباد قديمة...». إلى أن قال: «أعاذنا الله من ضلة الحلم، وزلة العلم، وعلة الفهم. واعتقد أن التنزيه في التشبيه، عصم الله من ذلك كل أديب أريب ونبيل نبيه»[٣]. وتوفي ابن الكيزاني صاحب هذه الفرقة سنة ٥٦٠هـ، ودُفن عند قبر الإمام الشافعي.

---

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٣٧٩.
(٢) النجوم الزاهرة: ج٥، ص٥٣.
(٣) الخريدة: ورقة ٨٩ وما بعدها.

واستمرت تعاليم هذه الفرقة حتى عصر الأيوبيين؛ فقد ذكر العماد: «والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة»[١]. وظهور هذه الفرقة في مصر واشتهار أمرها على النحو الذي تحدث به العماد وابن سعيد في كتابه المغرب، يدلنا على مدى الضعف الذي طرأ على الدعوة الفاطمية في مصر، فإننا رأينا الفاطميين ينزهون الله عز وجل عن التشبيه أو التجسيم، وهذه العقيدة هي أساس عقيدة الفاطميين وفلسفتهم، ورأينا الدعاة يكفِّرون كل مَن دان بالتشبيه أو التجسيم، ولكن جاءت فرقة الكيزانية تحت سمع الفاطميين وبصرهم وقالت بالتشبيه، والتفَّ عدد من المصريين حول شيخ هذه الدعوة دون أن يعبئوا بسلطان الفاطميين وعقائدهم التي انتشرت في مصر زهاء قرنين.

كان ابن الكيزاني شاعرًا من شعراء الصوفية بمصر، ولكنه كان ضعيف الشعر، حتى قال عنه ابن سعيد: ووقفت على ديوانه، وهو مشهور عند الناس، قريب من أفهام العامة، غير مرضي عنه عند صدور الشعراء وأصحاب غوص الكلام وفرسان النظام، وقد ضجرت من اختياره ومطالعاته، ولم أكتب من ديوانه شيئًا تهش النفس إليه، وإنما أردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه، وكثيرًا ما يباع في سوق الفسطاط وسوق القاهرة؛ وكان من لا يعرف معاني الشعراء المستحسنة وألفاظه المستبدعة يحضني على الوقوف عليه، فلما وقفت عليه أنشدني متمثلًا: أنا المعيدي فاسمع بي ولا ترني[٢]. ولعل ابن سعيد كان على حق في أن يصف شعر ابن الكيزاني على هذا النحو، بالرغم مما ذهب إليه العماد الأصفهاني من الإعجاب بشعر ابن الكيزاني، فإن المقطوعات التي رُويت في الخريدة من شعر ابن الكيزاني تدل على أن الشاعر لم يكن من المتفوقين في

(١) المصدر نفسه.

(٢) المغرب: ص٩٣ وما بعدها.

الشعر، إذا قسناه بشعراء الصوفية الذين ظهروا بمصر في العصور التي تلت العصر الفاطمي، مثل ابن الفارض وغيره، أو الشعراء الآخرين الذين عاصروه، وربما كان سبب ضعف شعر ابن الكيزاني أنه كان واعظًا يخاطب الشعب والدهماء، فكان يضطر إلى اصطناع اللغة التي يفهمها الشعب، وتقرب إلى نفوسهم. فأثَّر ذلك في أسلوبه ولغته، فإذا بهما يقربان من الأسلوب الشعبي ولغة الشعب، وقد يكون هذا السبب هو الباعث الذي من أجله أقبل العامة في مصر على قراءة ديوان ابن الكيزاني.

وهو في بعض شعره واعظ أكثر منه متصوفًا، انظر إليه يقول:

إذا سمعت كثير المدح عن رجل ... فانظر بأي لسان ظل ممدوحا
فإن رأى ذاك أهل الفضل فارض لهم ... ما قيل فيه، وخذ بالقول تصحيحا
أو لا، فما مدح أهل الجهل رافعه ... وربما كان ذاك المدح مجروحا[1]

وهو في بعض شعره متصوف يتحدَّث عن العشق، ويجري في هذا الشعر مجرى شعراء الصوفية الذي نهجوا نهج رابعة العدوية في الحب الإلهي، فابن الكيزاني كان أحد هؤلاء المحبين العاشقين، وله في ذلك عدة مقطوعات؛ منها قوله:

سواء أن تلوما أو تريحا ... رأيت القلب لا يهوى نصيحا
أما لو ذقتما صرف الليالي ... إذن لعذرتما القلب القريحا
وكانت فرقة الأحباب ظنا ... فأصبح بينهم خبرًا صريحا
ولو لم ينزلوا سلمات نجد ... لما استنشقت بالسلمات ريحا
ولا أهديت للأسماع يومًا ... غناء من حمائمها فصيحا
وهأنا قد سمحت بدمع عيني ... وكنت بدمعها أبدًا شحيحا

(١) الخريدة: ورقة ٩٠.

وأمكنت المحبة من قيادي ... وصنت مع النأي ودًّا صحيحا
وقد سكن الجوى قلبًا صحيحًا ... وقد ترك الهوى صدرًا قبيحا[١]

وقوله أيضًا:

أسكان هذا الحي من آل مالك ... مسالمة ما بيننا وجميل
ألم تعدونا أن تزوروا تكرمًا ... فما بال ميعاد الوصال طويل
وحلتم عن الوعد الجميل ملالة ... وأنتم على نقض العهود نزول
وإنا لنستبقي المودة والهوى ... شهيد لنا إذ ليس عنه نزول
ولا تحسبوا العتبى عليكم توجعًا ... فيطمع واشٍ أو يلح عذول
رضينا، رضينا أن نبيع نفوسنا ... وما عاشق منا بذاك بخيل
كذاك الهوى، هذا حبيب معزز ... وهذا محب في هواه ذليل
ووجد وشوق وارتياع ولوعة ... وهجر وسقم دائم ونحول
دواعي الهوى محتومة فاصطبر لها ... وإن جار بين أو جفاك خليل
علمنا بوشك البين أول حاله ... وما حضرتنا للوداع عقول
إذا ما طمعنا أن تقر ديارهم ... تداركهم بعد الرحيل رحيل[٢]

قلنا: إن الفرقة الكيزانية استمرت مدة طويلة بعد العصر الفاطمي، وكان لها أثر قوي في الصوفية الذين ظهروا بعد انقراض الدولة الفاطمية، وكذلك كان الناس يتداولون شعر ابن الكيزاني، فكان له تأثير قوي في شعراء الصوفية الذين كانوا في عصر الأيوبيين، ففي شعر ابن الفارض مثلًا بعض المعاني التي في شعر ابن الكيزاني، ولكن شتان بين شاعرية ابن الفارض وشاعرية ابن الكيزاني؛ وسأترك المقارنة بين هذين الشاعرين الصوفيين إلى البحث الذي سيكون في كتابنا القادم «أدب مصر في عهد الأيوبيين والمماليك».

---

(١) الخريدة.
(٢) الخريدة: ورقة ٩٣.

الوصف:

وهناك غرض آخر من أغراض الشعر في العصر الفاطمي، هو عندي أقرب أغراض الشعر إلى التصوف، ذلك هو وصف الطبيعة، فكلا الغرضين ضرب من ضروب التأمُّل فيما خلقه الله، فكثيرًا ما يؤدي بشعراء الوصف إلى التصوف، ولكن شعراء مصر لم يسيروا في هذا المجرى، بل اتخذوا وصف الطبيعة وسيلة إلى وصف قصفهم؛ فقد رأينا شعراء مصر الفاطمية من تلاميذ مدرسة ابن وكيع التنيسي ينشدون شعرًا في الخمر والمجون والطبيعة معًا، وكيف كانوا يؤثرون الشراب في الرياض والمتنزهات، ويمزجون وصف الخمر بوصف الرياض والمتنزهات، أو بوصف السماء وما فيها من نجوم وغيوم وسحب، وتحدثنا عن خروج الشعراء إلى المتنزهات المختلفة التي كثرت في هذا العصر، ينعمون بطيب هوائها، ويمتعون أبصارهم بتنسيقها وجمال أزهارها المتنوعة التي عجب الرحالة ناصري خسرو من وجود عدد كبير منها في وقت واحد، فهو يقول: «رأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين: الورد الأحمر، والنيلوفر، والنرجس، والترنج، والنارنج، والليمون، والمركب، والتفاح، والياسمين، والريحان الملكي، والسفرجل، والرمان، والكمثرى، والبطيخ، والعطر، والموز، والزيتون، والبليج (الإهليلج)، والرطب، والعنب، وقصب السكر...». إلى أن قال: «وكل مَن يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التي بعضها خريفي، وبعضها ربيعي، وبعضها صيفي، وبعضها شتوي لا يصدق هذا»[١]. ويقول عن بساتين القاهرة: وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار، وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي لرَيِّها، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات»[٢].

(١) سفر نامة: ص٦٠ (ترجمة يحيى الخشاب).

(٢) المصدر نفسه: ص٥٠.

وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم العصور إلى التفكير والتأمل، والأمثال العامية التي يصطنعها الشعب المصري الآن، والتي نُقلت إلينا معرَّبة عن قدماء المصريين، تدل دلالة قاطعة على رقة شعور المصريين ودقة إحساسهم، وهم يتأملون طبيعة مصر، ويتحدثون عنها، وآثار قدماء المصريين مُلئت بالحديث عن السماء والأرض واختلاف الجو وغير ذلك من آيات تفكيرهم في الطبيعة، على أن الشعراء المصريين في العصر الفاطمي لم يصفوا الطبيعة على أنها لون من ألوان الفلسفة الطبيعية، ولم يتحدثوا عنها حديثًا يؤدي بهم إلى معرفة الخالق، بل تركوا ذلك كله لعلماء المذهب الفاطمي وإلى الفلاسفة، واتخذوا لأنفسهم مذهبًا فنيًّا خالصًا مصدره جمال الطبيعة، فإذا بهم يسبغون على المناظر التي وصفوها ألوان الحياة التي يألفونها من ملبس ومأكل ومسكن، ويحاولون أن ينتزعوا من الطبيعة صورًا هي أقرب إلى صور الحياة التي اعتادوها، وألوان الزينة التي كان يتزين بها المصريون في العصر الفاطمي، وها هو ذا ابن حيدرة العقيلي يصور منظرًا رآه في إحدى المتنزهات:

الغيم بين مزرر ومحلل ... والقطر بين مسرح ومسلسل
والقضب بين مفرط ومطوق ... ومدملج ومتوج ومكلل
والنبت بين مزعفر وممسك ... ومخلوق ومعنبر ومصندل
ومديج ومطرز ومصنف ... ومعرض ومرصع ومثقل
فاشرب على حلل لو أمكن لبسها ... كانت تكون من الطراز الأول[1]

ويقول مرة أخرى:

أمهات الثمار بين الروابي ... تائهات بلبس خضر الثياب
وبنات الكروم تجلى بما قد ... صاغه الماء من عقود الحباب
فالله ما دام للشقيق خلوق ... تنشر السحب فيه مسك ضباب[1]

(١) المغرب: ص٧٤.

ويقول في وصف الرياض وقد شبهها بفرش المجالس:

عـــرائس القـــضب تجـــلى عـــلى كـــراسي الـــروابي
ومجلـــس الـــروض فيـــه فـــرش مـــن العتـــابي

فابن حيدرة العقيلي، وهو من أشهر شعراء مصر الفاطمية الذين أولعوا بوصف الطبيعة، كان يتخذ صوره في الوصف مما كان يدور حوله في الحياة اليومية، وهذه الظاهرة ليست في شعر ابن حيدرة فحسب، بل نراها عند كثير من شعراء مصر الفاطمية؛ فالشاعر تميم بن المعز، وهو أحد شعراء الطبيعة، وصف بركة الحبش وخليج بني وائل فقال:

كـــأن البركـــة الغنـــا إذا مـــا غـــدت بالمـــاء مفعمـــة تمـــوج
وقـــد لاح الـــضحى، مـــرآة قـــين قـــد انـــصقلت، ومقبـــضها الخلـــيج
تـــرى قمـــر الـــدجى، قمـــرًا حـــذاه طلوعًـــا مـــا لـــه فيهـــا بـــروج[٢]

ووصف روضةً على شاطئ النيل فقال:

ويـوم خـدعت الـدهر عنـه فلـم أزل أعلـل نفسي فيـه بـالمراح مـع صـحبي
لـدى روضـة عالـت رباهـا كرومهـا وجـاد عليهـا النيـل مـن مائـه العـذب
كـأن سـحيق المـسك خـالط أرضـها فجالـت بـه فيهـا الريـاح مـع الـترب
كـأن نبـات النيـل والـريح تهمـي بهـن طـلى خيـل مؤثلـة شـهب
وطـورًا تخـال المـاء في رونـق الـضحى متـون سـيف لجـن مـصقولة القـضب
وتحـسبه إن محـصته يـد الـصبا قـوارير مـا يفـترن مـن قلـق اللعـب[٣]

وقال ابن عباد أحد شعراء الخريدة:

---

(١) المغرب: ص٥٦.
(٢) ديوان الأمير تميم.
(٣) المصدر نفسه.

كـــأنما الأرض مـــن زبرجـــدة ... بـدت إليـك عـلى غـب مـن الـسحب
والأقحوانـة هيفـا وهـي ضـاحكة ... عـن واضـح غـير ذي ظلـم ولا شـنب
كـأنما شمـسه مـن فـضة حرسـت ... خـوف الوقـوع بمـسمار مـن الـذهب

وقال مجير بن محمد الصقلي في يوم مطير:

أرأيـت برقًـا بالأبـارق قـد بَـدَا ... في أفقـــه متبـــسمًا متوقـــدا
كيف اكتسى ثوب السحاب ممسكًا ... وإخالـه شـنف الـرداء مـوردا
فكأنـــه في الجـــو كـــأس كلـــما ... فاتـت نمـير الـبرق صـاح وعربـدا
أو مرهـف كـشفت مـداوس صـيقل ... عـن متنـه صـدأ لكـي يـروي الـصدا
فاعجب إلى ودق اللجين يسيل من ... أفـق أحالتـه البـوارق عـسجدا
ولؤلـؤ للغيـث يأخـذه الثـرى ... فيعيـده نبتًـا يخـال زبرجـدا[1]

وقال ظافر الحداد في يوم برد:

ويـوم بـرد عقـوده بـرد ... لهـا سـلوك مـن هيـدب المطـر
ينثـره الجـو ثـم ينظم منـه الأرض ... بـالزهر كـل منتـشر
فهو يحاكي الحبيب في اللون واللطف ... وعـذب الرضـاب والخـصر
فالغيم يبكي والزهر يضحك والبروق ... تبـدي ابتـسام ذي خفـر[2]

ويقول ظافر أيضًا في متنزهات خليج الإسكندرية:

وعـشية أهـدت لعينـك منظـرًا ... جـاء الـسرور بـه لقلبـك وافـدا
روض كمخـضر العـذار وجـدول ... نقـشت عليـه يـد الـشمال مبـاردا
والنخـل كالغيـد الحـسان تزينـت ... ولبـسن مـن أثمارهـن قلائـدا[3]

(١) الخريدة: ورقة ٢٢.
(٢) الخريدة: ورقة ٨٥.
(٣) صبح الأعشى: ج٣، ص٣٠٥.

وللشعراء المصريين جولات في وصف النجوم، وفي الحديث عن النهار والليل واختلاف الجو باختلاف فصول السنة، فمن ذلك منظومة ابن وكيع التنيسي التي أوردها الثعالبي في اليتيمة، والتي تحدث فيها الشاعر عن إحساسه وشعوره نحو فصول السنة، وتقلبات الجو باختلاف هذه الأوقات، ويقول في مطلعها:

يا سائلي عن أطيب الدهور ... وقعت في ذاك على الخبير
سألتني أي الزمان أحلى ... وأيه بالقصف عندي أولى
عندي في وصف الفصول الأربعة ... مقالة تغني اللبيب مقنعة
أما المصيف فاستمع ما فيه ... من فطن يفهم سامعيه
فصل من الدهر إذا قيل حضر ... أذكرنا بحره نار سقر
تبصر فيه النبت مقشعرًا ... والأرض تشكو حره المضرا
نهاره مقسم بين قسم ... جميعها يعاب عندي ويذم
أوله فيه ندى مبغض ... كأنه على القلوب يقبض
يلصق منه الجسم بالثياب ... وتعلق الأذيال بالتراب

ويقول في الخريف:

حتى إذا زال أتى الخريف ... فصل بكل سوءة معروف
أهوية تسرع في كل الجسد ... وهو كطبع الموت يبسًا وبرد
يخشى على الأجسام من آفاته ... فأرضه قرعاء من نباته

ومنها في الشتاء:

حتى إذا ما أقبل الشتاء ... جاءتك منه غمة غماء
أقبل منه أسد مزير ... له وعيد وله تحذير
لو أنه روح لكان فدمًا ... أو أنه شخص لكان جهما
يأتيك في إبانه رياح ... ليس على لاعنها جناح

أما عن الربيع فقال:

جاء إلينا زمن الربيع ... فجاء فصل حسن الجميع
لبرده وحره مقدار ... لم يكتنف حدهما الإكثار
عدل في أوزانه حتى اعتدل ... وحمد التفصيل منه والجمل
نهاره من أحسن النهار ... في غاية الإشراق والإسفار
تضحك فيه الشمس من غير عجب ... كأنها في الأفق جام من ذهب
لبدره فضل على البدور ... في حسن إشراق وفرط نور
كجامة البلور في صفائها ... أو غرة الحسناء في نقابها[1]

وهكذا يمضي ابن وكيع في وصف فصول السنة.

ومن قول شعراء مصر في النجوم ما أنشده ظافر الحداد:

كأن نجوم الليل لما تبلجت ... توقد جمر في خلال رماد
حكى فوق ممتد المجرة شكلها ... فواقع تطفو فوق لجة وادي[2]

وقال محمد بن عاصم:

ترى صفحة الخضراء والنجم فوقها ... ككف سدوسي بدا فيه درهم
ترى وعلى الآفاق أثواب ظلمة ... وأزرارها منها شمال ومرزم[3]

وقال المهذب بن الزبير:

وترى المجرة والنجوم كأنها ... تسقي الرياض بجدول ملآن
لو لم يكن نهرًا لما عامت به ... أبدًا نجوم الحوت والسرطان[4]

---

(١) يتيمة الدهر: ج١، ص٢٨٥.
(٢) نهاية الأرب: ج١، ص٣٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٤.
(٤) نهاية الأرب: ج١، ص٣٦.

وقال ابن وكيع التنيسي:

قم فاسقني صافية ... تهتك جنح الغسق
أما ترى الصبح بدا ... في ثوب ليل خلق
أما ترى جوزاءه ... كأنها في الأفق
منطقة من ذهب ... فوق قباء أزرق[1]

وقال تميم بن المعز في الصباح:

وكأن الصباح في الأفق باز ... والدجى بين مخلبيه غراب[2]

وقال ابن وكيع التنيسي في التبشير بالصباح:

غرد الطير فنبه من نعس ... وأدر كأسك فالعيش خلس
سل سيف الفجر من غمد الدجى ... وتعرى الصبح من ثوب الغلس
وانجلى في حلة فضية ... ما بها من ظلمة الليل دنس[3]

أمَّا نيل مصر فكان له شأن مع شعراء مصر الفاطمية، فإنهم كانوا يُكثرون من ذكره في شعرهم، ويفيضون عليه صورهم كلما فاض عليهم بمائه، وها هو ذا الأمير تميم يقول:

يوم لنا بالنيل مختصر ... ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تجري كالخيول بنا ... صعدًا وجيش الماء منحدر
وكأنما أمواجه عكن ... وكأنما داراته سرر

ويقول مرة أخرى:

أما ترى الرعد بكى واشتكى ... والبرق قد أومض واستضحكا

(١) نهاية الأرب.
(٢) ج١، ص٤٤١.
(٣) المصدر نفسه.

فاشرب على غيم بصنع الدجى ... يضحك وجه الأرض لما بكى
وانظر لماء النيل في مده ... كأنما صندل أو مسكا[١]

ويقول تميم عند زيادة النيل:

انظر إلى النيل قد عبَّا عساكره ... من المياه فجاءت وهي تستبق
كأن خلجانه والماء يأخذها ... مدائن فتحت فاختارها الغرق
كأن تياره ملك رأى ظفرًا ... فكر إثر الأعادي محنق نزق
كأن ماء سواقيه لناظرها ... شهب الخيول إذا ما حثها العنق
فاشرب مهنى فإن اللهو منبسط ... واطرب ولذ، فهذا منظر أنق

ويقول ابن قلاقس:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعًا منه يخلفها ... كأنما احترقت بالماء في الغرق
وللهلال فهل واقَى لينقذها ... في إثرها زورق قد صيغ من ورق[٢]

ولم ينسَ الشعراء أهرام مصر، فالشاعر عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب المتوفى سنة ٣٨٧، قال في وصف الأهرام:

انظر إلى الهرمين إذ برزَا ... للعين في علو وفي صعد
وكأنما الأرض العريضة قد ... ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عند الثديين بارزة ... تدعو الإله لفرقة الولد
فأجابها بالنيل يشبعها ... ريًّا وينقذها من الكمد
لكرامة المولى المقيم بها ... خير الأنام مقوم الأود[٣]

(١) خطط المقريزي: ج١، ص١٠١.
(٢) ديوان ابن قلاقس: ص٧٥.
(٣) خطط المقريزي: ج١، ص١٩٥.

ويقول ظافر الحداد:

تأمل بنية الهرمين وانظر ... وبينهما أبو الهول العجيب
كعمارتين على رحيل ... لمحبوبين بينهما رقيب
وماء النيل تحتهما دموع ... وصوت الريح عندهما نحيب[1]

وقول عمارة اليمني:

خليلي ما تحت السماء بنية ... تماثل في إتقانها هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منه، وكل ما ... على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفي في بديع بنائها ... ولم يتنزه في المراد بها فكري[2]

أمَّا منشأت الفاطميين ومبانيهم، فقد ذكرها الشعراء في أشعارهم، ومنها هذه القصيدة التي أنشدها عمارة اليمني بعد أن دالت دولتهم، والتي تحدثنا عنها من قبلُ، وقد ضاعت أكثر هذه الأشعار، ولم يبقَ إلا عدة مقطوعات قليلة في وصف مباني المصريين.

قول علي بن يوسف الإيادي يذكر دارًا بناها المعز العبيدي بمصر، وسماها العروسين:

بنى منظرًا يسمى «العروسين» رفعة ... كأن الثريا عرست في قبابه
إذا الليل أخفاه بحلكة لونه ... بَدَا ضوءه كالبدر تحت سحابه
تمكن من سعد السعود محله ... فأضحى ومفتاح الغنى فتح بابه
ولو شاده عزم المعز ورأيه ... على قدره في ملكه ونصابه
لكان حصى الياقوت والتبر مفرغًا ... على المسك من آجره وترابه[3]

---

(١) الخريدة: ورقة ٨٥.
(٢) خطط المقريزي: ج١، ص١٩٥.
(٣) نهاية الأرب: ج١، ص٤٠٧.

وقال أمية في وصف قصر بناه الأمير علي بن الأمير تميم بن المعز:

لله مجلسك المنيف فبابه ... بموطد فوق السماك مؤسس
موف على حبك المحبة تلتقي ... فيه الجواري بالجوار الكنس
تتقابل الأنوار في جنباته ... فالليل فيه كالنهار المشمش
عطفت حناياه دوين سمائه ... عطف الأهلة والحواجب والقسي
واستشرفت عمد الرخام وظوهرت ... بأجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف ... وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم ... وأقر بالتقصير كل مهندس
فبدا للحظ العين أحسن منظر ... وغدا لطيب العيش خير معرس
فاطلع به قمرًا إذا ما أطلعت ... شمس الخدود عليك شمس الأكؤس
فالناس أجمع دون قدرك رتبة ... والأرض أجمع دون هذا المجلس[1]

ووصف الشاعر علي بن محمد النيلي باب زويلة فقال:

يا صاح لو أبصرت باب زويلة ... لعلمك قدر محله بنيانا
باب تأزر بالمجرة وارتدى الشـ ... ـعرى ولاث رأسه كيوانا
لو أن فرعونًا رآه لم يرد ... صرحًا ولا أوصى به هامانا[2]

على أننا نلاحظ ما بهذه المقطوعات من غلو ومبالغة في تفخيم المباني والمنشآت.

وهكذا نستطيع أن نتبع هذه العصور المختلفة التي صور بها شعراء مصر الفاطمية ما رأوه في الطبيعة وفي المتنزهات، وهي صور من الحياة المصرية التي كانت تلائم ما في العصر الفاطمي من ترف ونعيم، بل ذكر الشعراء الزينات

(١) نهاية الأرب: ج١، ص٤١١.
(٢) صبح الأعشى: ج٣، ص٣٠٥.

المختلفة التي كان الفاطميون يتخذونها في دورهم ومتنزهاتهم، ويغالون في إظهارها إمعانًا في الترف والبذخ، وها هو ذا ابن قلاقس يصف نخلة عليها زينة من أنوار السرج، كالذي يتخذه المترفون اليوم في أيام الحفلات الخاصة:

ما عهدنا النخل لولا هذه ... باسقات بثمار اللهب
هطل الغيث لها من فضة ... فهي في قنوانها من ذهب
تلعب السرج على حافاتها ... وتحاكي أنمل المرتعب
ولقد أحسبها ألسنة ... هزها للسكر خمر الطرب[1]

ونرى المصريين في شعرهم كل ما وقع تحت أنظارهم، فوصفوا الشمعة مثلًا، كما في قول المهذب بن الزبير:

ومصفرة لا عن هوى غير أنها ... تحوز صفات المستهام المعذب
شجونًا وسقمًا واصطبارًا وأدمعًا ... وخفقًا وتسهيدًا وفرط تلهُّب
إذا جمشتها الريح كانت كمعصم ... يرد سلامًا بالبنان المخضب[2]

ويقول آخر في الشمعة أيضًا:

وصحيفة بيضاء تطلع في الدجا ... صبحًا وتشفي الناظرين بدائها
شابت ذؤابتها أوان شبابها ... واسودَّ مفرقها أوان فنائها
كالعين في طبقاتها ودموعها ... وسوادها وبياضها وضيائها[3]

ووصف الشاعر أمير الدولة أبو محمد عبد الله بن خليل -أمير شعراء المستنصر- القلم والرمح بقوله:

يراعان هذه يملأ الطرس حكمة ... وذاك يذيق الحتف ليثًا غضنفرًا

(١) ديوان ابن قلاقس: ص١٨.
(٢) الخريدة: ورقة ٤٩.
(٣) المصدر نفسه: ١٣٩.

وإن ظمئَا ظنناهما يردَّا على	نفوس العدا من غير إذن ويصدرا
فيشرب هذا أسود الليل حالكًا	ويشرب هذا قاني الدم أحمرا(١)

ويصف طلائع الآمري الخيل بقوله:

جنائب إن قيدت فأسد وإن عدت	بأبطالها فهي الصبا والجنائب
أثارت بأكناف المصلى عجاجة	دجت وبدت للبيض منها الكواكب(٢)

ويقول ابن الضيف في عدد الفرس:

كم سابح أعددته فوجدته	عند الكريهة وهو نسر طائر
لم يرم قط بطرفه في غاية	إلا وسابقه إليها الحافر(٣)

ويطول بي الأمر لو ذكرت ما وصفه شعراء مصر الفاطمية، فهم لم يتركوا شيئًا دون أن يتحدثوا عنه في أشعارهم، ولعل ذلك يرجع إلى ما كانوا عليه من رقة الشعور، ودقة الحس، ومقدرة على القريض.

خاتمة القول في الشعر

رأينا صورًا مختلفة من الشعر المصري في العصر الفاطمي، وعرفنا موضوعاته المتنوعة المتشعبة، فنحن نتساءل بعد أن رأينا ذلك كله: إلى أيِّ حد وفق شعراء مصر في التعبير عن شخصية مصر في شعورهم؟ وإلى أي حد نستطيع أن نميز الشعر المصري في هذا العصر من غيره من شعر الأقطار الإسلامية الأخرى؟

قبل أن نجيب عن مثل هذه الأسئلة، نرى أن نتحدث أولًا عن بعض خصائص ظهرت في الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته، منذ عرف الشعر

(١) الخريدة: ورقة ٢٠.
(٢) المصدر نفسه: ٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ورقة ٣٧.

العربي إلى الآن، بل ستظل هذه الخصائص موجودة في الشعر العربي ما وجد الشعر العربي، وهذه الخصائص هي التي تجعله -مهما اختلفت بيئاته وتطورت عصوره- وحدة يشبه بعضها بعضًا، فالحياة العربية تتطور وتختلف باختلاف الأقاليم التي تنشد الشعر بالعربية، ولكن هذه الخصائص في الشعر لم تتطور بتطور الحياة، ولم تختلف باختلاف الأقاليم، وبالتالي يتطور الشعراء فلا تتطور معهم هذه الخصائص؛ بل ظلت مثلًا عليًّا للشعراء جميعًا دون أن يصيبها تغيير جوهري.

فمثلًا نجد الشعراء جميعًا منذ العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الجاهلي إلى عصرنا هذا ينشدون أشعارهم في ألفاظ عربية حاول النقاد أن يصفوها في كتبهم وأبحاثهم بالرقة والعذوبة والجزالة والسلاسة ... إلى غير ذلك من هذه الصفات التي وصفت بها الألفاظ الشعرية، فلا نكاد نجد شاعرًا من شعراء العربية اصطنع ألفاظًا توصف بصفات تختلف عن تلك التي تحدث عنها النقاد القدماء والمحدثون. حقيقة حاول بعض الشعراء أن يتظرف في الشعر باستعمال بعض ألفاظ أعجمية، ولكننا نستطيع أن نقول: إنَّ ذلك كان قليلًا جدًّا بحيث لا نستطيع أن ندعي أن هذه ظاهرة يقف عندها الباحث في تاريخ الأدب العربي، ولذلك لم يأبه لها مؤرخو الأدب، وإذن فقد اشترك الشعراء جميعًا في استعمال الألفاظ العربية في أشعارهم مهما اختلفت عصورهم، وتباينت بيئاتهم، فلا نستطيع أن نتخذ الألفاظ أساسًا للتمييز بين شعر قطر من الأقطار التي أنشدت بالعربية من شعر قطر آخر، فالألفاظ مثل من المثل العليا لشعراء العربية جميعًا، لم يصبها تغيير، ولن يصيبها تغيير.

كذلك نقول عن هذه الأوزان التي جرى الشعر العربي على أوتادها وأسبابها، والتي تحدث عنها علماء العروض في كتبهم، فشعراء العربية لم يعدلوا عن الأوزان التي عرفها القدماء، وأغلب الظن أن شعراء العربية لن يعدلوا عن

هذه الأوزان مهما بعد بهم الزمن عن الشعر القديم، وتلونت حياتهم بألوان مختلفة. ورب معترض يقول: إنَّ الأندلسيين أوجدوا الموشحات والأزجال، وإن المصريين اخترعوا البليق، وأدخل شعراء الفرس الدوبيت والرباعيات في الشعر العربي، وهذه كلها أوزان لم يعرفها القدماء، ولكن أتى بها المولدون، فكيف تكون الأوزان إذن مثلًا من المثل العليا للشعر العربي في كل العصور وكل البيئات؟! فأجيب هؤلاء المعترضين بأن المولدين لم يعدلوا عن التفعيلات القديمة، ولم تخرج أوزانهم الجديدة عن الدوائر العروضية التي عرفت قبل اختراع هذه الألوان من الشعر، وإنما الذي فعله هؤلاء المولدون أنهم غيَّروا بعض أشكال الشعر، واحتفظوا بالوزن الأساسي وبلون من ألوان القافية؛ أي أنهم في تجديدهم هذا لم يستطيعوا أن يحيدوا عن المثل القديمة في الشعر العربي، ومع ذلك كله فلو ذهبنا جدلًا إلى أن الموشحات الأندلسية والبليق المصري والدوبيت الفارسي تجديد في الوزن العربي -مع أننا لا نوافق على هذا الرأي- فإن هذه الألوان من الشعر كانت جزءًا يسيرًا جدًّا بجانب الشعر الآخر الذي خلفه الأندلسيون والمصريون والفرس، والذي حافظ فيه الشعراء على الأوزان القديمة، وإذن فالوزن مثل آخر من المثل العليا لشعراء العربية جميعًا، لم يصبه تغيير إلى الآن.

وكذلك نقول عن القافية وعن الأساليب الشعرية العربية، فهذه كلها مثل من مثل الشعر العربي التي اتبعها الشعراء في كل العصور والبيئات، وحافظ عليه الشعراء أشد المحافظة، حتى هؤلاء الشعراء الذي نزعم أنهم أسرفوا في التجديد، فالشاعر أبو نواس مثلًا الذي هاجم الأساليب القديمة وتهكم بها، لم يستطع أن يغير هذه الأساليب ولا طرائقه في التعبير، وكذلك نقول عن المجددين اللفظيين من أصحاب البديع، الذين أسرفوا في التلاعب اللفظي، واستخدام ألوان الزينة البديعية، فهم لم يستطيعوا أن يعدلوا عن عمود الشعر

القديم، فلم يبتكروا قافية غير القافية التي نهج عليها القدماء، ولا تفعيلات غير التي عرفتها دوائر العروض، ولم يستخدموا ألفاظًا غير عربية.

معنى ذلك كله أن الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته يشترك في هذه الخصائص التي أصبحت مثلًا للشعراء، فلا نستطيع إذن أن نقول: إن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر، أو إن المصريين قلدوا العباسيين واتخذوهم مثلًا لهم؛ لأن شعراء مصر اتبعوا هذه الخصائص العامة، وكذلك لا نستطيع أن نقول: إن الإندلس أظهرت شخصيتها بأن أوجدت الموشحات، فالذين زعموا أن العباسيين كانوا مثلًا عليا لشعراء العرب لم يدركوا فن الشعر العربي حق إدراكه، ونظروا إلى الشعر نظرة خاطفة، فتوهموا أن العباسيين كانوا مثلًا للشعر العربي. ألم يذهب القدماء إلى أن ابن هانئ الأندلسي كان يقلد المتنبي حتى لقب بمتنبي الغرب؟ ألم يقل القدماء أيضًا: إن الأمير تميم بن المعز كان يقلد ابن المعتز وينهج نهجه؟ فإذا كان القدماء ذهبوا إلى أن العباسيين كانوا أساتذة لشعراء مصر والمغرب والأندلس، فلم لا يذهب هؤلاء أيضًا إلى أن العباسيين كانوا مثلًا عليا للشعر العربي؟ الواقع أن العباسيين أنفسهم خضعوا لتقاليد الشعر العربي وخصائصه، شأنهم في ذلك شأن جميع شعراء العربية في كل العصور وكل البيئات، فلم يكن العباسيون مثلًا عليا لغيرهم من شعراء الأقاليم العربية.

وإذا كان شعراء العربية اشتركوا جميعًا في هذه الخصائص، فإنهم اختلفوا في المعاني التي تحدثوا عنها باختلاف عصورهم وبيئاتهم، فنحن إذا أردنا أن نبحث عن شخصية مصر في الشعر، فنحن لا نجدها في الأوزان ولا في القوافي ،ولا في اللفظ، ولا في أساليب الشعر، بل نجدها في المعاني التي ذكرها الشعراء، وفي الأخيلة الشعرية، وهنا فقط نستطيع أن نقول: إن الشعر المصري

صور البيئة المصرية والحياة المصرية أصدق تمثيل، بحيث إنك إذا قرأت هذا الشعر المصري لا تستطيع أن تنسبه إلى قطر غير مصر.

فمن ناحية الشعر السياسي يعتبر شعر مصر الفاطمية سجلًّا للأحداث التي جرت في هذا العصر. حقيقة ضاع جُلُّ هذا الشعر السياسي، ولكننا نستطيع أن نحكم على ذلك بما بقي لنا من آثار هذا الشعر، وقد ذكرنا شيئًا عن شعراء القصر وشعراء الوزراء، وأن هؤلاء الشعراء كانوا لسان الدولة في مثل هذه الأحداث السياسية، وكذلك كان أمر غيرهم من الشعراء الذين كانوا ينشدون الخليفة أو الوزير، ومن البديه أن ما كان يُنشد من الشعر السياسي هو صورة لحياة مصر السياسية دون غيرها من الأقطار الأخرى.

ورأينا جانبًا من الشعر المصري في الزهد والدين بجانب الشعر المصري في المجون والإباحة، وهذان اللونان من ألوان الشعر المصري يدلان دلالة صريحة على ناحية هامة من نواحي الحياة في الشعب المصري؛ فقد ذكرنا أن الشعب المصري شعب يميل إلى التمسك بأهداب الدين، وأنه شعب يعمل لآخرته؛ ولكنا في الوقت نفسه نراه شعبًا يميل إلى المجون في حياته، وأنه شعب يميل لدنياه فيأخذ بنصيب من متاع الدنيا، فمصر على هذا النحو متناقضة مضطربة بين متاع النفس ومتاع الجسد، وإذًا الشعر المصري يضطرب أيضًا فيمثل الناحيتين من حياة هذا الشعب، ولعل هذه الظاهرة لا تزال ماثلة إلى اليوم في حياة المصريين، وفي شعر المصريين، والذين درسوا الشعب المصري عجبوا للفكاهة والدعابة المصرية، وكيف يرسل المصريون الفكاهة تلو الفكاهة، والنادرة بعد النادرة، وهم يضحكون على مسمع هذه الفكاهات والنوادر بأصوات عالية. وذكر الكتَّاب أن الفكاهة المصرية تدل على ذوق المصريين وسرعة بديهتهم، وعلى وعي شديد في تذوقها. وزعم بعض الكتَّاب أن المصريين أكثر الشعوب حبًّا للفكاهة وكلفًا بإطلاقها وسماعها، وأن الفكاهة

تجري في دم كل مصري، ولكن هذه الفكاهات المصرية أكثرها في الحديث عن الناحية الجنسية، وهي تتناول بعض أعضاء الجسم، حتى أن أشد ألوان الفكاهة المصرية إضحاكًا هي هذه الفكاهات التي تتحدث عن العلاقة الجنسية أو أعضاء الجسم، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن للمصريين لونين من الحياة؛ لونًا يميلون فيه إلى المجون، ولونًا آخر يميلون فيه إلى الدين، فإذا الشعر المصري في كل عصوره يمثل هذين اللونين، وقد رأينا صورًا لهما في الشعر المصري في العصر الفاطمي.

ونضيف إلى ذلك كله أن مصر بما تمتاز به من هذا الجو البديع الذي تكاد تنفرد به، وأرض خصبة تُروَى في أوقات منتظمة، جعلت المصريين شعبًا يميل إلى الهدوء واللين في كل شي، وظهر أثر ذلك في التفكير عند المصريين، فنحن لا نكاد نجد عند المصريين عمقًا في تفكيرهم وفي دراساتهم المختلفة، ولعل هذا هو السبب في أننا لا نجد فيلسوفًا مصريًّا، ولا نجد فلسفة مصرية لها أثرها في تاريخ الفكر البشري. ونحن نعجب لهذا الشعب العظيم الذي استطاع أن يهضم كل المدنيات التي ظهرت، وعرف كل الدراسات المتنوعة، بل استطاع أن يمصر الشعوب التي وفدت على مصر، ومع هذه القوة الكامنة في مصر لم ينتج المصريون فلسفة خاصة بهم. ورُبَّ معترض يقول: إنَّ مدرسة الإسكندرية أوجدت فلسفةً تباين الفلسفة الهلينية بعض التباين، ولكن فاته أن فلاسفة مدرسة الإسكندرية لم يكونوا من المصريين، بل كانوا من الغرباء الذين وفدوا على مصر لطلب العلم على أساتذة مدرسة الإسكندرية.

وقد ذهب بعض مؤرِّخي مدرسة الإسكندرية إلى أن أفلوطين من صعيد مصر، وأنه تأثَّر بالبيئة المصرية والحياة المصرية، وظهر ذلك في آرائه التي حاولَ فيها أن يقرِّب بين فلسفة اليونان والمسيحية واليهودية، ولكن حياة أفلوطين لم تكن كلها في مصر، فقد وفد على الإسكندرية سنة ٢٣٣، وأقام إحدى عشرة

سنة في الاستماع إلى الفلسفة اليونانية، ثم رحل عن مصر إلى سوريا والعرق، وفي سنة ٢٤٥م رحل إلى رومة حيث لبث بقية سني حياته إلى أن توفي سنة ٢٧٠م. فآراء أفلوطين لم تكن بتأثير البيئة المصرية، ولكنها كانت بتأثير هذه الرحلات التي قام بها، فمدرسة الإسكندرية على الرغم من استمرارها في مصر عدة قرون، لم تؤثِّر في المصريين تأثيرًا له خطره، والذي قبله المصريون من دروسها هو شيء قريب إلى عقلية الشعب المصري التي تميل إلى كل شيءٍ بسيطٍ لين؛ ولذلك لم تمكث مدرسة الإسكندرية الفلسفية طويلًا عقب الفتح العربي؛ إذ انتقلت تعاليمها إلى الرها وحران وأنطاكية ونصيبين، إلى أن أعاد الفاطميون تعاليم المدرسة الإسكندرية مصبوغة بالصبغة الإسلامية، ثم خرجت هذه التعاليم من مصر بانقراض الدولة الفاطمية، ولم تَعُدْ إليها إلى الآن، وأغلب الظن أنها لن تعود مرة أخرى إلى مصر، وفي تاريخ الحياة الصوفية في مصر لم نجد صوفيًّا له فكرة متميزة به، وإذا قلنا: إنَّ ذا النون المصري كان من أوائل الصوفية الذين لهم رأي في وحدة الوجود؛ فإن تعاليمه لم تزدهر في مصر، وإنما الذي حملوا آراءه من غير المصريين، وذلك كله لأن المصريين شعب يميل إلى الهدوء واللين في حياتهم وفي تفكيرهم، وذلك من تأثير البيئة المصرية.

وغلبت هذه الطبيعة المصرية على الشعراء؛ فنراهم هادئين في تفكيرهم، وفي ميلهم إلى اتخاذ الأوزان الخفيفة الهادئة التي تلائم طبيعتهم، وظهر في وصفهم للطبيعة تلك الصور الهادئة التي ليس بها تعقيد الفلاسفة، ولا عمق المفكرين، إنما كانت صورهم هي صور الحياة اليومية التي كان يحياها المصريون.

والمصري عُرِف منذ القدم بشدة تعلُّقه ببيئته، لا يريد الابتعاد عن حياته التي عرفها منذ أدرك الحياة، وإذا غاب عن بيئته فهو يحن إليها حنينًا شديدًا جدًّا، ولا يلبث أن يعود إليها. وفي شعر مصر الفاطمية نجد الشعراء يعنون

بتصوير هذه البيئة، ولم يحاول الشاعر المصري أن يخرج فنه عن دائرة هذه الحياة التي حوله، ومن هنا كان تصوير الشعر المصري للبيئة المصرية وللحياة المصرية في صور متلاحقة تكاد تكون حسيَّة، فإذا قرأنا هذه الأشعار في تصوير هذه البيئة، لا نستطيع أن ننسبها إلى بيئة أخرى غير بيئة مصر، ولا يصوِّر الشاعر شعبًا غير شعب مصر، فليطمئن الذين زعموا أن مصر لم تُنتِج أدبًا، أو الذين يزعمون أن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر، إلى أن مصر كان لها شخصية ظاهرة واضحة في الشعر المصري في العصر الفاطمي، ثم العصور التي وليت هذا العصر، وأن الشعر المصري يصوِّر حياة المصريين المتشعبة النواحي أصدق تمثيل.

أمَّا أخيلة المصريين في التعبير عن تصوير بيئتهم وألوان حياتهم، فهي أخيلة مستمَدَّة من بيئتهم ومن حياتهم أيضًا؛ فالفاطميون في أشعارهم التي أوردنا بعض صورها استخدموا الألوان الحسية؛ فاستعمال الجناس والطباق إلى غير ذلك من ألوان الفن تمثل لنا أخيلة شعراء العصر الفاطمي بأنها صور منتزعة من الحياة الفاطمية، وأن توسُّع الشعراء الفاطميين في استعمال هذه الألوان والمغالاة في استخدامها هي ضرورة اضطرتهم إليها حياة العصر الفاطمي نفسه. حقيقة نرى عند شعراء مصر قبل العصر الفاطمي هذه الألوان الحسية في شعرهم، وقد تحدَّثْنا عنها في كتابنا «أدب مصر الإسلامية»، وأوردنا شيئًا من شعر شعراء هذا العصر، مما يدل على أن هذا اللون من الفن عرفته مصر الإسلامية؛ ولكن مصر الفاطمية كانت تمتاز بالغلو في كل شيء؛ فقد رأينا غلو الفاطميين في الدين، وغلوهم في اللهو، وغلوهم في التزين والتجمل، وغلوهم في الملبس والمسكن؛ غلو في أعياد فرحهم، وغلو في ذكريات مآتمهم؛ فظهر هذا الغلو في فن الشعر ظهوره في نواحي الحياة المختلفة، فأسرف الشعراء في العصر الفاطمي في استخدام ألوان الزينة البديعية حتى تلائم أشراف الفاطميين في حياتهم، فإن الحياة كانت تمد الشعراء بهذه الألوان الحسية

عن الزينة. ليس معنى ذلك أن الشعراء في غير مصر الفاطمية لم يعرفوا الزينة البديعية، أو أنهم لم يسرفوا في استخدامها، بل كانت الزينة البديعية في الشعر العربي أقدم عهدًا من الفاطميين، وإن هذه الزينة عرفها شعراء العراق وغير العراق قبل أن تقوم دولة الفاطميين في مصر، فقد فتنت الزينة البديعية الناس جميعًا في كل البلاد العربية، وأخذ الشعراء في استخدامها في شعرهم لإرضاء ذوقهم الفني، وإرضاء الجمهور الذي فُتِن بها، وتبع شعراء مصر الفاطمية تيار الشعر العربي، ولم يتخلَّفوا عنه، وإنما أسرفوا في استخدام هذه المحسنات البديعية، فسبقوا غيرهم في مضماره، وذلك لما في المصريين من دقة الحس، ورقة الشعور، وميل إلى الفكاهة، وخفة الروح، فإذا بك لا تشعر أن بالشعر المصري هذا التكلف الذي يظهر عند غير المصريين من الشعراء، ولا تلمس جهد الشاعر في الحصول على هذه الصورة الفنية التي ابتدعها في شعره، فالصور أمامهم وبين أيديهم ينتقون منها ما يشاءون دون جهد، فأحسنوا التحدث عن هذه الصور وأحسنوا تعليلها، وهي صور مصرية وتعليلات مصرية منتزعة من الحياة المصرية الحضرية.

وإذن فنستطيع أن نطمئن أيضًا إلى أن أخيلة المصريين كانت مصرية أيضًا، لم يتبعوا فيها غيرهم من شعراء البلاد العربية، وهكذا ظهرت شخصية مصر في الشعر بارزة واضحة.

الباب الثاني
في النثر

الفصل الأول
ازدهار النثر

رأينا في كتابنا «أدب مصر الإسلامية» كيف أُسِّس ديوان الإنشاء بمصر في عهد أحمد بن طولون، وأن أول مَن ولي هذا الديوان كان أحمد بن محمد بن مودود المعروف بـ«ابن عبد كان» الكاتب، وعرفنا كيف استمر تلاميذ «ابن عبد كان» يعملون في دواوين الطولونيين والإخشيديين، فازدهرت الكتابة في مصر على أيديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة في مصر، حتى أن القلقشندي روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر، وابن عبد كان الكاتب، ويقولون: بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما[1]. وكثر عدد الكتاب في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين، أمثال: الحسن بن رافع، ويعقوب بن إسحاق، وأحمد بن أيمن، والحسين بن مهاجر، وعلي بن أحمد المادرائي، وابن الداية، وإسحاق بن نصير العبادي، وإبراهيم بن عبد الله النجيرمي، ومحمد بن كلاو الروزباري ... وغيرهم من الكتَّاب الذين اتخذوا الكتابة فنًّا يتكسبون به، ومؤهلًا لتعيين الكتاب في خدمة الأمراء وأصحاب الشأن في البلاد، فكثر تنافُس الكتاب في تجويد الكتابة وإتقان الصناعة، حتى علا منارها وعظم شأنها.

(١) صبح الأعشى: ج٣، ص١٧.

تولى الفاطميون أمر مصر، ونهضة الكتابة فيها قوية مزدهرة، فتضاعفت هذه النهضة في العصر الفاطمي بما عمل الفاطميون على النهوض أولًا بالعلم وإذكاء شعلته في البلاد، حتى كان للحركة العلمية أثر قوي في تيار الفكر الإسلامي عامة، وفي مصر الفاطمية على وجه خاص، وقد تحدَّثنا عن ذلك من قبلُ.

ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها أثرها القوي في ازدهار الشعر وازدهار الكتابة معًا؛ فقد عني الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء؛ بل لا أغالي إذا قلت: إنَّ عناية الفاطميين بالكتاب كانت أشد من عنايتهم بالشعراء؛ ذلك أن اتساع ملكهم وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرتهم إلى أن يوجِّهوا همتهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم. ويحدِّثنا المؤرخون عن هذه الدواوين، وعن الكتاب الذين تولوها، والتشريف الذي كان يجده هؤلاء الكتاب في العصر الفاطمي؛ من ذلك أن صاحب ديوان المجلس كان يخلع عليه، وينشأ له السجل، وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب ... إلى غير ذلك[1]. ويذكر المقريزي أن أبا البركات بن أبي الليث متولي ديوان المجلس سنة ٥١٧هـ، كان له باسمه مياومة إدرارًا من بيت المال والخزائن ودار التعبية والمطابخ وشون الحطب الشي الكثير، فكان له من البقول والتوابل ما قيمته نصف دينار، ومن الضأن رأس واحد، ومن الحيوان ثلاثة أطيار، ومن الحطب حملة واحدة، ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلًا، ومن الخبز عشرون وظيفة، ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصريتان وشمامة، كما كان له في كل يوم إثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب طيفور خاص، وصحن من الأوائل، وخمسة وعشرون رغيفًا من الخبز المائدي والسميذ، وفي كل يوم أحد وأربعاء من الأسمطة مثل ذلك، وفي كل

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٣٦.

يوم سبت وثلاثاء من أسمطة الركوبات خروف مشوي وجام حلوى ورباعي عنب، وكان يحضر إليه في كل يوم من الإصطبلات بغلة بمركوب محلي، وبغلة برسم الراجل، وفراشين برسم خدمته. ولم يقتصر الأمر عليه وحده؛ بل جعلوه لولده جاريًا كل يوم مقداره ثلاثة أرطال لحم، وعشرة أرطال دقيق، وراتبًا عشرة دنانير(١).

ويقول المقريزي أيضًا عن ديوان التحقيق: إنه كان لا يتولاه إلا كاتب خبير، وله الخلع المرتبة والحاجب(٢). أمَّا صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات، فكان أول أرباب الإقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم، وله حاجب من الأمراء الشيوخ وفراشون، وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة، وهي من أخص الدوي، ويحملها أستاذي الخليفة(٣). ويحدِّثنا ياقوت: أن رزق ابن خيران كاتب الإنشاء في عهد المستنصر، كان ثلاثة آلاف دينار في السنة، وكان له عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شيء(٤). فهذا التشريف الذي جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة ففي هذا العصر، كما كان إغداق النِّعم على الكتاب على هذا النحو الذي رأينا صورته من أسباب كثرة الكتاب، وإقبال الناس على التعليم، وإجادة الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة في الدواوين؛ فكثر عدد الكتاب، وأصبح على المتأدب أن يأخذ عن الكتَّاب طرائقهم وفنهم.

ويحدِّثنا القاضي الفاضل أنه كان من عادة أرباب الدواوين في تربية أبنائهم، أنهم كانوا يرسلون هؤلاء الأولاد إلى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٢٩.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٤٢.
(٣) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٠٤.
(٤) معجم الأدباء: ج٤، ص٥ (طبعة رفاعي).

الكتابة. قال القاضي الفاضل: كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غضًّا طريًّا، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانًا وبيانًا، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانًا، وكان من العادة أن كلًّا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وَشَدَا شيئًا من علم الأدب، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع، فأرسلني والدي -وكان إذ ذاك قاضيًا بثغر عسقلان- إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجل يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرَّفته مَن أنا وما طلبي؛ رحَّبَ بي وسهَّل، ثم قال: ما الذي أعددته لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة. فقال: وفي هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته، فترددتُ عليه وتدربتُ بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته[1].

فهذا النص يدلنا على مبلغ تعلُّق الناس بتعليم أبنائهم فن الكتابة، فقد كان حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عدد الكاتب في هذا العصر، وقد رأينا كيف طلب ابن الخلال من تلميذه الذي عُرف بعد ذلك بالقاضي الفاضل أن ينشر كل الأشعار التي جمعها ديوان الحماسة؛ تهيئةً له في الدخول في سلك الكتَّاب. ولم تكن مَلَكة الكتابة وحدها تكفي أن تجعل الإنسان كاتبًا، بل كان لا بد له من آلات -على نحو ما عبَّر ابن الخلال- وهذه الآلات هي علوم العربية، حتى يتسنى للكاتب أن يسير على نهج الأساليب العربية، فلا يقع في لحن نحوي أو لغوي، أو يبتعد الكاتب عن سنن كتاب العربية في أسلوبهم وتعبيراتهم. ولم يقنع الفاطميون بأن تكون كتابات الكتَّاب سليمة صحيحة، بل حرصوا أشد الحرص على ذلك؛ بأن جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين

(١) الروضتين: ج١، ص١٩٢.

لمراجعة ما كان يحرِّره الكتاب حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء، فهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التي جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية، فلا غرو أن يقول القاضي الفاضل: «إنَّ فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد كان غضًّا طريًّا». وأن تصبو نفس كل متعلم إلى أن يكون كاتبًا من كتَّاب الدواوين.

وقد يكون من عوامل ازدهار الكتابة في العصر الفاطمي أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمي كانوا من الكتاب، وكانوا يعملون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة؛ فالفلاحي والجرجرائي واليازوري والبابلي وبنو المغربي وابن المدبر وابن الأنباري وكثير غيرهم كانوا من الكتاب، وقد بلغوا مرتبة الوزارة، حتى أن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقلام، وأن وزراء الدور الثاني كانوا من أصحاب السيف، وليس معنى ذلك أن الكتابة ضعفت في الدور الثاني، أو أن الكتاب أصبحوا في مكانة تقل عن مكانتهم الأولى، بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذي كانوا فيه في الدور الأول، ومنهم كان جلساء الإمام وحجَّابه وأصحاب مظلته، ومنهم كان القضاة والدعاة، وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة، فالكتاب طوال العصر الفاطمي كانت لهم مكانتهم الممتازة، والنعم العميمة، والعطايا الجزيلة، فلا غرابة إذن أن يُقبل الناس على الكتابة، وأن تزدهر في هذا العصر.

أَضِفْ إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمي كان من أشد العوامل على ازدهار الكتابة؛ فإن الفاطميين كانوا يسجِّلون كل دقيقة وعظيمة في سجل يخرج من الديوان، فتعيين الوزراء أو الكتاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة كان يخرج به سجل خاص مطول، فيه الحض على تقوى الله وطاعة الإمام والتمسك بأهداب الدين الحنيف، ثم الإشارة إلى المنصب

الذي سيُعيَّن فيه الموظف، وما يتطلبه ذلك المنصب من عمل، إلى غير ذلك من ترغيب في المنصب، ومشورة في تصريف العمل، وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج السجل بذلك.

وفي أعيادهم ومآتمهم كانت تصدر هذه السجلات أيضًا، حتى أصبحت هذه السجلات تاريخًا للعصر الفاطمي كله، وكان الكتَّاب يفتنون في إظهار مقدرتهم وكفايتهم في صياغة هذه السجلات، ويتنافسون في هذا الفن؛ فجاءت هذه السجلات الفاطمية صورًا رائعة من صور الكتابة العربية التي تمثِّل العصر الفاطمي أصدق تمثيل.

من ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة في العصر الفاطمي، وكيف أقبل المتعلمون على أن يلموا بفن الكتابة، حتى يصبحوا كتابًا في دواوين الفاطميين، وأن ينالوا ما ناله الكتَّاب من تكريم وتقريب ونِعَم.

النثر والأئمة:

وكان الأئمة يجيدون فن النثر كما كانوا يعرفون بالشعر، فقد كان الأئمة يلقون الخطب الدينية في المسجد الجامع، ويقرءون ما يعرضه عليهم الدعاة من مجالس المحكمة، وقد يبدلون بعض أجزاء هذه المجالس. فمن خطبة المعز لدين الله في عيد الأضحى سنة ٣٤١هـ:

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الأعز الأقدر، الخالق المدبر، ذو الكبرياء والجبروت، والعزة والملكوت، الأحد الصمد، الفرد المتفرد، الأعلى القاهر، الباطن الظاهر، الأول الآخر، مبدع السماوات والأرض بالقدرة، ومالكها بالعزة، ومدبرها بالحكمة، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة، وبدائع التركيب والصنعة، الذي كل شيء من موات وحي متوجِّه بالدعاء إليه، والدلالة عليه، والشهادة له بالتوحيد، والتعظيم والتحميد، فتكوينه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شيء قبله، وانتهاؤها إلى الغايات

دليل على أن لا غاية له، وإحاطته بحدودها منبئ بأن لا حد له، فالضعف والعجز والفقر والنقص الذي لم يخل منه مخلوق، أفصح ناطق وأصدق شاهد للخالق وحده -جل ثناؤه- بالإلهية والفردانية والقدرة والربوبية والتمام والكمال والأزل والدوام.

تبارك الله رب العالمين، أحسن كل شيء خلقه، وكفل لكل حي رزقه، ثم هدى بالعقل الذي قامت حجته، ووجبت طاعته، والكتب والرسل الذين تمت بهم حكمته، فصلى الله عليهم أجمعين، وعلى محمد سيد المرسلين، الذي رفع ذكره وأعلى قدره، فأكرمه بالوسيلة، واختصه بكل فضيلة، وابتعثه هاديًا للعباد ونورًا في البلاد، علم به من الجهل، وهدى به من الضل، وكثر به من القل، وأعز به من الذل، فألف به بعد الشتات، ونور به دياجير الظلمات، صلوات الله عليه وآله المهديين الأخيار الطيبين.

يا أيها الناس، إن الله لم يخلقكم عبثًا، ولم يهملكم سدى، ولم يجعل عليكم في الدين حرجًا، ولم يضرب الذكر عنكم صفحًا، للعبادة خلقكم، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم، وجعل للطاعة أعلامًا منصوبة، وفروضًا مكتوبة، ومن أفضل أعلامها وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق، مبوأ إبراهيم خليل الله، وقبلة محمد رسول الله، فتقربوا إلى الله بما أمدكم به، ورزقكم إياه من بهيمة الأنعام، مقتدين بسنة محمد نبي الرحمة والهدى، مستشعرين لله التقوى، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾، فبالتقوى تُقْبَل الأعمال ويُدرَك الأمل، وكبِّروا الله على ما هداكم، واشكروه على ما أولاكم. ألا وإن خير الهدي الإبل، وخير الإبل إناثها، وكذلك من البقر ثم الفحول من الضأن، وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن، وأن تكون من حلال الأموال، نسأل الله لنا ولكم قبول العمل

بامتنانه، وبلوغ الأمل من رضوان الله ورحمته وإحسانه. وجلس، ثم قام في الثانية ينعي المنصور، ويعلن موته، بعد أن كان موته قد ظل مستورًا عدة أشهر:

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر شأنًا، وأعظم سلطانًا، وأوضح آيات وبرهانًا، عن أن تنكر العقول توحيده، أو تروم تحديده، خالق السماوات والأرض ومالكهما ومدبرهما، الفرد الصمد، الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ند، الخالق القدير، الرحمن الغفور، النافذ قضاؤه، الكائن ما يشاؤه، المتقن كل شيء صنعًا، الموسع كل شيء رزقًا، المحيط بكل شيء علمًا. أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأفوض إليه، وأتوكل في كل الأمور عليه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا خيرته من عباده، ونجيه من بريته، وصفوته من المتطهرين، ورسوله إلى كافة العالمين، وبعثه بالإمامة إلى الثقلين؛ ليبلغ حجة الرب، ويوضع محجة الحق، فأدَّى رسالة الله، ورحم ورأف بعباد الله، وصبر على الكبار من مكر الكفار، إلى أن أدال الله للحق على الباطل، والهدي على الأضائل. محمد صلى الله عليه وآله أفضل الصلاة وأزكاها، وأكملها وأنماها، وأخلدها وأبقاها، وعلى الأئمة المهديين، من عترته الكرام الأبرين، الذين اختارهم للخلافة، وارتضاهم للإمامة، وأكد بوصية الرسل حجتهم، وأوجب في التنزيل طاعتهم، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين، وعلى أفضل الوصيين، وعلى من أمه سيدة النساء خامسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم، وعلى أميري المؤمنين، المهدي بالله والقائم بأمر الله سيدي الورى، وإمامي الهدى، اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين، وأقام بهما دعوة الدين، وأزهق بحقهما باطل المدعين وأكاذيب المتخرصين، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين، صلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه وتحياته عليهما.

اللّٰهم اخصص الإمام الفاضل، والوصي العادل، والبر الفاضل، والغيث الوابل، ذا الآيات المعجزات، والعزائم النافذات، الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات، الصابر في البأساء والضراء حتى طهَّر الأرض من جبابرة الأعداء، عبدك ووليك ونجيبك وصفيك أبا الطاهر، المنصور بك والمتوكل عليك، والمفوض إليك، العامل بما يرضيك، ويقرب إليك، ويزلف لديك. الذي فجَعْتَنا بفقده، وأَوْحَدْتَنا ببُعْده، وأفردتنا منه وأوحشتنا، فقبلت دعاءه، وأجبت نداءه، وجمعت بينه وبين أحبته في مستقر جنتك، وسعة رحمتك. إن القلق وشدة الحرق عليك يا أبتاه يا سيداه يا إسماعيلاه يا أبا الطاهراه، يا بحر علوم الأئمة الطاهرين، الهداة المهديين، يا بقية أبناء الرسول، وأبناء الوصي والطاهرة البتول، يا إمام الأمة، ومفتاح باب الرحمة، يا سراج الهدى وشمس الورى، ومجلي الطخياء، يا مخصوصًا من الله بتعجيل الكرامة، عظم والله علينا المصاب بك، وحل البلاء، وعدم العزاء لفقدك، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء شمائلك، وتعداد مناقبك، فوحق الذي اختصَّك بكرامته، وحباك بجزيل عطائه، وشرَّفَك بأبوة رسوله، لولا ما أوعزت إليَّ به، وأكدته علي من القيام بحق الله، والذب عن أمة جدك رسول الله، واستنقاذهم من غمرة الجهالة، وبحار الضلالة، ومهاوي الفتن ومعاطب المحن، وما تقرَّر عندي، ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ولأئمة الهدى؛ لضربت على وجهي سائحًا في البلاد، قاليًا للمهاد، راضيًا ببلغة من الزاد، إلى أن يلحقني الموت سريعًا بك، فأفوز بقربك ورحمة بك. لكني فكَّرْتُ ونظرت وتدبرت؛ فلم أَرَ لي وجهًا أستوجب به درجتك، واللحاق بشرفك، سوى الصبر والاحتساب، فتجلَّدْتُ، وصبَّرَني ربي فصبرت، وغلب علي اليقين

فأمسكت، فأقول: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الرحمن الرحيم، له الحمد على ما أبلى، والشكر على ما أولى ... إلخ[١].

وأكتفي بهذا القدر من هذه الخطبة القيمة التي وردت في كتاب «سيرة الأستاذ جوذر»، ولعلك تلاحظ أن المعز قد أتى في خطبته هذه ببعض العقائد الفاطمية، من السهل الآن على القارئ أن يدركها، والمهم الآن أن نلاحظ هذه الصنعة الفنية في أسلوب الخطبة؛ فالجمل قصيرة، وتكاد الجملة تكون على وزن وطول الجملة التي تليها، والسجع ظاهر فيها، وينتقل المعز من معنى إلى آخر انتقالًا طبيعيًّا لا تكلُّفَ فيه.

وإذا قرأنا توقيعات المعز التي ضمنها القاضي النعمان بن محمد كتابه «المجالس والمسايرات»، وتوقيعاته التي أرسلها إلى وليه الأستاذ جوذر التي جمعها صاحب «سيرة جوذر» رأينا أن هذه الصنعة الفنية في الكتابة لا تلازم الإمام المعز في توقيعاته، فقلَّ أن نجد السجع، ولا هذا التكلف الذي رأيناه في خطبته، فتوقيعاته أقرب إلى الكلام العادي الذي يتحدث به أمام الناس في الشئون المختلفة، مع سلامة أسلوبه، وفصيح عبارته، مثل توقيعه إلى جوذر ردًّا على رقعة رفعها إلى الإمام يسأل فيها ضيعة يرتفق بها ابن أحد كتابه: «وقفنا على رقعتك، ومحل محمد محل مثله ممن صدقت نيته، وقدمت في الجميل صحبته، ونحن نحب أن يسبغ الله نعمنا على مَن لم يعرفنا، فكيف من لم يعرف إلا بنا، ونحن نسعف جعفرًا لسؤالك ما سأل فيه إن شاء الله»[٢].

وكذلك نقول عن الأئمة الذين جاءوا بعد المعز؛ فقد كانوا على ثقافة واسعة وعلم غزير جعلهم يهتمون بالكتابة، ويميزون بين الجيد منها والرديء، بل تُنسَب إلى بعضهم رسائل مثل مجموعة الرسائل التي تُنسب إلى المستنصر

(١) سيرة الأستاذ جوذر (نسخة خطية بمكتبتي).
(٢) المصدر السابق.

الفاطمي، والتي عُرفت «بالرسائل المستنصرية»[١]، والتي قيل إنها الرسائل التي تبودلت بين المستنصر وبين علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن، فمؤرخو الإسماعيلية يؤكدون أن هذه الرسائل من إنشاء المستنصر نفسه؛ ولكني -بعد أن اطَّلَعتُ على هذه الرسائل- أستطيع أن أقول: إن أسلوبها أقرب إلى أسلوب المؤيد في الدين داعي الدعاة.

وكذلك نقول عن «رسالة الهداية الآمرية»[٢] التي ينسبها الإسماعيلية إلى الإمام الآمر بأحكام الله، فقد شك الأستاذ آصف فيظي ناشر هذه الرسالة في نسبتها إلى الإمام الآمر، ورجح أن تكون من إنشاء أحد الكتاب الذين كانوا في عصر الآمر.

ومهما يكن من شيء فإن الكتابة في العصر الفاطمي قد ازدهرت بازدهار الحياة المصرية في ذلك العصر، ولشدة إقبال الناس على التماس العلم والنهل من منابعه التي كثرت، وتعددت ألوانها وفنونها، وتطور الكتابة يتبع دائمًا تطور الحياة العلمية، فإذا ارتقت العلوم تبعها رقي في الكتابة، وإذا انحطت العلوم انحطت الكتابة.

(١) مجموعة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن.

(٢) الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، تحقيق الأستاذ آصف علي صغر فيظي (من مطبوعات جمعية الأبحاث الإسلامية بالهند).

الفصل الثاني
كتاب ديوان الإنشاء

قال القلقشندي: «لما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه، فارتفع بهم قدره، وشاع ففي الآفاق ذِكْره، وولي ديوان الإنشاء منهم جماعة من أفضل الكتَّاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي»(١). هكذا وصف القلقشندي كتاب ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي، «وما بلغه هذا الديوان على أيدي الكتاب من رفعة القدر وشيوع الذكر، ولا غرو في ذلك؛ إذ كان منصب ديوان الإنشاء لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة»(٢). ولمكانته وكفايته كان يُلقَّب بالشيخ الأجل وبصاحب الدست الشريف(٣)، كما كان الخليفة يستشيره في أكثر أموره، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه(٤). وقد تحدث ابن منجب الصيرفي -أحد كتابهم- عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها رئيس ديوان الإنشاء، نلخص أهمها فيما يأتي:

١- أن يكون ذا دين وورع وأمانة.

٢- أن يكون دينه الإسلام.

٣- أن يكون على مذهب الملك.

٤- أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسنى منزلة، وبحيث لا يوجد أحد في عصره يفوقه في هذا الفن.

---

(١) صبح الأعشى: ج١، ص٩٦.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٤٤، وصبح الأعشى: ج١، ص١٠٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

٥- أن يكون مضطلعًا بفنون الكتابة، عالمًا بأصولها وفصولها.

٦- أن يكون حافظًا لكتاب الله تعالى، وحافظًا للأشعار، راويًا للكثير منها.

٧- أن يكون أصيلًا في قومه، رفيعًا في حسبه[١].

هذه أهم الصفات التي رأى ابن منجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء، فهل اتخذ الفاطميون هذه الصفات دستورًا لهم في اختيار رؤساء هذا الديوان؟ يؤسفني أن أقول: إن الفاطميين لم يأبهوا بهذه الشروط والصفات التي اقترحها أحد كتابهم في كتاب قدَّمه لوزير من وزرائهم، ولكن ابن منجب كان من كتاب القرن السادس للهجرة، في وقت بدأ فيه ضعف دولتهم وقوة أعدائهم، ولا سيما قوة الصليبيين، فلا غرابة أن نرى ابن منجب يشترط أن يكون الإسلام دين رئيس الديوان، «وخاصة بحكم الوقت الحاضر ألا يطلع على أسراره مَن يخالف شريعة الإسلام؛ لقرب دار العدو خذله الله وأباده»[٢]. فإن وجود الصليبيين في بلاد الشام يناوئون الفاطميين، جعل ابن منجب يضطر إلى أن يشترط أن يكون رئيس ديوان الإنشاء مسلمًا، أما قبل عهد الصليبيين، ومنذ قامت دولة الفواطم في مصر، فقد كان يتولى ديوان الإنشاء بعض أهل الذمة، كما كان يتولاه بعض المسلمين.

ويذكر المؤرخون أسماء بعض من تولى هذا الديوان من أهل الذمة، مثل أبي المنصور بن نسطوروس النصراني كاتب العزيز، والرئيس فهد كاتب الحاكم وغيرهما، كما كان يكتب ابن أبي الدم اليهودي في عهد الحافظ. معنى هذا أن الفاطميين لم يأبهوا بمذهب الكاتب أو دينه، بل لا أغالي إذا ذهبت إلى أن الفاطميين كانوا كثيرًا ما يستعينون بالذميين في دولتهم، وهذه ظاهرة سجَّلها

(١) قانون ديوان الرسائل لابن منجب: ص٩٤ وما بعدها.

(٢) قانون ديوان الرسائل لابن منجب: ص٩٥.

المؤرخون في كتبهم عن الدولة الفاطمية، ولكن ليس معنى ذلك أن الفاطميين أبعدوا المسلمين عن الدواوين، فإن الكثرة الساحقة من كتاب الدواوين كانوا من المسلمين، فإذا عرضنا أسماء رؤساء ديوان الإنشاء التي وردت في صبح الأعشى رأينا أكثر الكتاب من المسلمين، فقد جاء في هذا الكتاب: «فكتب للعزيز بالله بن المعز، أبو المنصور بن نسطورس النصراني، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه، فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر النهركي، ثم كتب بعده لابنه الظاهر. وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين بن خيران، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة، وأبو سعيد العميدي. وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أبي أسامة الحلبي، إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفي في أيام الحافظ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفي، والقاضي كافي القضاة محمود بن القاضي الموفق أسعد بن قادوس، وابن أبي الدم اليهودي، ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره، القاضي الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد، وبه تخرج القاضي الفاضل البيساني، ثم أشرك العاضد مع الموفق بن الخلال في ديوان الإنشاء، القاضي جلال الملك محمود الأنصاري، ثم كتب القاضي الفاضل بين يدي الموفق بن الخلال قرب وفاته سنة ست وستين وخمسمائة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم[1].

ولكن هذه الأسماء التي جاءت في صبح الأعشى، ليست عرضًا لرؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي كله، كما أن الذي نراه في كتب التراجم وفي

(١) صبح الأعشى: ج١، ص٩٦.

المراجع العامة الأخرى يختلف بعض الاختلاف عما ورد في صبح الأعشى؛ إذ تحدثنا هذه المراجع أن الحسين بن جوهر القائد كان يلي ديوان الإنشاء في عهد العزيز[١]، وأنه ظل في منصبه إلى أيام الحاكم، ثم استبدل به صالح بن علي الروزباري، ثم جاء بعده الكافي بن عبدون النصراني، ثم صرف وقرَّر بدله أحمد بن محمد القشوري الكاتب، ثم زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصراني الملقب بالشافي، وبعده حسين بن طاهر الوزان[٢]. ونفهم من كلام ابن زولاق مؤرخ مصر أن مالك بن سعيد الفاروقي كان له النظر أيضًا في المكاتبات في عصر الحاكم[٣]. وتولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر[٤]، ويذكر المؤيد في الدين لهبة الله الشيرازي في سيرته أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر سنة ٤٤٣هـ[٥]. ويذهب المقريزي إلى أن الوزير ابن المغربي ولي ديوان الإنشاء بعد أن صرف عن الوزارة[٦]، وأن سناء الملك أبا محمد الزبيدي الحسني كان على رأس ديوان الإنشاء في عهد الآمر[٧].

وهكذا نستطيع أن نعرف عددًا آخر من الكتاب الذين ولوا ديوان الإنشاء غير الذين ذكرهم القلقشندي، كما نستطيع أن نستخرج أسماء عدد كبير من الكتاب الذين كانوا يعملون في ديوان الإنشاء، ولكننا لا نستطيع أن نعرف مذاهبهم الفنية في الكتابة؛ لأن آثارهم فُقِدت ولم يَبْقَ لنا إلا عدة رسائل وسجلات لا تكفي لأن نكوِّن رأيًا صحيحًا عن كل كاتب من هؤلاء الكتاب، ولكن هناك عدة خصال عامة اشترك فيها كل كتاب هذا العصر، بحيث

(١) خطط المقريزي: ج٣، ص٢٢.
(٢) اتعاظ الحنفا: ص٣٠٠ وما بعدها.
(٣) الولاة والقضاة: ص٦٠٦.
(٤) ابن خلكان: ج١، ص٣٥٨.
(٥) السيرة المؤيدية (من مطبوعات دار الكاتب المصري).
(٦) خطط المقريزي: ج٣، ص٢٥٧.
(٧) الخطط: ج٤، ص٧٨.

نستطيع أن نلمسها عند كل الكتاب الذين وصل إلينا شيء من كتاباتهم، فأول خصلة من هذه الخصال، هي أن الكتاب جميعًا التزموا السجع في كتاباتهم، نرى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية إلى أن قوَّض صلاح الدين الأيوبي أركانها، نراها في رسالة المعز لدين الله إلى القرمطي[١]، وفي رسالة العزيز بالله إلى عضد الدولة البويهي، وهذه الرسالة كانت من إنشاء يعقوب بن كلس[٢]، وفي السجلات الكثيرة التي كتبت في عهد الحاكم[٣]، وفي رسائل المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وفي كتابات ابن خيران، ونستمر في إدراك هذه الخصلة عند الكتاب حتى نراها في رسائل ابن الصيرفي وابن الشخباء، ثم في رسائل القاضي الفاضل.

وخصلة أخرى نراها في فن هؤلاء الكتاب، وهي الاقتباس من القرآن الكريم، فكانوا أحيانًا يضمنون رسائلهم وسجلاتهم بعض آيات من القرآن، أو يقتبسون بعض معاني القرآن، متأثرين بهذا كله تأثرًا واضحًا في جميع ما خلف لهم من كتابات.

وخصلة ثالثة هي المبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية في كتاباتهم، فهم يغرقون في المبالغة حين يحاولون تشخيص المعاني، ويولعون باستخدام الجناس، ويكلفون في تركيب جملهم بمراعاة النظير؛ فإذا بك تجد كتاباتهم تتألف من جمل قصيرة في الغالب، والجملة تتبع الأخرى في وزنها وموسيقاها ومعناها، وينتقل بك الكاتب من معنى إلى آخر في رقة وعذوبة، فلا ينتقل بك انتقالًا فجائيًّا، مما يدل على فطنة الكاتب ومهارته، كما يدل أيضًا على أن الصنعة الفنية كانت تستهوي جميع الكتاب، على أن هذه الخصال التي عُرفت في العصر

(١) اتعاظ الحنفا: ص٢٥١.
(٢) النجوم الزاهرة: ج٤، ص١٢٤.
(٣) الخطط: ج٣، ص٣٣.

الفاطمي عرفت أيضًا في رسائل ابن عبد كان، فلا غرابة إذا قلنا: إن أثر ابن عبد كان في كتاب مصر كان قويًّا شديدًا، وإن فنه الذي عُرف به في العصر الطولوني قد ظهر واضحًا في العصر الفاطمي، وإن كان كتاب الفاطميين قد بالغوا في ذلك كله مبالغتهم في كل شيء في حياتهم. كما أن هذه الخصال نفسها هي التي عُرِفت بها كتابات القاضي الفاضل، وما القاضي الفاضل إلا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين وبهم تخرَّج، والعجب حقًّا أن أرى بعض الزملاء يتوهم أن للقاضي الفاضل مذهبًا خاصًّا عُرف به في الكتابة، وأن له مدرسة تتميز بخصائصها وطرائقها عن مدرسة الكتاب الفاطميين، وأخشى أن أذهب إلى أن هؤلاء الزملاء لم يدرسوا تطور الكتابة في مصر دراسة كافية، فقصورهم في معرفة أسلوب كتاب مصر منذ أيام ابن عبد كان جعلهم ينسبون طريقة ابن عبد كان إلى القاضي الفاضل، ونحن نلتمس لهؤلاء الزملاء بعض العذر في حكمهم هذا؛ لأنهم كانوا تبعًا في ذلك للقدماء الذين أشادوا بذكر القاضي الفاضل، وتناسوا أساتذته وخصائص مذهبهم التي أخذها عنهم، وجاء المحدثون يتبعون القدماء في أحكامهم دون درس وبحث.

وخصلة أخرى تتميز بها رسائل كتاب الفاطميين، ونجدها ظاهرة في كل سجلاتهم، تلك هي المقدمات التي كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم، فقد دفعتهم عقيدتهم الدينية، وتمذهبهم بالمذهب الفاطمي إلى أن يبدءوا رسائلهم وسجلاتهم بالحمد لله، ثم بالصلاة على النبي وعلى الوصي والأئمة من أهل البيت، ويتعمدون دائمًا أن يذكروا أن محمدًا جد الأئمة، فكأنهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم، وكل سجل من سجلاتهم، وكأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاولَ خصومهم نفيه، أو كأنه رد على سجلات العباسيين في دحض نسب الفاطميين، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في كل رسائل الفاطميين منذ دخل جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية، ولعل هذه الظاهرة هي التي تميز رسائل الكتاب الفاطميين

عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين؛ بل أرى هذه الظاهرة في رسائل أتباع مذهب الفاطميين إلى اليوم. وكما كانوا يبدءون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد والصلاة على النبي والأئمة، كانوا يختمون هذه الكتابات والسجلات، لم يشذ عن ذلك كاتب من كتَّابهم، ولعل هذه الخصلة تظهر في سجلات الفاطميين أوضح من ظهورها في رسائلهم، والسبب في ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان أي ملك في عصرنا الحديث، ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الإمام الفاطمي، فإذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا، ففي كل هذه السجلات تظهر هذه الخصلة.

وكما تأثَّر الشعر بالعقائد الفاطمية تأثرت الكتابة بهذه العقائد تأثرًا يظهر في السجلات التي تصدر في الأعياد والمواسم، أو في تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة، ففي مثل هذه السجلات كان الكتاب يلمون بالعقائد، ويئولون بعض آيات القرآن الكريم تأويلًا يتفق مع مذهبهم الفاطمي، ويذكرون في كتاباتهم رأي الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد، فالسجلات التي صدرت في عيد الغدير كانت تنصب على ولاية علي بن أبي طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده، وسجل مأتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال، وسجل رؤية رمضان في ذكر عقيدة الفاطميين في هلال رمضان، وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب.

ولعل أول قطعة نثرية وصلتنا عن الدولة الفاطمية، هي ما كتبه القائد جوهر الصقلي فاتح مصر، وتلك هي الأمان الذي قطعه على نفسه وعلى إمامه

للمصريين، وإن كان هذا الأمان من السجلات التاريخية فهو صورة من الصور الأدبية التي دبجتها يراعة هذا القائد، فقد كان جوهر كاتبًا للمعز قبل أن يوليه قيادة جيوشه بالمغرب[١]. ويحدِّثنا المقريزي أن القائد جوهرًا كان كاتبًا بليغًا، ومن مستحسن توقيعاته في رقعة رُفعت إليه بمصر:

سوء الاجترام أوقع بكم حلول الانتقام، وكفر الإنعام أخرجكم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الإيجاب، واللازم لكم ملازمة الاحتساب؛ لأنكم بدأتم فأسأتم، وعدتم فتعديتم، فابتداؤككم ملوم، وعودكم مذموم، وليس بينهما فرجة إلا تقتضي الذم لكم، والإعراض عنكم، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم[٢].

فتوقيع جوهر القائد على هذا النحو يدل على أن جوهرًا كان على مقدرة وكفاية في فن الكتابة، كما كان على مقدرة وكفاية في فنون الحرب. فهذه الجمل القصيرة المسجوعة، وهذه المعاني المتسقة والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى، ترينا أن فن الكاتب هو نفس الفن الذي ساد العصر الفاطمي، بل كاد يسود العالم الإسلامي، فالزينة اللفظية في هذه القرون كانت حلية الكتَّاب جميعًا.

أمَّا الأمان الذي هو أول نص حُفِظ لنا عن الدولة الفاطمية فقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم: إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي، وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله

(١) سيرة الأستاذ جوذر (مخطوط).

(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٠٧.

بقاه، وأبو إسماعيل الرسي أيده الله، وأبو الطيب الهاشمي أيده الله، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزَّه الله، والقاضي أعزَّه الله، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابًا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وحسن نظره لكم، فَلْتحمدوا الله على ما أولاكم، وتشكروه على ما حماكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسعادة عليكم، وبالسلامة لكم، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة، والجيوش المظفرة، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ... إلخ[1].

ويستمر جوهر في ذكر ما يجب على المصريين أن يتبعوه، وما على الحكومة الجديدة من تعهُّدات نحو الشعب المصري، ويُخيل إليَّ أن كاتب هذا النص لم يكن عنده الوقت الكافي لأن يُظهِر صناعته الفنية في المزاوجة بين الجمل والتزام السجع في كل فقراته، وإن كان الكاتب حَاوَلَ أن يرتفع بأسلوبه، وأن يجعله أسلوبًا أدبيًّا.

وإذا تركنا كتاب الأمان الذي كتبه جوهر، رأينا رسالة أخرى للمعز أرسلها إلى الحسن بن أحمد القرمطي، ونحن لا ندري مَن الذي كتب هذه الرسالة عن المعز، فالرسالة التي وصلت إلينا طويلة ولكنها ناقصة، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نتخذها صورة للكتابة في أول العصر الفاطمي، حتى نستطيع أن نميِّز تطور الكتابة في العصر الفاطمي كله، فقد جاء في هذه الرسالة:

من عبد الله ووليه، وخيرته وصفيه، معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، وسلالة خير النبيين، ونجل علي أفضل الوصيين، إلى الحسن بن أحمد.

(١) اتعاظ الحنفا: ص١٤٨ (طبعة دار الفكر العربي).

بسم الله الرحمن الرحيم، رسوم النطقاء، ومذاهب الأئمة والأولياء، ومسالك الرسل والأوصياء السالف والآنف منَّا. صلوات الله علينا وعلى آبائنا، أولي الأيدي والأبصار، في متقدم الدهور والأكوار، وسالف الأزمان والأعصار، عند قيامهم بأحكام الله، وانتصابهم لأمر الله، الابتداء بالإعذار، والانتهاء بالإنذار، قبل إنفاذ الأقدار، في أهل الشقاق والآصار، لتكون الحجة على مَن خَالَفَ وعَصَى، والعقوبة على مَن باين وغوى، حسبما قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، و﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾، وقوله سبحانه: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾، و﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾.

أمَّا بعدُ؛ أيها الناس، فإنا نحمد الله بجميع محامده، ونمجده بأحسن مماجده، حمدًا دائمًا أبدًا، ومجدًا عاليًا سرمدًا، على سبوغ نعمائه، وحسن بلائه، ونبتغي إليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة على طاعته، والتسديد في نصرته، ونستكفيه مماثلة الهوى، والزيغ عن قصد الهوى، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضات البركات، وطيب التحيات على أوليائه الماضين، وخلفائه التالين، منَّا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون.

أيها الناس: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾ ليذكر مَن يذكر، وينذر مَن أبصر واعتبر. أيها الناس، إنَّ الله جلَّ وعزَّ إذا أراد أمرًا قضاه، وإذا قضاه أمضاه، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحًا، وأبرزنا أرواحًا، بالقدرة مالكين، وبالقوة قادرين، حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا شمس تضيء، ولا قمر يسري، ولا كوكب يجري، ولا ليل يجن، ولا أفق يكن، ولا لسان ينطق، ولا جناح يخفق، ولا ليل ولا

نهار، ولا فلك دوَّار، ولا كوكب سيَّار، فنحن أول الفكرة وآخر العمل بقدر مقدور، وأمر في القدم مبرور، فعند تكامل الأمر، وصحة العزم، وإنشاء الله جلَّ وعزَّ المنشآت، وإبداء الأمهات من الهيولات، طبعنا أنوارًا وظلمًا، وحركة وسكونًا، وكان من حكمه السابق في علمه، ما ترون من فلك دوَّار، وكوكب سيَّار، وليل ونهار، وما في الآفاق من آثار معجزات، وأقدار باهرات، وما في الأقطار من الآثار، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع، من كثيف ولطيف، وموجود ومعدوم، وظاهر وباطن، ومحسوس وملموس، ودانٍ وشاسع، وهابط وطالع، كل ذلك لنا ومن أجلنا، دلالة علينا، وإشارة إلينا، يهدي به الله من كان له لبٌّ سجيح، ورأي صحيح، قد سبقت له الحسنى، فدانَ بالمعنى ... إلخ[1].

ولعل أول ما يلفت نظرنا في هذه الرسالة تلك الاصطلاحات الفاطمية والمعاني الباطنية، بحيث نستطيع أن نقول: إنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الرسالة إلا من كاتب من كتَّاب الفاطميين، حتى لو كان الكاتب لم يبدأ رسالته بأنها من إمام من أئمة الفاطميين، فالاصطلاحات الفاطمية «الناطق» و«الوصي»، ثم حديثه عن خلق الأشباح -أي الممثولات- قبل خلق العالم، وأن الأئمة أول الفكرة؛ أي أنهم مثل للعقل الأول «المبدع الأول»، وأن كل المخلوقات وجدت للدلالة على الأئمة الذين هم مثل للعقل. كل هذه من المعاني الباطنية التي يدين بها الفاطميون، فالرسالة كلها مملوءة بمثل هذه العقائد، فليست الرسالة من الرسائل التاريخية السياسية التي تفيد المؤرخ السياسي في معرفة العلاقة بين الفاطميين والقرامطة فحسب، وليست رسالة أدبية تبين لنا صورة من صور الكتابة في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، بل هي من أهم الرسائل التي تتحدث عن العقائد الفاطمية، وترينا

(١) اتعاظ الحنفا: ص٢٥١ (طبعة دار الفكر العربي).

تطور المذهب الفاطمي إذا قارناها بما جاء في كتب منصور اليمن الحسين بن حوشب، الذي وُجِد قبل عصر المعز؛ أو كتب القاضي النعمان، وجعفر بن منصور، والمروزي، الذين كانوا في عهد المعز، ثم كتب الدعاة الكبار الذين كانوا بعد عصر المعز. فمؤرخ العقائد الفاطمية يجد مجالًا للبحث في هذه الرسالة الهامة.

وأسلوب الرسالة هو ذلك الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبلُ، وتظهر فيه كل خصائص الكتابة في العصر الفاطمي، وكل خصائص مدرسة ابن عبد كان في الكتابة. انظر إلى هذه القطعة من تلك الرسالة:

فأما أنت أيها الغادر الخائن، الناكث البائن، عن هدي آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه أنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم أغفل أمرك، ولا خفي عني خبرك، ولا استتر دوني أثرك، وإنك مني لبمنظر ومسمع، كما قال الله عز وجل: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾، و﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾، فعرفنا على أي رأي أصلت، وأي طريق سلكت، أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة، أما نظرت في كتبهم وأخبارهم، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم، أكنت غائبًا عن ديارهم وما كان من آثارهم.

فأنت تقرأ هذه القطعة فتشعر أنك تقرأ رسالة ابن عبد كان التي كتبها إلى العباس بن أحمد بن طولون عندما ثار على أبيه، فهذه الجمل القصيرة المسجوعة، والاقتباسات من القرآن الكريم، وضم الجملة إلى ما يشاكلها؛ كل هذه من خصائص فن ابن عبد كان، ونقلها تلاميذه عنه، واستمرت طوال العصر الفاطمي.

ووصلت إلينا رسالة كُتِبت في عهد العزيز بالله، كتبها إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة بالشام سنة ٣٦٧هـ، ونحن لا نعرف

أيضًا كاتب هذه الرسالة، ولكن لا شك في أنها كُتِبت في العصر الفاطمي؛ لما فيها من الخصائص الفاطمية التي تحدثنا عنها من قبل، سواء أكان ذلك من حيث العقائد أو من حيث الأسلوب الفني، فقد جاء في هذه الرسالة[1]:

من عبد الله ووليه نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين، إلى حسين بن القاسم. سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد نبيه ورسوله، صلى الله عليه وعلى الأئمة من عترته الأبرار، الطاهرين المطهرين وسلم تسليمًا.

أمَّا بعد؛ فالحمد لله الملك العظيم، العليم الحليم، ذي الطول الكريم، والمن الجسيم، والعز المديد، والمحال الشديد، ولي الحق ونصيره، وماحق الباطل ومبيره، المتكفل بالنصر والتمكين، والتأييد والتحصين، لأوليائه المتقين، وخلفائه المصطفين، الذابين عن دينه، والقائمين بحقه، والدالين على توحيده، الحاكم بإعلاء كلمتهم، وإفلاج حججهم، وظهورهم على أعدائه المشاقين له، الضالين عن سبيله، الملحدين في آياته، الجاحدين لنعمائه، المنزل رجزه وقوارع بأسه على مَن عصاه فحاده، وصد عنه فناده، القاضي بالعواقب الحسنى، والفوز والنعمى، لمن أسلم وجهه له، وتوكل عليه في أمره، وفوَّض إليه حكمه، كل ذلك فضلًا منه وعدلًا، وقضاء فصلًا، وهو الحكم العدل الذي ﴿لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾.

فأنت ترى في هذه القطعة كيف ذكر الكاتب أن محمدًا جد الإمام العزيز، وأن الأئمة هم صفوة الخلق المصطفون الذابون عن دين الله، فهذه كلها من المعاني الفاطمية التي لا يقول بها غيرهم، فإذا مضينا في قراءة الرسالة رأينا الجزء الأول منها يجري هذا المجرى الذي رأيناه في القطعة السابقة، حتى إذا

(١) الرسالة بأكملها في صبح الأعشى: ج٦، ص٤٣٤ وما بعدها.

وصلنا إلى الغرض من الرسالة، وهو الحرب مع القرمطي رأينا الكاتب يفصل حركات العزيز وانتقالاته إثر عدوه، حتى قال الكاتب:

فبعدما طمع، قاده الحين الغالب، والقدر الجالب، وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله، ومنهل وباله، ورحل من بيسان رحيل من استعجلته البلية، واستدعته الرزية، فحلَّ بموضع يُعرف بكفر سلام، كافرًا بحدود الإسلام، متجرئًا على الله، محاربًا لنجل نبيه عليه السلام، وأقام بها متلددًا في حيرته، مترددًا في سكرته، ثم استجره شؤمه، وقاده حينه ولؤمه، إلى أن رحل فنزل بكفر سابا البريد، فأنبأه اسمها بما حل به من السبي المبيد، والخزي الشديد، ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه المأكولة، ونصب أعلامه المخذولة، وأقام صفوفه المغلولة، وأظهر آلة الحرب إقدامًا، وأخفى عن اللقاء إحجامًا ... إلخ.

وعلى هذا النحو من الأسلوب سار الكاتب في هذه الرسالة، التي لا تكاد تختلف في أسلوبه عن أسلوب الرسالة السابقة.

وفي عهد الحاكم الذي عُرف بنزعاته وتقلباته في حكمه، كثرت السجلات والأمانات في عهده، وأصاب الكتاب من تقلباته أذى كثير، ونقل المقريزي عن المسبحي صديق الحاكم وجليسه: «في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة أمر الحاكم بعمل شونة مما يلي الجبل مُلِئت بالسنط والبوص والحلفاء، فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد، وظنَّ كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشونة عُمِلت لهم، ثم قويت الإشاعات، وتحدث العوام في الطرقات، أنها للكتاب وأصحاب الدواوين وأسبابهم، فاجتمع سائر الكتاب بأجمعهم في خامس ربيع الأول، ومعهم سائر المتصرفين في الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الرماحين بالقاهرة، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون، ويضجون، ويسألون العفو

عنهم»[١]. ويروي المقريزي أيضًا أنه كتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق[٢]، ومما أورده المقريزي صورة سجل أمان أصدره الحاكم وهو:

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله، إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا علي خير الوصيين، وآبائنا الذرية النبوية المهديين، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال، والدم والمال، لا خوف عليكم ولا تمديد بسوء إليكم، إلا في حد يقام بواجبه، وحق يُؤخَذ بمستوجبه، فيوثق بذلك؛ ليعول عليه إن شاء الله تعالى. وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة والحمد لله، وصلى الله على محمد سيد المرسلين، وعلي خير الوصيين، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة، وسلم تسليمًا كثيرًا[٣].

كما ورد في صبح الأعشى[٤] سجل بتولية الحسين بن علي بن النعمان القضاء في عهد الحاكم بأمر الله، وفي هذا السجل تظهر الصنعة الفنية التي نراها في كتاب الأمان السابق، ومما جاء في هذا السجل: أمره أن يتقي الله عز وجل حق التقوى، في السر والجهر والنجوى، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى، وينفصم من الشبهات والشكوى والهوى، فإن تقوى الله تبارك وتعالى، موئل لمن وئل إليها حصين، ومعقل لمن اقتفاها أمين، ومعول لمن عول عليها مكين، ووصية الله التي أشاد بفضلها، وزاد في سناها، بما عهد أنه من أهلها، فقال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

---

(١) خطط المقريزي: ج٣، ص٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ج٣، ص٣٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) صبح الأعشى: ج١٠، ص٣٨٥.

ولا نستطيع أن نعرف الكاتب الذي سطر هذه السجلات، وكتب الأمان التي صدرت في عصر الحاكم؛ لأن ديوان الإنشاء في عهده تداوله عدد كبير منهم، بحيث يصعب على المؤرخ أن يعرفهم أو يعرف كم أمضى كل كاتب منهم في الديوان، واستمر الأمر في غموض، ولعل أول كاتب في هذا العصر المضطرب نستطيع الحديث عنه هو ولي الدولة ابن خيران.

ابن خيران:

أمَّا هذا الكاتب فهو أبو محمد أحمد بن علي بن خيران، ولُقِّب بولي الدولة، ويذكر ياقوت أن ابن خيران ولي ديوان الإنشاء بعد أبيه في عهد الظاهر[١]، ونحن لا نعرف شيئًا عن أبيه سوى ما يرويه ياقوت: «كان أبوه أيضًا فاضلًا بليغًا، أعظم قدرًا من ابنه وأكثر علمًا»[٢]. كذلك لا نعرف متى ولي والده ديوان الإنشاء، ومتى ولي الابن بعده، ولكن المقريزي يحدثنا في خططه أن أبا الحسن عمار بن محمد -وكان يلي ديوان الإنشاء، واستوزره الحاكم، وهو الذي تولى البيعة للظاهر- قُتِل في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين، وكان يتولى الشرطة، ثم ولي ديوان الإنشاء بعد ابن خيران[٣]. ويُخيَّل إليَّ أن ابن خيران المذكور في نص المقريزي هو الأب؛ لأن ولي الدولة ظل في منصبه حتى شاهد عصر المستنصر، ومع ذلك فنص المقريزي يختلف عن نص ياقوت؛ إذ يذهب ياقوت كما رأينا إلى أن الابن حلَّ محل أبيه في ديوان الإنشاء، على حين يذهب المقريزي إلى أن أبا الفتوح موسى بن الحسين هو الذي ولي الديوان بعد ابن خيران، ولا نستطيع

(١) معجم الأدباء: ج٤، ص٥ (طبعة فريد رفاعي).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) خطط المقريزي: ج٢، ص١٦٧.

أن نرجح إحدى الكفتين؛ لأنَّ المصادر التي بين أيدينا قليلية، ولا تعطينا صورة دقيقة لرجال ذلك العصر.

ومهما يكن من شيءٍ فإن ولي الدولة ابن خيران تقلَّد ديوان الإنشاء للظاهر، ثم للمستنصر، ويحدثنا المقريزي: أنه في سنة أربع عشرة وأربعمائة قرَّر الشريف الكبير العجمي، والشيخ نجيب الدولة الجرجرائي، والشيخ العميد محسن بن بدوس، مع القائد معضاد، ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم، وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ويخرجون فيتصرفون في سائر أمور الدولة، والظاهر مشغول بلذاته، وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة، وابن خيران صاحب الإنشاء وداعي الدعاة ونقيب نقباء الطالبيين وقاضي القضاة، ربما دخلوا على الظاهر في كل عشرين يومًا مرة، ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر ألبتة[١]. وإذن فقد كان ولي الدولة ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في سنة ٤١٤هـ. ويقول ابن خلكان عن الشاعر أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت أنه توفي بمصر في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة، وهو على حالة من الضرورة وشدة الفاقة، وكفله ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر، وهذا ابن خيران كان متولي كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم[٢]. فهذا النص يدلنا على أن ابن خيران كان في ديوان الإنشاء سنة ٤١٦هـ.

ويروي المقريزي أن ابن خيران وقع عن الخليفة المستنصر: «الفقر مر المذاق، والحاجة تذل الأعناق، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق، فليجروا على رسومهم في الإطلاق، ما عندكم ينفد وما عند الله باق»[٣]. فابن خيران إذن

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص١٦٨.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص٣٥٨.
(٣) خطط المقريزي: ج٢ن ص٢٣٨.

كان صاحب ديوان الرسائل في أواخر عهد الظاهر وفي عهد المستنصر أيضًا. ويروي ياقوت: أن رزقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات، رسوم يستوفيها من كل شيء بحسبه، وكان شابًّا حسن الوجه، جميل المروءة، واسع النعمة، طويل اللسان، جيد العارضة، وسلم إلى أبي منصور بن الشيرازي رسول أبي كاليجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسائله، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضي أبي القاسم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد، ويستشير في تخليدهما دار العلم، لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها ارتضي واستجيد[١]. وعلى الرغم من أن شعره فُقِد ولم يَبْقَ منه إلا عدة مقطوعات قصيرة، فإننا نستطيع أن نقول: إن ابن خيران كان معجبًا بنفسه، يكثر الإشادة بشعره وبنثره. انظر إليه وهو يقول:

ولقد سموت على الأنام بخاطر ... الله أجرى منه بحرًا زاخرًا
فإذا نظمت نظمت روضًا حاليًا ... وإذا نثرت نثرت درًّا فاخرا[٢]

ويقول مرة أخرى:

خلقت يدي للمكرمات، ومنطقي ... للمعجزات، ومفرقي للتاج
وسموت للعلياء أطلب غاية ... يشقى بها الغاوي ويحظى الراجي[٣]

وهو القائل أيضًا:

قد علم السيف وحد القنا ... أن لساني منهما أقطع
والعلم الأشرف لي شاهد ... بأنني فارسه المصقع[٤]

---

(١) معجم الأدباء: ج٤، ص٥.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٨.
(٣) المصدر السابق: ج٤، ص١٠.
(٤) المصدر السابق: ج٤، ص١٢.

من هذه المقطوعات نستدل على أن ابن خيران قد فُتِن بشعره وبنثره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتي بالمعجزات، ويخيل إليَّ أن إعجابه بنفسه لم يكن في الشعر أو في النثر، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا التيه والإعجاب بنفسه، حتى لو كان في ذلك ما يجازف فيه بحياته، ولعل القصة التي أوردها ياقوت عنه تدل على ذلك كله، قال ياقوت: كان ابن خيران قد خرج إلى الجيزة متنزهًا، ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب والشعر والكتابة، وقد احتفوا به يمينًا وشمالًا، فأدى بهم السير إلى مخاضة مخوفة، فلما رأى إحجام الجماعة من الفرسان عنها، وظهور جزعهم منها، قنع بغلته، فولجها حتى قطعها، وانثنى قائلًا مرتجلًا:

ومخاضة يلقى الردى من خاضها ... كنت الغداة إلى العدا خواضها

وبذلت نفسي في مهاول خوضها ... حتى تنال من العدا أغراضها[1]

وعلى الرغم من أن ابن خيران ظلَّ مدة طويلة في ديوان الإنشاء، وأن له رسائل كثيرة جمعها في حياته، فإنه لم يصل إلينا من نثره سوى هذه القطعة التي كتبها توقيعًا عن المستنصر، ويروي ياقوت عن الرئيس هلال بن المحسن: «أن الرسائل صالحة سليمة، قد انتُزِعت من المنظوم على خلوة إلا من الوزن والقافية».

وتوفي ابن خيران في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة من الهجرة.

وبعد ابن خيران تولى محمد بن أحمد بن محمد العميدي ديوان الإنشاء للمستنصر في صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة من الهجرة، وكان نحويًّا لغويًّا، وصنَّف عدة كتب منها: كتاب تنقيح البلاغة في عشر مجلدات، وكتاب

(١) معجم الأدباء: ج٤، ص٦.

الإرشاد إلى حل المنظوم، وكتاب الهداية إلى نظم المنثور، وكتاب انتزاعات القرآن، وكتاب العروض، وكتاب القوافي[١]. فهذه المصنفات تدلنا على أن العميدي كان متأثرًا بهذه الثقافة اللغوية النحوية، وأرجِّح أن كتابته في رسائله كانت متأثرة أيضًا بهذه الألوان من العلوم التي حذقها فصنف فيها هذه الكتب، مضافًا إليها خصائص الكتابة في مصر التي تحدثنا عنها. وقد أورد ياقوت له بيتين من الشعر هما:

إذا ما ضاق صدري لم أجد لي ... مقر عبادة إلا القرافة

لئن لم يرحم المولى اجتهادي ... وقلة ناصري لم ألق رافة

ولعلك تلاحظ هذا الجناس بين «القرافة» و«ألق رافة»، ولا ندري مقدار استخدامه لهذه المحسنات البديعية في كتابته؛ لأننا لم نعثر على شيء منها، ولم يعمر العميدي طويلًا في الديوان؛ إذ توفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة هـ.

ثم توالى الكتَّاب بعده على ديوان الإنشاء، نذكر منها أبا الفرج الذهلي، وأبا الطاهر النهركي، ووولي الدولة موسى بن الحسن وغيرهم، إلى أن ولي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ديوان الإنشاء سنة ٤٤٣ هـ، وقد تحدثنا طويلًا عن المؤيد في الدين، ونكتفي الآن بأن نعرض صورة من رسائله التي حفظها في كتابه «السيرة المؤيدية»، من ذلك رسالته إلى الوزير اليازوري إبان خروج المؤيد لمؤازرة البساسيري في حركته المعروفة:

رسالة من كتاب المؤيد:

ووصل كتاب الحضرة العالية فاستفدت السرور بمطلعه، والسكون إلى علم مودعه، من ذكر شمول السلامة والسعادة، جعلهما الله متصلتي الأسباب، منهلتي السحاب، وفهمته. فأما ما ذكر جواباً عن قولي حين نهيت أن

(١) معجم الأدباء: ج١٧، ص٢١٢.

أرعى تاج الأمراء سمعي، لقيني بوجه التفتير في العزم، أنني ما شاهدت تاج الأمراء ولا علم لي ما يكون منه في ذلك، فإن خاطبني على شيء منه خاطبني بلسان، كل الناس به ناطقون، وعليه متفقون، لو كان كلامهم فيَّ ناجعًا، ومني موقع القبول واقعًا، إن الحضرة العالية -حرس الله عزها- عارفة بمن يلقي ذلك إليَّ على جهة الإشفاق وهو غل، والنصيحة وهو غش، وإنها لو شاءت أن تسميهم لي أو تصدر كتبهم إلي لفعلت وذكرت ورود مكاتباتهم يبذلون الخدمة في هذا الوجه، ولكنها -حرس الله عزها- تتجنب ما يوزع سري، فمن أجل ذلك تكف، فقد عرفته، ومسلم للحضرة العالية -حرس الله عزها- ثقوب الرأي والبصيرة والألمعية والمحاسن التي توحدها الله به. فأما علم الغيب فقد انتفى منه النبي صلى الله عليه وسلم بدليل الكتاب: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾، ولعله نما إليها -حرس الله عزها- ذكر رجل أو رجلين تكلما بذلك، هما قليل من كثير، ناظروني على ذلك، وقبحوا عليَّ فعلي كيف استجبت له وأنا بالقاهرة المحروسة يومئذٍ، ثم في عامة الطريق... إلخ[1].

ولعلك تلاحظ من هذه القطعة من رسالة المؤيد في الدين أنها لم تظهر فيها خصائص الكتابة في مصر، والسبب في ذلك هو أن المؤيد في الدين لم يكن مصريًّا؛ إنما وفد على مصر بعد أن استكمل خصائصه الفنية في الشعر والنثر، فلم يتأثر بمدرسة الكتاب المصريين، بالرغم من أن المؤيد كان يرى نفسه أقدر في فن الكتابة من الذين ولوا ديوان الإنشاء قبله، فهو يذكر أنه قال مرة للوزير اليازوري، وقد جرى ذكر كتاب الإنشاء: «معلوم ما كان لمتولي هذا الديوان من الجاه الوسيع والرزق السني الكثير، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة، فإن آثارهم في صناعتهم حاضرة موجودة، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والرديء،

(١) السيرة المؤيدية: ص١٠٥ (طبعة دار الكاتب المصري).

والضعيف في الصناعة والقوي، وأريد أن تعتبر مَن انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقايسة إليَّ، فإن كنت ممن يجري في حلبتهم فرسه، ويطول نحو أمرهم باعه، فأنزلني منزلتهم من الجاه والمال، وإلا فقُل لي ما أنت مثلهم، ولا في آفاقهم، فقد رضيتك حكمًا، وجئت لحكمك مستسلمًا»[١]. ولكن لا ننسى أن الذي يقول ذلك هو المؤيد في الدين، الذي عُرف بغروره وطموحه[٢].

وكان الذي ينوب عن المؤيد في ديوان الإنشاء أثناء غيابه عن مصر وسفره إلى العراق في حركة البساسيري، هو القاضي القضاعي الذي تحدثنا عنه في فصل المؤرخين، ولكن لم تصل إلينا كتاباته[٣]، وناب عنه أيضًا أبو الحسن علي بن الأنباري الذي ولي الوزارة بعد ذلك سنة ٤٥٧[٤]. ثم اختلف على ديوان الإنشاء عدد من الكتاب لم تصل إلينا أسماؤهم ولم تُحفظ آثارهم، إلى أن نلتقي باسم اثنين من أكبر كتاب ذلك العصر؛ أمَّا الأول فهو أبو الفرج الموفقي الذي وصفه العماد بقوله: «أحد كتَّاب مصر من الطبقة الأولى»[٥]. ولكن العماد لم يحدثنا بشيء عنه سوى هذه الجملة، وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر في وصف ناعوة. أمَّا الكاتب الثاني فكان معاصرًا للموفقي والمؤيد، وكان بينه وبين الموفقي بعض الرسائل، وهو ابن الشخباء.

ابن الشخباء:

أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن الشخباء، ولُقِّب بالمجيد ذي الفضيلتين، وصفه العماد بقوله: «مجيد كنعته، قادر على ابتداع الكلام ونحته، له الخطب

(١) السيرة المؤيدية: ص٩٤.
(٢) راجع مقدمة ديوان المؤيد في الدين.
(٣) السيرة المؤيدية: ص١٠٣.
(٤) الإشارة إلى من نال الوزارة: ص٥٢، وأخبار مصر لابن ميسر: ص٣٣.
(٥) الخريدة: ورقة ٥.

البديع، والملح الصنيعة»[١]. وقال ياقوت عنه: «أحد البلغاء الفصحاء الشعراء، له رسائل مدونة مشهورة»[٢]. ووصفه ابن خلكان بقوله: «صاحب الخطب المشهورة، والرسائل المحبرة، كان من فرسان النثر، وله فيه اليد الطولى»[٣]. ويقول ابن بسام في ذخيرته: «كان من البلغاء الأفراد، وأبهر نجوم تلك البلاد، طلوعًا من ثنايا الأدب، واجتناء لخبايا لسان العرب، فقد كاشف حقائقها، واستخرج دقائقها، وأحرز مسبوقها وسابقها»[٤]. إذن تكاد تُجمع هذه المصادر على علو كعبه في صناعة الكتابة، وكفايته فيها، حتى قيل: إن القاضي الفاضل كان جل اعتماده على حفظ كلامه، وأنه كان يستحضر أكثره[٥]، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضي الفاضل: إنه تلميذ ابن الشخباء؛ لأن كان يحذو حذوه في الصناعة. لم يكن ابن الشخباء مصريًّا بل كان من عسقلان، وبالرغم من أن الحدود الجغرافية تجعل عسقلان بلدًا في فلسطين، ولكن يجب ألا ننسى أن فلسطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر الطولوني، واستمرت تابعة لمصر، خاضعة لتأثيرها السياسي والفكري إلى عهد قريب، فوحدة فلسطين مع مصر أشد وأقوى من وحدتها مع البلاد الأخرى؛ فلا غرو أن رأينا ابن الشخباء العسقلاني النشأة، يتأثر بما تأثر به الكتاب الذين نشئوا وترعرعوا في مصر، بهذه الخصائص التي كانت تسود الكتابة المصرية. إلا أن ابن الشخباء استطاع بشخصيته أن يبرز ويتفوق في هذا الفن، وأن يبالغ في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى بهر معاصريه بفنه، وجعل المؤرخين يشيدون بفضله،

(١) الخريدة: ورقة ١٤.
(٢) معجم الأدباء: ج٩، ص١٥٣.
(٣) ابن خلكان: ج١، ص١٣٣.
(٤) الذخيرة: القسم الرابع، ورقة ١٨٣ (نسخة فتوغرافية بمكتبة الجامعة).
(٥) ابن خلكان: ج١، ص١٣٣.

ويُخيل إليَّ أن ابن الشخباء كان على علم تام بحل ما كان يحيط بالعرب في الجاهلية والإسلام، حافظًا لأشعارهم وحكمهم، متمكنًا من لغتهم، ويظهر ذلك في رسالته التي أرسلها إلى أبي الفرج الموفقي، ففيها يقول:

وصلت رقعة مولاي والصبح قد سل على الأفق مقضبه، وأزال بأنوار الغزالة غيهبه، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها، وثما البلاغة وأزهارها، قد توشحت بضروب من الفضل تقصر قاصية المدى، ويجري به في مضمار الأدب مفرده.

فكأن روض الحسن تنثره الصبا ... فأطلت من قرطاسها أتصفح

فأمَّا ما تضمنته من وصفي، فقد صارت حضرته السامية تتسمح في الشهادة بذلك مع مناقشتها في هذه الطريقة، وأنها لا توقع ألفاظها إلا مواقع الحقيقة، فإن كنت قد بهرجت عليها فلتراجع نقدها تجدني لا أستحق من ذلك الإسهاب فصلًا، ولا أعد لكلمة واحدة منه أهلًا، وبالجملة فالله ينهضني بشكر هذا الإنعام الذي يقف عنده الثناء ويضلع، ويحصر دونه الخطيب المصقع.

هيهات تعي الشمس كل مرامق ... ويعوق دون منالها العيوق

وأمَّا الفضل الذي أودعه الرقعة الكريمة من قوله: «فأما فلان فيحل في قومه ويفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد. قدوره عمارية، وعطسات جواريه أسدية، ويهوين لو خلق الرجال خلق الضباب، يتضوعن النشر العبقسي، ويرضعن مراضع ثعالة المجاشعي». وما أمرت حضرته السامية من ذكر ما عندي فيه، فقد تأملته طويلًا، وعثر الخادم فيه بما أنا ذاكره، راغبًا في الرضى بما بلغت إليه المقدرة، وتجليل ذلك بسجوف الصفح. أما قوله: «يفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد» فيقع لي أنه أراد خالد بن الوليد المخزومي؛ وذلك أن مسيلمة الحنفي كان قد تنبأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وحديثه مشهور -فبعث إليه أبو بكر رضي الله عنه، خالد بن الوليد المقدم ذكره في جيش كثيف من المسلمين؛ ففتح اليمامة، وقتل مسيلمة، وأباد جماعة كثيرة من بني حنيفة. وأما قوله: قدوره عمارية، فإن هذا الفصل لما كان مبنيًّا على الذم، وجب أن يتطلب لهذا السبب معنى يجب حمله عليه، ولم نجد ما ينسب إليه إلا قول الفرزدق:

لو أن قدرًا بكت من طول ما حبست ... عن الحقوق بكت قدر ابن عمار
ما مسها رسم مذ فض معدنها ... ولا رأت بعد نار القين من نار

وأمَّا قوله: «عطسات جواريه أسدية» فيقوى في وهمي أنه أراد قول الأول في هجائه:

إذا أسدية عطست فنكها ... فإن عطاسها طرق الوداق

وأمَّا قوله: «يهوين لو خلق الرجل خلق الضباب» فإن الجاحظ ذكر في كتاب الحيوان أن للضب أيرين، وللضبة حرين. وحكى أن أير الضب أصله واحد، وإنما يتفرق فيصير أعلاه اثنين، واستشهد على ذلك بقول الفرزدق:

رعين الدبا والبقل حتى كأنما ... كساهن سلطان ثياب مراجل
سيحل له نزكان كانا فضيلة ... على كل حاف في البلاد وناعل

والنزك: اسم أير الضب. وأنشد الأصمعي لابن دزماء فيما رواه أبو خالد النمري:

تفرقتم لا زلتم قرن واحد ... تفرق أير الضب والأصل واحد

ومن ها هنا قالت حبي المدنية لما عذلها أبوها في تزوجها ابن أم كلاب:

وددت بأنه ضب وأني ... ضبية كدية وجدت خلاء

وأمَّا قوله: «يتضو عن النشر العبقسي» فمن أمثال العرب: هو آخر صفقة من شيخ مهو، وهو بطن من عبد القيس بن أقصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن نزار بن معد بن عدنان، وكان من خبره أن إيادًا كانت أنس العرب، فوفد وافدهم إلى الموسم بسوق عكاظ، ومعه حلة نفيسة، فقال: يا معشر العرب، مَن يشتري مني مثلبة قوم لا تضره بحلتي هذه؟ فقال الشيخ المهوي: أنا أشتريها. فقال الإيادي: اشهدكم يا معشر العرب أني قد بعت فساء إياد لوافد عبد القيس بحلتي هذه، وتصافحا وافترقا متراضيين، وقد شهد عليهما أهل الموسم فصارت ...

فصارت عبد القيس أفسى العرب، وقيل لابن مناذر: كيف الطريق إلى عبد القيس؟ فقال: شم ومر.

فإن عبد القيس من لؤمها ... تفسو فساء ريحة تعبق
من كان لا يدري لها منزلًا ... فقل له يمشي ويستنشق

وأمَّا قوله: «أعطش من ثعالة المجاشعي»، فمن أمثال العرب فيما ذكره الكلبي قال: هما رجلان من بني مجاشع عطشا، فالتقم كل واحد منهما أير صاحبه يشرب بوله، فلم يغن عنهما شيئًا، وماتا عطشًا ووُجِدَا على تلك الحال، قال جرير يهجو بني دارم:

رضعتم ثم بال على لحاكم ... ثعالة حين لم يجدا الشرابا

هذا ما وقع لي في هذا الفصل، وأرجو أن أكون قد ذهبت إلى ما قصده قائله[1].

ففي هذه الرسالة نرى كيف حاول ابن الشخباء أن يشرح بعض النصوص التي غمضت على أبي الفرج الموفقي، فكان يستعين على هذا الشرح بما ورد في

(١) معجم الأدباء لياقوت: ج٩، ص١٥٧.

كتب القدماء، من التاريخ حينًا ومن الشعر حينًا آخر، وبالأمثال مرة، وبما رواه الجاحظ عن الحيوان مرة أخرى، فهذا كله يدل على أن ابن الشخباء كان ملمًّا بهذه الألوان من الثقافة والعلوم، وأنه كان يستخدمها في كتاباته، بل في شعره أيضًا.

نرى ظاهرة أخرى في هذه الرسالة؛ وذلك أن ابن الشخباء كان يحلي كتاباته بأبيات من الشعر تناسب ما جاء في نثره، وهذه الظاهرة ليست جديدة على الكتابة المصرية، ولكن ابن الشخباء أكثرَ منها بحيث لا نكاد نرى رسالة من رسائله التي حُفِظت تخلو من هذه الظاهرة، ولا سيما رسائله إلى إخوانه وأصدقائه، فمن ذلك ما كتبه إلى صديقٍ له:

لما حديت ركاب مولاي أخذ صبري معه، وصحبه قلبي وتبعه.

فعجبت من جسم مقيم سائر كمسير بيت الشعر وهو ومقيد

وبقيت بعده أقاسي أمورًا تخف الحليم، وترعى الهشيم، إن رجوت منها غفلة اقتحمت، وإن رمتُ منها فرجة تضايقت والتحمت. وأما الوحشة فقد اصطحبت منها كأسًا مترعة، وتجرعت من صابها أمر جرعة، ورأيت فؤادي إذا مرَّ ذكر مولاي يكاد يخرج من خدره، ويرغب في مفارقة صدره، حنينًا يجدده السماع، وصدودًا تنتفض منه الأضلاع، وزفرة يدمى في غرارها، ويطلع في الترائب شرارها.

أداري شجاها كي تخلي مكانها وهيهات ألقيت رحلها واطمأنت

وأمَّا ما أعاني بعد مسيره فأشياء، منها عبث الألم مرة، وزوال الاستمتاع بما يعرفه من تلك المسرة، ومنها اضطراري إلى كثرة مكابرة من أعلم دخل

سرائره، واختلاف باطنه وظاهره، وتكلف اللقاء له بصفحة مستبشرة، وأخلاق غير متوعرة ... إلخ[١].

ولعلك تلاحظ مما أوردناه من فن ابن الشخباء في الكتابة أنه استخدم جميع الخصائص المصرية في الكتابة؛ فنجد الكتابة المسجوعة، واستخدام التشخيص والتصوير ومراعاة النظير، إلى غير ذلك من هذه المحسنات التي أكثر منها المصريون، وقد أصيب هذا الكاتب البارع بنكبة لا ندري سببها؛ إذ حُبس في خزانة البنود، ثم قُتل سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة[٢]. ويذهب ابن ميسر أنه قُتل سنة ست وثمانين وأربعمائة، وأنه أنشد وهو في سجنه:

أصبحت تخرجني بغير جريمة ... من دار إكرام لدار هوان
كدم الفصاد يراق أرذل موضع ... أبدًا ويخرج من أعز مكان
ثقلت موازين العباد بفضلهم ... وفضيلتي قد خففت ميزاني[٣]

وفي عهد المستنصر أيضًا ولي أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي ديوان الإنشاء، بعد أن صُرف عن الوزارة سنة ٤٥٢هـ، ولا أدري كيف يقول المقريزي عنه: وكان الوزراء إذا صُرفوا لم يتصرفوا، فاقترح أبو الفرج بن المغربي لما صُرف أن يتولى بعض الدواوين، فولي ديوان الإنشاء الذي يُعرف اليوم بوظيفة كتابة السر، وهو الذي استنبط هذه الوظيفة بديار مصر[٤]. وواضح هذا التخبط الذي وقع فيه المقريزي؛ فإن ديوان الإنشاء في الديار المصرية أقدم عهدًا من أبي الفرج بن المغربي، بل أقدم عهدًا من الدولة الفاطمية، وقد ذكرنا أن ديوان الإنشاء وُجِد بمصر منذ عهد أحمد بن طولون.

(١) معجم الأدباء لياقوت: ج٩، ص١٥٤.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص١٣٤.
(٣) تاريخ مصر لابن ميسر: ص٢٩.
(٤) خطط المقريزي: ج٣، ص٢٥٧.

ومهما يكن من شيءٍ فإن أبا الفرج أحد أفراد بني المغربي الذين كان لهم شأن كبير في الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز، ولكن نشاطهم كان سياسيًّا أكثر منه أدبيًّا، حقًّا تحدث عنهم ابن القارح في رسالته، وتبودلت رسائل إخوانية بين أبي القاسم بن المغربي وبين أبي العلاء المعري، ولكن هذه الرسائل كانت إبان فرار بني المغربي من مصر واستقرارهم في العراق حينًا، وفي ديار بكر حينًا آخر، ولذلك آثرنا ألا نتحدث عنهم طويلًا في هذا البحث، وكذلك لم تصل إلينا رسائل أبي الفرج بن المغربي الذي ولي ديوان الإنشاء سنة ٤٥٢هـ.

وتمر السنون على ديوان الإنشاء، ويتعاقب عليه الكتاب، حتى نلتقي بكاتب من أكبر كتاب الدولة الفاطمية، ومن أحسنهم حظًّا، فقد انتهت إلينا بقية صالحة من رسائله وسجلاته، بل بقي لنا كتابان من كتبه الكثيرة التي صنَّفها، ذلك الكاتب هو ابن الصيرفي المولود في شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة هـ.

ابن الصيرفي:

قال ياقوت: الشيخ الفاضل علي بن منجب بن سليمان الصيرفي، أحد فضلاء المصريين وبلغائهم، مسلم ذلك له غير منازع فيه، وكان أبوه صيرفيًّا، واشتهى هو الكتابة فمهر فيها[١]. ويحدثنا ابن ميسر أن ابن منجب الصيرفي أخذ صناعة الترسل على ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء، وبه سناء الملك أبو محمد الحسيني الزيدي[٢]. ويذكر ياقوت أن الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي استخدم ابن منجب في ديوان المكاتبات ورفع من قدره وشهره، ثم إنه أراد أن يعزل الشيخ ابن أبي أسامة عن ديوان الإنشاء، ويفرد ابن الصيرفي به، واستشار في ذلك

(١) معجم الأدباء: ج١٥، ص٧٩.

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر: ص٨٧.

بعض خواصه ومن يأنس به، فقال له: إن قدرت أن تفدي ابن أبي أسامة من الموت يومًا واحدًا بنصف مملكتك، فافعل ذلك ولا تخلي الدولة منه فإنه جمالها[١]. وقد وصف المقريزي ابن أبي أسامة بقوله: الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن أبي أسامة، صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله، وكانت له رتبة خطيرة ومنزلة رفيعة، ويُنعَت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف، ولم يكن أحد يشاركه في هذا النعت بديار مصر في زمانه[٢].

فنحن إذن أمام كاتب أخذ الصنعة عن عدد من شيوخ الكتابة في مصر في العصر الفاطمي، فقد كان بين يدي الشريف سناء الملك الذي كان كاتبًا في أواخر أيام المستنصر، وهو الذي كتب سجل تولية المستعلي[٣]، وأصبح له ديوان الإنشاء في عهد الآمر، ثم ولي الديوان بعده الشيخ ابن أبي أسامة حتى سنة ٥٢٢هـ، فأصبح الديوان لابنه أبي المكارم إلى أن توفي أيام الحافظ، فولي ابن منجب الصيرفي الديوان بعده، فهذه المدة الطويلة التي قضاها ابن منجب الصيرفي في الديوان من أسباب شهرته في الكتابة، وذيوع عدد من رسائله وحفظها، وبالرغم من أنه أصبح رئيسًا لديوان الإنشاء في عهد الحافظ، فإنه هو الذي كتب سجل انتقال المستعلي وولاية الآمر سنة ٤٩٥هـ[٤]، ثم نراه يكتب سجلات كثيرة، وهو لم يزل كاتبًا في الديوان؛ منها ذلك السجل الذي كتبه في شهر المحرم ٥٠١هـ الخاص بالخراج، وتحويل السنة الخراجية، وقد جاء في هذا السجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) معجم الأدباء: ج٥، ص٧٩.
(٢) خطط المقريزي: ج٣، ص١٤٠.
(٣) ابن ميسر: ص٣٥.
(٤) المصدر نفسه: ص٤.

الحمد لله الذي ارتضى أمير المؤمنين أمينه في أرضه وخليفته، وألهمه أن يعم بحسن التدبير عبيده وخليفته، وأورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر، وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة في المحشر، وعناهم بقوله: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾، وأعلى منار سلطانه بمدبر أفلاك دولته، ومبيد أعداء مملكته، وأشرف من نصب للجند علمًا وراية، ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه، السيد الأجل الأفضل، الذي نبه في السياسة على ما أهمله من سبقه، وأغفله مَن تقدَّمَه، وتتبع أحوال المملكة فلم يدع مشكلًا إلا أوضحه وبين الواجب فيه، ولا خللًا إلا أصلحه وبادرَ بتلافيه؛ إيثارًا لعمارة الأعمال وقصدًا لما يقضي بتوفير الأموال، واعتناء برجال الدولة العلوية وأجنادها، واهتمامًا بمصالحهم التي ضعفت قواهم عن ارتيادها، ورعاية لمن ضمته أقطار المملكة من الرعايا، وحملًا لهم على أعدل السنن وأفضل القضايا. يحمده أمير المؤمنين على ما أعانه عليه من حسن النظر للأمة، وادخره لأيامه من الفضائل التي ضفت بها ملابس النعمة، ويرغب إليه بالصلاة على محمد الذي ميزه بالحكمة وفصل الخطاب، وبين به ما استبهم من سُبل الصواب، وأنزل عليه في محكم الكتاب: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كافيه فيما أعضل لما عدم المساعد، وواقيه بنفسه لما تخاذل الكف والساعد، وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين برضى الله تعالى فيما يقولون ويفعلون، والذي يهدون بالحق وبه يعدلون ... إلخ[1].

فهذا السجل صورة من صور الكتابة التي تظهر فيها خصائص الكتابة في مصر الفاطمية، تلك الخصائص التي تحدثنا عنها من قبلُ، وهي التي تجدها عند

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٤٩.

كل الكتاب تقريبًا، وهذه الخصائص تظهر في كل الرسائل والسجلات التي انتهت إلينا عن ابن الصيرفي، من ذلك ما كتبه في عيد النصر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة هـ، وعيد النصر هذا من الأعياد التي ابتُدِعت في القرن السادس للهجرة تذكارًا لخلاص الخليفة الحافظ من سجنه، فقد استبد وزيره أبو علي بن الأفضل الملقب بكتفيات، بالأمر وسجن الخليفة سنة ٥٢٤هـ، فلما قُتل الوزير في سادس عشر المحرم سنة ٥٢٦هـ أُخرج الخليفة من معتقله، واتُّخِذَ هذا اليوم عيدًا أسماه عيد النصر، ففي ذكرى هذا العيد كتب ابن منجب إلى بعض الخطباء للاستعداد لهذا العيد:

عيد النصر وهو أفضل الأعياد وأسناها وأعلاها، وأدلها على تقصير الواصف إذا بلغ وتناهَى، ونحن نأمرك أن تبرز في يوم الأحد السادس عشر من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التي جرت العادة بمثلها في الأعياد، وتقرأ على الناس الخطبة التي سيرناها إليك قرين هذا الأمر بشرح هذا اليوم وتفصيله، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفضيله، وتعتمد في ذلك ما جرى الرسم فيه في كل عيد، وتنتهي فيه إلى الغاية التي ليس عليها مزيد. فاعلم هذا، واعمل به إن شاء الله تعالى.

ولم يكن ابن الصيرفي كاتبًا من كتاب الرسائل فحسب؛ بل كان مؤرخًا ومصنفًا، ومن تصانيفه: كتاب عمدة المحادثة، وكتاب عقائل الفضائل، وكتاب استنزال الرحمة، وكتاب منائح القرائح، وكتاب رد المظالم، وكتاب في السكر، وله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبي العلاء المعري وغيرهما، وهذه الكتب كلها مفقودة الآن، وإنما وصل إلينا من كتبه كتابان: الأول قانون ديوان الرسائل، والثاني كتاب الإشارة إلى مَن نال الوزارة.

أمَّا الكتاب الأول «قانون ديوان الرسائل»، فقد صنفه ابن منجب لكي يكون قانونًا يعرف به من يجب أن يولى رياسة ديوان الرسائل، ومَن يجب أن

يكون تلوه في المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحدًا واحدًا من الخدام الذين لا غنى عنهم، والصفات التي ينبغي أن يكون عليها كل واحد منهم، التي إذا سُلِكت في هذا الديوان أدت إلى ضبط أموره، وأمن معها من اختلال شيء منها وفساد يدخل عليها، وسهل وجود ما يلتمس من علم أمور تقادم عهدها وبعدت أزمنتها[١]، فكأنه أراد أن يجعل من كتابه هذه دستورًا لاختيار كتَّاب الرسائل، وهو يصرح في مقدمته أن السبب الذي من أجله صنف هذا الكتاب أنه: «لما رأيت أولي الفطر الصحيحة والعقول الرجيحة، قد سبقوا إلى النظر في سائر العلوم، ووضعوا فيها المصنفات، ونظموا ذكرها في الكتب والمؤلفات، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء، فقرَّروا في كل منها ما كان أصلًا يُعتمد عليه، ونهوا عما كان فسادًا لنظامها أو أدَّى إليه، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات، لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات، فوجدتهم قد صنَّفوا في كتابة الخراج كتبًا كثيرة، وعنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة، فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته، واقتضاه ما أوجبه وقته، والبلد الذي يحتله، فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه، فقد أكثر كلٌّ منهم فيه المقال، وتوسَّع في تصنيفه وأطال، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدرًا، النبيهة ذكرًا، الرفيعة شأنًا، العلية مكانًا، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدول، والمكاتبة عنه إلى مَن قلَّ من الأمم وجل، وكيف يجب أن يكون متوليها وما يخصه من الأخلاق والأدوات، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل، وأن يجتنبه من القبائح والرذائل...»[٢].

(١) قانون ديوان الرسائل: ص٩١ (طبعة مصر سنة ١٩٠٥).

(٢) قانون ديوان الرسائل: ص٨٨.

هذا السبب الذي من أجله ألَّف كتابه هذا، ولكن هل حقيقة قصر المؤلفون في الحديث عن الكتابة بحيث لم تُوضع كتب مثل قانون ديوان الرسائل؟ من الحق علينا أن نقول: إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست سهلة هينة، فإن أكثر كتب القدماء فُقِدت وإن بقي أسماء بعضها، وقد عرضت بعض المراجع العامة العربية التي تهتم بسرد كتب المؤلفين، مثل: الفهرست، ومعجم الأدباء، وكشف الظنون وغيرها، فوجدت بعض المؤلفين وضعوا كتبًا في الكتابة والكتَّاب، نذكر منهم عبد الحميد الكاتب الذي وضع رسالة إلى الكتاب، يتحدث فيها عن فضيلة الصناعة، وما يجب عليهم أن يتبعوه حتى يجودوا صناعتهم[١]. ووضع الصولي أدب الكتَّاب، وألف ابن قتيبة أدب الكاتب. ونذكر أحمد بن سهل البلخي صاحب كتاب فضل صناعة الكتابة[٢]، وأحمد بن محمد بن يوسف الأصفهاني صاحب كتاب طبقات البلغاء، وكتاب أدب الكتاب[٣]، وأحمد بن محمد بن الفضل الأهوازي مؤلف كتاب مناقب الكتاب[٤]، وأحمد بن محمد النحاس المصري المتوفى سنة ٣٣٧هـ، صاحب أدب الكتاب وصناعة الكتاب[٥] وغيرهم. وأكثر هذه الكتب لم تصل إلينا، فلم نعرف ما اشتملت عليه، ولكن من أسمائها نستطيع أن نرجح أنها تختلف بعض الاختلاف عما أراده ابن منجب من كتابه «قانون ديوان الرسائل»، فإن كتابه في الحديث عن الأحوال التي يجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء، وعن العلوم والمعارف التي يجب أن يكون حاصلًا عليها، وعن اختصاصه في عمله، ثم تحدث بعد ذلك عن معاونيه من الكتاب في الديوان، فجعل لكل عملٍ

(١) تجد الرسالة في كتاب رسائل البلغاء، وفي كتاب الوزراء، والكتاب للجهشياري.
(٢) معجم الأدباء: ج٣، ص٦٦.
(٣) المصدر نفسه: ج٥، ص١٣٥.
(٤) معجم الأدباء: ج٤، ص٢٤٤.
(٥) المصدر نفسه: ج٤، ص٢٢٨.

كاتبًا خاصًّا له مميزات خاصة، فمن يُستخدم لتخريج الكتب الواردة له صفات خاصة، ومن يستخدم برسم الإنشاء له خصائص، ومن يكون ناسخًا في الديوان له مميزات، وهكذا.

فكتاب ابن منجب في أغلب الظن يختلف عن الكتب التي وُضعت في الكتاب والكتابة؛ لأنه يتحدث قبل كل شيء عن نظام ديوان الرسائل، ثم عن موظفيه، فهو صورة مختصرة جدًّا للكتاب الذي أُلِّف بعد ذلك، وهو كتاب صبح الأعشى للقلقشندي.

أمَّا الكتاب الثاني الذي بقي لنا من كتب ابن منجب، فهو كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» ... فهو كتاب تاريخ مَن ولي الوزارة في عهد الدولة الفاطمية، سجَّل فيه ابن منجب اسم كل وزير وتاريخ توليته وما لُقِّب به، وما تم على يديه من أعمال، فهو من أهم الكتب التي تتحدث عن تاريخ الفاطميين.

ولابن منجب عدة مقطوعات من الشعر، ولكنه لم يُعرف بالشعر كما عرف بالكتابة، وروى له ياقوت قوله:

لما غدوت مليك الأرض أفضل من ... جلت مفاخره عن كل إطراء
تغايرت أدوات النطق فيك على ... ما يصنع الناس من نظم وإنشاء

وقوله:

لا يبلغ الغاية القصوى بهمته ... إلا أخو الحرب والجرد السلاهيب
يطوى حشاه إذا ما الليل عانقه ... على وشيج من الخطى مخضوب

ولكن ابن منجب لم يُعَد بين الشعراء بالرغم من أن شعراء المائة الخامسة كان أكثرهم من كتاب الإنشاء، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان مُقِلًّا في الشعر مُكثرًا في الرسائل، حتى قيل: إن ديوان رسائله يزيد على أربعة مجلدات.

وتوفي ابن منجب في يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة ٥٤٢هـ[١]، ولكن ياقوت يذهب إلى أنه توفي في أيام الملك الصالح بن رزيك بعد سنة خمسين وخمسمائة[٢]، وليس بين أيدينا شيء من النصوص التي تجعلنا نرجح إحدى الروايتين.

أبو الفتح بن قادوس:

كان مع ابن الصيرفي في ديوان الإنشاء كاتبان شاعران من أقدر كتاب مصر الفاطمية وشعرائها؛ أما الأول فهو الفاضل المفضل كافي الكفاء أبو الفتح محمود بن القاضي الموفق إسماعيل بن حميد الدمياطي المعروف بابن قادوس، شاهد عصر الأفضل بن بدر الجمالي، وامتدت به الحياة إلى أن توفي في عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك؛ أي أنه عاصرَ شعراء مصر وكتابها في النصف الأول من القرن السادس، وعرف اتجاهاتهم الفنية في الشعر والكتابة، فلا غرو أن نرى أمية بن أبي الصلت يتحدث عنه في رسالته المصرية، ونرى العماد يقول عنه: «أشعاره محكمة النسيج، كالدر في الدرج»[٣]. ووصفه ابن ميسر بقوله: «كان من أماثل المصريين وكتابهم، مقدمًا عند ملوكهم»[٤]. لم يصلنا شيء عن حياة هذا الكاتب الشاعر، فقد فُقدت ترجمة حياته، كما فُقدت تراجم رجال مصر الفاطمية، ومع ذلك فقد حُفظت في بعض المراجع قصته مع زميله وصنوه أبي علي حسن بن زبيد الأنصاري، وكيف كان ابن قادوس سببًا في أن يلقى زميله حتفه على نحو ما ذكرنا من قبل، فإن هذه القصة تدل على أن ابن قادوس بالرغم مما قاله القدماء عن فضله وكفايته في صناعتي الشعر والنثر، فإنه كان ضعيف الخلق، يحسد زملاءه ويُوقع بهم في المهالك. وهناك قصة

(١) تاريخ مصر لابن ميسر: ص٨٧.
(٢) معجم الأدباء: ج١٥، ص٧٩.
(٣) الخريدة: ورقة ٤٩.
(٤) تاريخ مصر لابن ميسر: ص٩٧.

أخرى يرويها القدماء عنه، وهي انتصاره للجليس بن الحباب، فقد ذكرنا أن ابن الصياد الشاعر كان مولعًا بهجاء الجليس، كثير الدعاية بأنفه، حتى قيل: إن مقطعات ابن الصياد في ذلك بلغت ألف مقطوعة، فانبرى له ابن قادوس ينتصر للجليس قائلًا:

يا من يعيب أنوفنا الشم التي ليست تُعَاب
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب[1]

فما الذي جعل ابن قادوس ينتصر للجليس؟ لا شك في أن ضعف خُلُق ابن قادوس جعله يتوهم أن الجليس ربما ساعده في الوصول إلى مآربه الشخصية في الديوان، أو في غير الديوان من مناصب الدولة، بحكم تلك الصلة القوية التي كانت بين الجليس والخليفة الفاطمي من ناحية، وبين الجليس والملك الصالح طلائع بن رزيك من ناحية أخرى، فلذلك انتصر للجليس، ولولا أطماعه ما كان ينشد هذين البيتين.

مهما يكن من شيء، فإن ابن قادوس كان من أماثل الكتاب في القرن السادس الهجري، فالرسائل التي بقيت لنا من إنشائه تدل على مقدرته وعلو كعبه في الإنشاء؛ فمن إنشائه ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة في عيد النحر، ومنها:

أمَّا بعد، فالحمد لله ماحي دنس الآثام بالحج إلى بيته الحرام، وموجب الفوز في المعاد لمن عمل بمراشد أئمة الهدى الكرام، ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام، ومحول الغفران لمن كان بفرائض الحج ونوافله شديد الولوع والغرام، وصلى الله على جدنا محمد الذي لبى وأحرم، وبين ما أحلَّ الله وحرم، وعلى أخيه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي

(١) الخريدة: ورقة ٦٨.

طالب الذي ضرب وكبر، وحقر مَن طغى وتجبر، وعلى الأئمة من ذريتها أعلام الدين، وحتوف المعتدين، وسلم وكرم، وشرَّف وعظَّم، وإن من الأيام التي كملت محاسنها وتمت، وكثرت فضائلها وجمت، ووجب تخليد عز صفاتها، وتعين تسيطر تأثيراتها، يوم عيد النحر من سنة (كذا): وكان من قصصه أن الفجر لما سل حسامه، وأبدى الصباح ابتسامه، نهض عبيد الدولة في جموع الأولياء والأنصار، وأولي العزيمة والاستبصار، ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفنيتها، ومستملين بسعادتها، وتألفوا صفوفًا تبهر النواظر، ويخجل تألفها تألف زهر الروض الناضر، مستصحبين فنونًا من الأزياء تروق، ومستتبعين أصنافًا من الأسلحة يغض لمعها من لمع اللهب والبروق، والأعلام خافقة، والرياح بألسنة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة، فأقاموا على تشوف لظهوره، والتطلع للتبرك بلامع نوره، ولما بزغت شمس سعادته، وجرت الأمور على إيشاره وإرادته، وبدت أنوار الإمامة الجليلة، وظهرت طلعتها المعظمة البهية، خرَّ الأنام سجودًا بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنهم العبيد بنو العبيد، واستقل ركابه أمير المؤمنين، ووزيره السيد الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه، وناضل عن حوزة الدين وجاهد، وناصل أحزاب الكفار وناهد، يقوم بأحكام الوزارة، وتدبير الدولة تدبير أولي الإخلاص والطهارة، ويتبع آراء المؤمنين فيما تنفذ به أوامره، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره، ويحسن السياسة والتدبير، ويتوخى الإصابة في كل صغير أمور الدولة العلوية وكبير، ويخلص لله جلَّ وعزَّ ولإمامه، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد في إعمال لهذمه وحسامه.

وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في إثره، متوافقة على امتثال أمره، قد رفعت السنابك من العجاج سحابًا، وخيلت جنن الجند للناظرين في البر عبابًا، والجياد المسمومة تموج في أعِنَّتها، وتختال في مراكبها وأجلتها، وتسرع فتكسب

الرياح نشاطًا، وتفيد المتعرض لوصفها إفراطًا، وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلوًّا واشتطاطًا، وأصوات مرتفعة بالتهليل، وأصوات الحديد تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل، ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل، وترض سنابكها الهضاب، وتغدو صلابها كالكثيب المهيل ...[١].

وكتب ابن قادوس بالبشارة بوفاء النيل:

النعم، وإن كانت شاملة للأمم، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم، فأولاها بشكر تنشر الآفاق أعلامه، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه، نعمة يشترك في النفع بها العباد، وتبدو بركتها على الناطق والصامت الجماد، وتلك النعمة النيل المصري الذي تبرز به الأرض الجرز في أحسن الملابس، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس، وترى الكنوز ظاهرة للعيان، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان، فسبحان من جعله سببًا لإنشار الموات، وتعالى مَن ضاعف به ضروب البركات، ووفَّر به مواد الأرزاق والأقوات ...إلخ[٢].

هذان مثلان مما كتبه ابن قادوس من سجلات هي من خصائص مصر، فلا ينازع مصر بلد آخر في هذا اللون من السجلات، ولا سيما في البشارة بوفاء النيل، ولكن اللون الآخر، وهو ركوب الإمام الفاطمي لصلاة عيد النحر، فهو من ترتيب الدولة الفاطمية، وقد رأينا تأثير العقائد الفاطمية في السجل الفاطمي، مما لا يدع شكًّا في أن العقائد أثرت في الكتابة كما أثرت في الشعر، أضِفْ إلى ذلك كله هذه الصنعة الفنية في الكتابة التي رأيناها عند جل كتَّاب الفاطميين، وقد حفظ العماد قطعة من رسالة لابن قادوس كتبها إلى ابن معروف، وتظهر في هذه الرسالة صنعته الفنية التي ظهرت في السجلين السابقين:

---

(١) صبح الأعشى: ج٨، ص٣٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٢٨.

أطال الله بقاء الحضرة لغرائب مجد يبتدعها، وفرائض جود يشرعها، وقوادم يذلل صعابها، ومسايف سعود يطرق جنابها، وأدام أيامها التي هي للدهر تمائم، وفي المحل غمائم:

غرر من الأيام توضح فخرها ... والدهر من ظلم النوائب عاتم
ملك تملكه الندى وتجمعت ... في راحتيه غمائم وسمائم
فالروض يجدب وهو روض ممرع ... والغيث يقلع وهو غيث دائم

وشتان ما بينهما، تلك سحاب قد رعدت بوارقها، وعدت صواعقها، وروض يجف نباته، وتضوع زهراته، ومكارم الحضرة تزيد جدة على التكرار، وتماثل فعل الفلك المدار، فهي تباري الشمس نهارًا، وتزور مزار الطيف سرارًا:

مننن بغير أهلة مستورة ... فطلعن في فلك العلا أقمارا
ومواهب ومناقب ومناسب ... رفعت له فوق السماك منارا[1]

وتوفي ابن قادوس سنة ٥٥١ في سابع المحرم، وقيل: إن الملك الصالح حضر من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه، ومشى في جنازته إلى تربته عند مسجد الأقدام[2]. ووافق العماد على تاريخ وفاة ابن قادوس على هذا النحو، غير أن المقريزي روى قصة طويلة زعم فيها أن أبا الفتح يانس الأزمني وزير الحافظ لما عظم شأنه سنة ٥٢٦هـ وثقل على الخليفة أخذ كل منهما في التدبير على الآخر، فأعجل يانس وقبض على حاشية الخليفة، ومنهم قاضي القضاة وداعي الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح ابن قادوس وقتلهما، فاشتد ذلك على الحافظ وعمل على سم وزيره[3]. أي أنه ذهب إلى أن ابن قادوس قُتل سنة ٥٢٦هـ،

(١) الخريدة: ورقة ٥١.
(٢) ابن ميسر: ص٩٧.
(٣) خطط المقريزي: ج٣، ص٢٧.

وقد وهم المقريزي في هذه الرواية؛ فإن الأدلة تكاد تُجمِع على أن ابن قادوس شاهد عصر الملك الصالح طلائع بن رزيك، من ذلك أن قصة ابن قادوس مع أبي علي حسن بن زبيد الأنصاري كانت في الخلاف بين حسن بن الحافظ وأبيه، وهذا الخلاف نشأ بعد سنة ٥٢٦هـ، ونحن نعلم أن ابني الزبير لم يتقدما في الديوان إلا بعد قتل الظافر سنة ٥٤٩هـ، بل لم يكن لهما ذكر في الدولة قبل هذا التاريخ، وقد روينا هجاء ابن قادوس لابن الزبير، فمعنى هذا أن هذا الهجاء كان بعد مقتل الظافر؛ أي بعد سنة ٥٢٦هـ أيضًا. ومن ذلك أن العماد يحدثنا أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يغري ابن الصياد بأنف الجليس بن الحباب، فأنشد ابن الصياد هذه المقطعات التي أشرنا إليها مرارًا، ولم يسكته إلا ابن قادوس، فنفهم من ذلك أن ابن قادوس حضر عهد الملك الصالح، أضفْ إلى ذلك ما رواه ابن خلكان: أن الخليفة العاضد الفاطمي أشركَ ابن قادوس مع الموفق بن الخلال في ديوان الإنشاء، وإذن فنحن نؤيد رواية العماد وابن ميسر، أنه توفي سنة ٥٥١هـ.

أما الشاعر الكاتب الثاني، فهو أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري الذي كان ابن قادوس سبب قتله، وقد تحدثنا عنه شاعرًا، أما صفته الكتابية، فقد وصفه العماد بأنه كان من المقدمين في ديوان المكاتبات[١]، وقال مرة أخرى: «ومن نثره ما يدل حسنه على رونق فرنده»[٢]. وحقًّا، كان أبو علي الأنصاري من الكتاب الذين ملكوا ناصية اللغة والمقدرة على التصرف بالألفاظ، فكان يضع اللفظ فيما خصص له، ويختار من الألفاظ ما يناسب المعنى الذي قصده مع التزامه الخصائص الأخرى التي رأيناها عند غيره من الكتاب، ومن هنا ظهرت

(١) الخريدة: ورقة ١١٠.

(٢) المصدر نفسه: ورقة ١١٤.

مواهب أبي علي الأنصاري في النثر كما ظهرت من قبل في الشعر. اقرأ هذه الرسالة التي كتبها إلى صديق له يهنئه بالشفاء من مرض:

«إذا قدم الوداد، وصحَّ الاعتقاد، ووصفت الضمائر، وخلصت السرائر؛ حلَّ الإخاء المكتسب، محل أخوة النسب، وصار المتعاقدان على الإيثار، والمتحابان على بُعد الدار، متساهمين فيما ساء وسرَّ، ومتشاركين فيما نفع وضرَّ، وتلك حالي وحال حضرة مولاي، فإني وإياها كنفس قُسمت على جسمين، وروح فُرِّقَت بين شخصين، فما آلمها فقد مضى وأزعجني، وأما برؤها فقد سرني وأبهجني، وعرفت خبر إبلالها من ألم كان بها، فشكرت الله على خلتين معًا، ونفعين اجتمعا: أحدهما أنني أعلم تألمها، فكنت ألاقي ما يكدر الشراب، ويمنع تلاقي الأهداب، وأجد على حال الصحة ما يجد المريض، وأرى الدنيا على إيثارها بعين البغيض، والآخر علمي ببرئها عند حلوله، ومعرفتي به عند تحييمه بساحتها ونزوله»[1].

واقرأ له يهنئ صديقه بمولود:

«وردت البشارة السارة بالقادم الأمجد، المستقبل بالطالع الأسعد، وأخذ الملوك من المسرة بأوفر حظ الأولياء المخلصين في الولاء، المغمورين بجزيل الآلاء، وسأل الله سبحانه تخليد الأيام المالكية مديدة الأمد، وافرة العدد، نامية الأهل والولد، حتى يرى هذا المبشر بقدومه ممتطيًا صهوات الجياد، مخوف الشذا يوم الجلاد، يخفق وراءه اللواء، وتخاف سطوته الأعداء، وتخص البلاد بقواضبه، وتشنف الأسماع بذكر مناقبه، وترى من أولاده أمجادًا عن الإسلام ذادة، وأملاكًا لامتلاك البلاد سادة، لا زالت تبلغ أقصى الأماني، وتسمع نغم التهاني، وتمد ظلها على القاصي والداني»[2].

(١) المصدر نفسه: ص١١٥.

(٢) الخريدة: ورقة ١١٥.

ثم اقرأ له هذه القطعة من رسالة في العزاء بغريق:

«لعمري لقد نزَّهه الله عن سهك الجرباء، وملاقاة الحصباء، والمقام تحت أديم الأرض، وانطباق بعضها على البعض، ورفعه عن أن يذل في الحدث جبينه، ويعفر في العثير عرنينه، فجعل ضريحه في شبهه جوادًا وكرمًا، وضريبه محاسن وشيمًا، فتضمنه الماء، وتغطمط فوقه الدأماء، فإذا استسقى السحاب، واستسمح التراب، فهو في البحر الوافر، واللج الزاخر، بحيث تتفرَّع المناهل، ويرد كل ناهل»[١].

فهل رأيت كيف كان أبو علي الأنصاري فنانًا يجيد صناعته، فينتقي من اللفظ أجوده، ومن المعاني أسماها وأجملها؟ فلا عجب أن رأينا ابن قادوس يحسده على مهارته، ويخشى منافسته، فدبَّر المكيدة التي أدَّتْ به إلى حتفه.

الموفق ابن الخلال:

ولعل آخر مَن ولي ديوان الإنشاء في مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال، الملقب بالموفق، وقد وصفه العماد بقوله: «هو ناظر مصر وإنسان ناظرها، وجامع مفاخرها، وكان إليه الإنشاء، وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء»[٢]. ويذهب ابن خلكان إلى أن الموفق كان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في أيام الحافظ، وأنه استمر في مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية[٣]. ويُعَدُّ الموفق ابن الخلال الأستاذ المباشر للقاضي الفاضل، وقد روينا كيف وفد القاضي الفاضل إلى ديوان الإنشاء، ومثل بين يدي الموفق ولازَمَه، وتدرب بين يديه، وكيف طلب منه الموفق أن ينثر ديوان الحماسة مرة بعد أخرى، إلى أن أجاد القاضي الفاضل فنَّ الترسل، وبلغ هذه الدرجة الرفيعة

(١) المصدر نفسه: ورقة ١١٨.

(٢) ابن خلكان: ج٢، ص٤٠٧.

(٣) المصدر نفسه، وهذا ما يفهم أيضا من أقوال القلقشندي في كتاب صبح الأعشى: ج١، ص٩٦.

في هذا الفن؛ لذلك يقول ابن خلكان: «ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن، وعجز عن الحركة، فانقطع في بيته. ويقال: إنَّ القاضي الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم، فكان يُجرِي عليه كل ما يحتاج إليه»(١).

وابن الخلال أحد الذين ذكرهم عمارة اليمني، فقال: «ووجدت بحضرته (أي بحضرة الصالح بن رزيك) من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الحباب، والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، ويرمي شاكلة الإشكال فيصيب»(٢). إذن تكاد تُجمع المصادر التي بين أيدينا، والتي حدَّثتنا عن الموفق بن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل، وعلى براعته في فن الترسل، وقد حفظ من إنشائه سجل كتبه بولاية شاور الوزارة لثاني مرة؛ أي بعد انتصاره على ضرغام، جاء فيه:

«سلام عليك، فإنَّ أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وسلم تسليمًا. (أمَّا بعد)، فالحمد لله مانح الرغائب ومنيلها، وكاشف المصاعب ومزيلها، ومذل كل عصبة كلفت بالغدر والشقاق ومذيلها. ناصر مَن بغى عليه، وعاكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه، وراد الحقوق إلى أربابها، ومرتجع المراتب إلى مَن هو أجدر برقيها وأوابها، ومسني الخير بتيسير أسبابه، ومسهل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه، ومدني نائي الحظ بعد نفوره واغترابه، ومطلع الشمس بعد المغيب، ومتدارك الخطب

(١) ابن خلكان: ج٢، ص٤٠٩.
(٢) النكت العصرية: ٣٤.

إذا أعضل بالفرج القريب. مبدع ما كان ويكون، ومسبب الحركة والسكون، محسن التدبير، مسهل التعسير: ﴿قل اللّٰهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾. والحمد لله الذي اختصَّ أولياء أمير المؤمنين بالاستعلاء والظهور، وذلَّل لهم جوامح الخطوب ومصاعب الأمور، وآتاهم من التأييد كل بديع مستغرب، وأنالهم من كل غريب إذا أورد قصصه أطرب، ومكنهم من نواصي الأعداء، وشملهم بعناياته في الإعادة والإبداء، وضمن لهم أحمد العواقب، وأرشدهم إلى الأفعال التي ثبتت لهم في صحائف الأيام أفضل المناقب، وهداهم بأمير المؤمنين إلى ما راق زلاله وتم غاية التمام، كما أنه كان لرضى الله سبحانه، وحسن ثوابه ومآله، ويمدهم في المجاهدة عن دولته بالتأييد والتمكين، ويحظيهم من أنوار اليقين، بما يجلو عن أفئدتهم دجى الشك البهيم، ويُظهر لأفهامهم خصائص الإمامة في حلل التفخيم والتعظيم، ويريهم أن خلوص الطاعة منجاة في المعاد بتقدير العزيز العليم.

والحمد لله الذي استثمر من دوحة النبوة الأئمة الهادين، وأقامهم أعلامًا مرشدة في محجة الدين، وبيَّن بتبصيرهم الحقائق، وورث أمير المؤمنين شرف مقاماتهم، وجعله محرز غاياتهم، وجامع معجزاتهم وآياتهم، وقضى لمن التحفَ بظل فنائه، واشتمل بسابغ نعمه وآلائه، وتمسَّك بطاعته، واعتصم بولائه؛ بالخلود في النعيم المقيم، والحلول في مقام رضوان كريم، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾».

ثم يقول:

«وراقب الله فيما ألقاه إليك، فقد فوض إليك مقاليد البسط والقبض، والرفع والخفض، والولاية والعزل، والقطع والوصل، والتولية والتصريف والصرف، والإمضاء والوقف، والغض والتنبيه، والإخمال والتنويه، والإعزاز

والإذلال، والإساءة والإجمال، والإبداء والإعادة، والنقص والزيادة، والإنعام والإرغام، وكل ما تحدثه تصاريف الأيام، وتقتضيه مطالب الأنام، فهو إليك مردود، وفيما علق بنظرك معدود. وأما العدل ومد رواقه، وإقامة مواسمه وأسواقه، والإنصاف واتباع محجته، والاعتماد على أحكامه وأقضيته، وكف عوادي الجور والمظالم، وحمل الأمر على قصد التصاحب والتسالم، وإظهار شعار الدين في إنصاف المتداعين إلى الشرع المتحاكمين، والدعوة الهادية وفتح أبوابها للمستجيبين، وإعزاز مَن يتمسك بها من كافة المؤمنين، والأموال والنظر فيها، والأعمال أقاصيها وأدانيها، فكل ذلك محرر في تقليد وزارتك الأول، وأنت أولى مَن حافظ على العمل به وأكمل ... إلخ»[1].

فمن هذه القطعة نستطيع أن نتبين كيف تبع الموفق ابن الخلال ما تبعه غيره من كتاب مصر الفاطمية من الخصال الفنية التي ذكرناها من قبلُ، ثم نتبين كيف استطاع الموفق أن يستغل مصطلحات بعض العلوم، وينظمها في سلك كتابته؛ ليضيف إليها قوة في الصناعة.

لم يكن الموفق كاتبًا فحسب؛ بل كان شاعرًا أيضًا، شأنه في ذلك شأن عدد كبير من الكتاب الفاطميين، ويظهر في شعره هذه الصنعة البديعة التي تظهر في نثره أيضًا، فهو يقول من قصيدة:

عذبت ليال بالعذيب خوالي ... وحلت مواقف بالوصال حوالي
ومضت لذاذات تقضي ذكرها ... تصبي الحليم وتستهيم السالي
وجلت موردة الخدود فأوثقت ... في الصبوة الخالي بحسن الخال
قالوا سراة بني هلال أصلها ... صدقوا كذاك البدر فرع هلال[2]

(١) صبح الأعشى: ج١، ص٣١٠.
(٢) ابن خلكان: ج٢، ص٤٠٨.

كما روي أن بيتًا أنشده كان سبب قطع صلة شاعر من شعراء القصر؛ ذلك أن الشاعر أبا القاسم بن هانئ -وكان من سلالة الشاعر ابن هانئ الأندلسي المعروف- كان يهجو ابن الخلال، فأضمر هذا له حقدًا، فاتفق في بعض المواسم أن تقدم الشعراء للنشيد بين يدي الخليفة، وانتهت النوبة إلى ابن هانئ، فأنشد وأجاد، فسأل الخليفة الموفق ابن الخلال رأيه في قصيدة ابن هانئ، فلم يسعه إلا أن يثني عليه، ويبالغ في وصفه، ثم قال: ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى ابن هانئ الأندلسي شاعر هذه الدولة، ومظهر مفاخرها، وناظم مآثرها، لولا بيت أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد. فقال له الخليفة: ما هو؟ فتحرَّج الموفق من إنشاده، وأَبَى الخليفة إلا أن ينشده، وفي أثناء ذلك صنع ابن الخلال بيتًا هجا فيه الأئمة الفاطميين.

فعظم ذلك على الخليفة، وقطع صلة الشاعر، وكاد يُفرط في عقوبته[١].

وتوفي ابن الخلال في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، سنة ست وستين وخمسمائة من الهجرة[٢].

عمارة اليمني الناثر:

وعلى الرغم من أن عمارة اليمني لم يكن من عمال ديوان الرسائل، ولم يُعرَف عنه أنه كان كاتبًا لأحد الأمراء، فإننا نستطيع أن نلمس في رسائله الإخوانية التي حُفظت لنا، خصائص الكتابة التي عُرفت عند كتاب الدواوين، وكما تأثَّرَ عمارة في شعره بمصر وبشعرائها، فقد ظهر أثر مصر وأثر كتَّابها في نثره. ونختم هذا الفصل من الكتاب برسالة طريفة أرسلها عمارة إلى صديق له ولي على أسوان، وقد رأينا أن ننقلها بأكملها؛ لما فيها من صنعة فنية، وطرائف لا نجدها في السجلات الرسمية التي أوردنا صورًا منها من قبل. كتب عمارة:

---

(١) ابن خلكان: ج٢، ص٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

إن جـــرى بيننـــا وبينـــك عتـــب ... أو تنـــاءت منـــا ومنـــك الـــديار
فـــالوداد الـــذي عهـــدت مقـــيم ... والـــدموع التـــي شـــهدت غـــزار

كان عزمي -أطال الله بقاء حضرة مولاي- أن أستفتح هذا الكتاب، بأليم العتاب، وأشحنه من الخطاب بما لا يُستطاب، وأقيم أعنة القوارص، وأسدد أسنة الخوارص، وأجلب بخيل التوبيخ ورجاله، وأجمع بين رويته وارتجاله، وأجهز تعنيفًا يضيق له البحر بمراكبه، والبر بمواكبه، ثم قلت السلام قبل الكلام، والملاطفة أولى من الملام، ثم عطفني حفظي لعهدك، وحفاظي على ودك، وشافع أولي، ووفاء سموءلي، فلاطفاني حتى لزمَا كفي، وخزما أنفي، فعدت من شب نار الوجد عليك، إلى التشبيب بذكر الشوق إليك، وكتابي هذا صادر عن صدر مملوء بودك، وقلب مصدوع ببُعْدك، وأسف لفقدك، لا يظعن قاطنه، ولا يخفى باطنه، وغرام لو تصور لك لبانت على وجهه جناية الفراق، ومراسم الاحتراق، ولعلمت أن صورتك في القلب مغروسة، ومكاتبتك منه محروسة، وأنك شغل خاطري ومسرحه، ومرمى ناظري ومطرحه:

يـــا حبـــذا ســـفوان لي مـــن مرقـــع ... ولـــربما جمـــع الهـــوى ســـفوان

بل حبذا ليالي محاضرتك ومذاكرتك، ومراوحتك ومباكرتك:

وأيامًـــا لنـــا ولكـــم نعمنـــا ... زمانًـــا في حواشـــيها الرقـــاق
ليـــالي نحـــن في غفـــلات عـــيش ... كـــأن الـــدهر عنَّـــا في وثـــاق

هذا يا مولاي فصل مقصور على صحيح التشوق، لا سقيم التسوق، وخاطرك، والكاف ألذ من الضمير في مخاطبتك، وأعذب من الماء النمير في مكاتبتك، تعلم صدق دخيلتي وودق مخيلتي. وأعود إلى ما في نفسي من عتابك، بل سبابك، والتظلم من جفائك، والتألم من عدم وفائك. يا أعصى من العود، وأقسى من الجلمود، بل يا قصير العزيمة وطويل الهزيمة، مضت لك شهور هي عندي دهور، لم تهزك فيها ريح الأريحية، ولا شيمة النفس

المضرحية، ولا استفزك المنصب الأبي ولا الحسب الغري، قطعت من مكاتبتك رسمي، فلا تلفظ في كتبك إلى الناس باسمي، فقد كنت أرضى منك أن أكون تحت الحسبلة لا فوق البسملة، ولقد رأيت لك كتبًا سلطانية، وأخرى إخوانية، فقبلت اسمك من عنوانها، قبل الوقوف على بيانها. هذا وأنا كنانة سرك، وخزانة حلوك ومرك، والمتهم فيك بما سمع من فيك، وأظن اسمي لو مرَّ بسمعك، لحذفت خمسيه ليكون عمى الأبصار، ولست أعلم لك عذرًا أحمل فعلك عليه وأنسب تحاملك إليه، إلا أن تكون طينة البلد والمنشا، غشي فؤادك منها ما غشي، فإنها الطينة التي تنبت العقارب، وتعادي بين الأقارب، وأنت تعلم أن آل الزبير والكنز إليهم منتهى رياسة أعلامها وسياسة أقلامها، ونحلتي سيفها وضيفها، ورحلتي شتاؤها وصيفها، من منهم إلا من عداوته أسباطية لأخيه، أنباطية في توخيه، يبدون المودة ويخفون العداوة، أهل حاضرة وفيهم جفاء البداوة، وهذا ما ليس لهم في دفعه حيلة، ولا في منعه وسيلة؛ لأنه طبع جرى في مائهم، ونسيم سمائهم، وامتزج بأهوائهم من أهوائهم، وإلا فخذ إليك، واحسب على يديك، كم هنالك من راسخ أنساب، وشامخ أحساب، وصحة أديم، ومجد قديم، وفخر عميم، وكرم صميم. أو ليس أسوان بهم مأوى الطريد، ومقر الشريد، وأمان الخائف، والذمة من الدهر الحائف، ثم هم سداد الثغر إذا انفتح، وسداد الأمر إذا فدح، وشعلة الزناد إذا قدح، وعنوان الصدق لمن مدح، العاملون إلا على الوفر، والفاصلون بين الإسلام والكفر.

وأرجع يا مولاي إلى مخاصمتك ومواصمتك، ومشاتمتك وملاكمتك، والعرض من عندك، والكف من عبدك، هذه مكاتبة غير مواتية، ومخاطبة الحمالين والنواتية، ومقاشرة، وسوء معاشرة، وكأني بمولاي إذا انتهى إلى هذا الحد، تمثَّل وأنشدَ:

لئن ساءني أن نلتني بإساءة ... لقد سرني أني خطرت ببالك

أأمنت أن أغضب فأقول: لا سقاني الله بنوئك، ولا هداني بضوئك، ولا بلاني بسوئك، فإنك من أسوان والهمزة إذا حُذفت عنها، فهمت تثنية السوء منها، وأنت الذي جلببت إليها التعنيف، وفتحت عليها الكنيف، فإن كان هوى البلد أعداك، فقد هوى بك وأرداك، وإن كانت الرياسة المحدثة -ولا أكسر دالها- ألهتك عن أصفيائك، وحسن وفائك، فما أخالك وفلان خالك، تجفو من ينصفك، وتنكر من يعرفك. أجدني يا مولاي قد اشتفى منك قرمي، وانطفأ عنك ضرمي، وأخمدت الفتنة نارها، ووضعت الحرب أوزارها، وسفرت المسألة عن جبينها، وأخذت صفقة ثمينها.

وهذا أوان تسرعي إلى حسن ذكرك، وتبرعي إلى حمدك وشكرك، وإتمام ما أعرضت عنه من ذكر الشوق إلى لقائك، والدعاء بطول بقائك، وأما هذا الكلام فهو هذر ساقط، وهدر ما له لاقط، وجلالة قدرك، وطهارة صدرك، وجميل اعتقادك، وخالص ودادك وسؤددك، وشرف قومك ونفسك، وحسن يومك وأمسك، يحملني على علمك بأن مكاتبتك من قلبي ثابتة المكان، قوية الأركان، ولولا ذلك لقلت للنفس سقيت مهلًا، وسلبت علمًا، ولبست جهلًا، ووجدت حزنًا، وعدمت سهلًا، ما هذه الجرأة على الأعراض المحرمة، والبيوتات المكرمة! أتعرفين بخلت يداك بمن تسمحين؟ وعميت عيناك إلى مَن تطمحين؟ إن لم يَقِك الوجل، فَلْينهك الخجل، وإن لم يرعك الريث فلا يستفزك العجل، أما تعلمين أن هذه رتبة الأحكام الشرعية، ورتبة أهلها واجبة مرعية؛ بل رتبة النظر والأشراف، ونفاذ الكلمة في الأوساط والأطراف.

واتصل بي أن مولاي قبض يده عن أحكام القضاء، وبسطها في الأموال والإمضاء، وإن كان الكسل حدَّ من نشاط نفسك، وطوى بعض بساط أنسك، وأنا أعينك أن تغلط في وهمك، أو يعترض الشك على فهمك، لا تقل ذهبت أجمل الخدمتين، وأكمل النعمتين؛ فإن من زاد في الكراء ملك الدار، وهذه

الشقراء والمضمار، وأما الخدمتان: فها أنا أجلوهما على مرآة عقلك وهي صافية، وأعرضهما على بصيرة فضلك وهي شافية؛ أما الشريعة فهي ملسوعة عدمت الراقي، ومريضة روحها في التراقي، حدودها متروكة، وحرماتها مهتوكة، ومعالمها مطموسة، وأعلامها منكوسة، وقد نفل أديمها، ونسي قديمها، وعفي وردها، وبلي بردها، حتى وقعت الزهادة في لفظ الشهادة، وثقل الأذان على الآذان، وكان القضاء لا يتولاه إلا من قرأ ودرى، وشبع من المعارف وتضلع، وتشوق إلى الكمال وتطلع، وبسط يده بالعطايا، وقبض رجله عن الخطايا، وقد صار القضاء في وقتنا لما قضى الله به من مقتنا، مبذولًا لمن بذل قرضًا، معروضًا على مَن لا يصون عرضًا، شعارهم طول السبال والقامة، وعرض اللحية والعمامة، يعرفون أن اشتقاق الرشا من الرشوة، وينكرون الفرق بين النشا والنشوة. هذه حال الشرع في الأمصار الواسعة، والأقطار الشاسعة. فأما أسوان فهي كما قال أبو الفتح البستي:

أكتاب بست كم يحاسدكم على ... كتابة بست وهي سخنة عين
وخفي حنين فوق ما تطلبونه ... فكم بينكم يا قوم حرب حنين

وهل في أحكام أسوان غريبة لا تعرف، ونازلة تستطرف؟ ما من أحد إلا وهو يعرف السلف على الزبيب والتمر، والوالي يصفع المعربدين على المزر والخمر، حاكمها مستريح من إقامة الناموس، وإحضار المصحف لليمين الغموس؛ لأن يمين التجار «وإلا يغرق في شبر من الماء»، ويمين الحمال «وإلا عذبت في صحراء عيذاب بالظما»، والعشار يقول: «وإلا فالكلب على عياله، والحمار على أخت خاله». والسفساف يقول: «وإلا لصفع الوالي قفاه، ورض فاه».

هذه الخدمة يا مولاي قد شرحت لك حالها، وعرضت عليك جمالها، وهي زبدة كلها زبد، ومورد صفوه زبد، وعيبة محشوة بالعيوب، وذنوب مملوءة

بالذنوب. وأما التصرف في الأموال، والبسطة في الأعمال، فأنت تعلم أن المال بلغك من المجلس العالي إلى أن أخلاك في ركابه، واختصك بخطابه، وكنت متكسلًا فتنشطت، ومنقبضًا فتبسطت، ونظر إليك وخلع عليك، ووعدك من الصيت والتنويه، فوق ما تأمله وتنويه، ثم افرض أنك وحاكم ثغرك وقاضي مصرك قدمتما على الوالي فأدلى القاضي بالدنية، وأدليت أنت بالهدية، ومت على الوالي بوقاره، ومتت بما قدمت إلى داره. هنالك والله تعرف أن الجمال بخدمة المال، وإلى اليمين فضل الشمال، وأن صاحب الإحسان أمكن من صاحب الطيلسان، ثم لو جمعكما مسجد الجامع، وبرزتما للناظر والسامع، لامتلأ مجلسك بالعمال والخزان، والمؤدين إلى الوزان، وأطافت بك الأعوان السلطانية والنواب الديوانية، وحفت بك أرباب الرواتب والجوازي، ولم تجد من قولك من يراجع أو يجازي، وقلت قدموا هذا وارفعوه، وأخروا ذلك واصفعوه. وأما القاضي فلم يكن مجلسه يغتص، ومقصورته تختص، إلا باليتامى والأرامل، والمرضعات والحوامل، ويتيم ظلمه عمه، وأعرج رجله مخلوجة، ويده مفلوجة، ومشايخ عظامهم نخرة، وكوادمهم بخرة. ثم القاضي -أيده الله- نائب حكم الصعيد، وأنت نائب صاحب العصر والقصر المشيد.

وما ضر أرباب الدواوين أنهم ... نصارى وإن لم يؤمنوا بمحمد
وها نحن إن رمنا سلامًا عليهم ... دفعنا عن الأكمام فضلًا عن اليد

وهذه صورة الحال، من غير انتحال، وكأني بك إذا فهمت أطربت، وشددت يدك على ما فيها وربطت، وعلمت مقدار حظك فاغتبطت. وأريد يا مولاي أن أصطادك بهذا الجنب، أربط مرزأتي في هذا الذنب، وأشوي في نارك سمكتي، وأجلب إلى شوقك رمكتي. فلأمر ما نصبت هذه الراية، وأجريت إلى هذه الغاية، وجازفت وحققت، وعن صبوح رققت، علمك محيط بكثرة ما أتلف، وقلة ما أخلف، وغنى نفسي عن سؤال الغمام، فضلًا عن الأنام، وليس

للتوسع لأني مبذر، بل سائل من أهل اليمن والحجاز لا يعذر، قد ركب اللجة الخضراء، والقفرة الغبراء، وقصد بابي، ونزل جنابي، أفأصون صون قرضي، وأبذل عرضي:

وإن أحق الناس باللؤم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

وأمَّا حاشيتي الضافية، وعدتي الوافية، فأنت في كثرتها أصدق مخبر، وأفصح معبر، ولما طالت محنة الغز وعرضت، ورجوناها أن تصح فمرضت، رجعت إلى كنانة ذكري، وخزانة فكري، فكنت أكرم خاطر في خاطري، وأحسن وجه يمثل لناظري، وسيرت إليك بعض خروجاتي للجاري الذي جمدت أنهاره، وخمدت ناره، ومبلغه يسير في جنب كرمك، حقير إذا قُرن بهممك.

فكم في الأرض من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري

ولا تقل كم بين الفسطاط وآخر الصعيد، إن هذا لهو المرمى البعيد، فلو كنت أعلم أني عندك ممن ينده سربه، ويكدر بالأعداء شربه، لقصرت ما أطلته، وبخلت بما بذلته، ولكني قلت هذا أمر قد سهلت مسالكه؛ إذ أنت مالكه، وغيري يقبل من جودك بعض مجهودك، وقد أقسمت عليك وإبرار القسم إليك، للنفس الأمارة: سامحيني في عمارة، واتركي عنك قصور باعك، وجفاء طباعك، فإن هذا سواد الناظر، بل ضمير الخاطر، وسقف السماء، وعذب الماء، وكأني بالوصول وقد آل إلى الحصول، وبالسؤال في يد الرسول:

ألا إن نفسًا بين جنبي محمد إذا هم بالمعروف قالت تقدم
ويا طالما قالت له عند فرصة من الجود خذها لا تفتك فتندم

يا مولاي قد أجلت الرسول شهرًا، وأنا أعده دهرًا، وأقف حيث انتهيت وأسأل الجواب عما أنهيت، فإن الحاجة سائق حثيث، والوقت غريم خبيث،

ولرأيك الفضل المعروف بالتفضل، والطول المشفوع بالتطول، ولولا أن هذه الرسالة صادرة عن قائل لا يتقوَّل، واردة على قابل لا يتأول، لسألت كرمك عن بسط العذر عما فيها من التقصير، وحسبنا الله ونعم النصير[1].

فهذه الرسالة على الرغم من إسرافها في الطول، تجمع بين عدة فنون وأغراض كانت من أغراض الشعر، ولكن تقدم النثر منذ القرن الثالث للهجرة في كل الأقطار الإسلامية، وجعل النثر يعرض للأغراض التي كانت للشعر من قبل، ففيها ذكر الفراق والعتاب، والتهكم الذي هو أقرب إلى الهجاء ... إلى غير ذلك من الموضوعات.

ثم نرى هذه الرسالة تجمع هذه الخصائص الفنية التي ظهرت عند كل كتاب مصر الفاطمية، فالرسالة تقوم على السجع، ثم على هذه الألوان المختلفة من البديع، من تورية واقتباس، وتضمين واستشهاد، ومراعاة النظير، وتشخيص، وغير ذلك من هذه الألوان التي نفق سوقها عند كتاب مصر الفاطمية، ولم يشذ عن اتباعها كاتب واحد من كتابهم، فإذا جاء القاضي الفاضل في أواخر العصر الذي نؤرخه، والعصر الذي يليه وأسرف في استخدام هذه الألوان البديعية، فهو لم يأت بشيء جديد، إنما أخذ عن أساتذته من كتاب مصر الفاطمية طرائفهم في الكتابة، وسار على منهجهم وسننهم، ولكن اشتهر أمر القاضي الفاضل في التاريخ الإسلامي والتاريخ الأدبي أكثر من شهرة أساتذته كتاب مصر الفاطمية؛ لأن القاضي الفاضل قرن اسمه باسم صلاح الدين الأيوبي، فكان وزير صلاح الدين ومستشاره، والمؤرخون أشادوا بصلاح الدين، فمن الطبيعي أن يرفعوا شأن القاضي الفاضل، ويثنوا عليه الثناء كله، حتى بالغَ بعض الكتاب. فقال: إن القاضي الفاضل ابتدع طريقة جديدة في الكتابة عُرفت بالطريقة الفاضلية، وكم كنت أود ألا يتسرع بعض

(١) النكت العصرية: ج٢، ص٤٣١.

المحدثين في أحكامهم وكتاباتهم التي ساروا فيها على نمط من سبقهم، فنسبوا إلى القاضي الفاضل هذا المذهب الجديد -في نظرهم- عن الكتابة في مصر، فالقاضي الفاضل لم يكن إلا من تلاميذ كتاب مصر الفاطمية.

وهذه الطريقة التي نُسبت إليه، عرفها كتاب مصر الفاطمية؛ بل عرفها كتاب مصر منذ عهد الطولونيين.

خاتمة

لعلك أدركت الآن شيئًا عن الحياة في مصر الفاطمية، وكيف تطورت هذا التطور الخطير بعد عصر الإخشيديين، فقد كانت عقائد الفاطميين سببًا قويًّا في تطور الحياة؛ ذلك أن التشيع لم يكن له أثر يُذكر في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى دخلها جوهر الصقلي، فإذا بمصر تصبح بعد ذلك دولة شيعية، ويتخذها أئمة فرقة من فرق الشيعة مقرًّا لحكمهم، واجتهد الفاطميون في أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأقطار التي كانت تخضع للعباسيين أو لأمويي الأندلس، وأن يبسطوا سلطان مصر على ما جاوَرَها من البلدان، فاتسعت رقعة أملاك مصر الفاطمية، كما عمل الدعاة على بث تعاليم الفاطميين في كل البلاد الإسلامية، فاتجهت القلوب والأنظار ممن شملتهم هذه الدعوة إلى صاحب مصر، وأصبحت القاهرة كعبتهم التي إليها يحجون، وأصبح لمصر مكانة خاصة تختلف تمام الاختلاف عن مكانتها في عصر الولاة الذي سبق العصر الفاطمي.

ورأينا شيئًا عن الحياة الاجتماعية، وكيف كانت مصر على جانب عظيم من الثراء، فالأموال والهدايا كانت تترى على الأئمة بمصر، وهؤلاء بدورهم أسرفوا الإسراف كله، وأغدقوا نعمهم على المقربين إليهم وعلى الشعب في كل مناسبة من مناسباتها، وما كان أكثر هذه المناسبات في عصر الفاطميين، فهناك أعياد ابتدعها الفاطميون لم يعرفها المصريون من قبل، وأعياد أدخلها المسلمون في مصر منذ الفتح العربي، ولكنها ازدادت بهجة في العصر الفاطمي، وهناك أعياد أخرى ليست إسلامية، وإنما هي أعياد مصرية خالصة كان المصريون منذ أقدم عصورهم يحتفلون بها، فورثها الأحفاد عن الأجداد. أضِفْ إلى ذلك أعياد المسيحيين التي اشترك فيها المسلمون في عصر الفاطميين، فكل هذه

الأعياد والمواسم طبعت العصر الفاطمي بطابع الترف والبهجة والتأنُّق في كل شيء.

والعقائد الفاطمية تقوم على العلم والعمل معًا؛ لذلك اهتم الفاطميون اهتمامًا خاصًّا بألوان العلوم المختلفة، ولا سيما ما كان منها يمتُّ بصلة قريبة أو بعيدة إلى عقائدهم مثل علوم الفلسفة، فازدهرت هذه الدراسات في مصر الفاطمية ازدهارًا لم يسمع عنه من قبل، فقد احتضن الفاطميون هذه الدراسات، وشجعوا العلماء على المضي في أبحاثهم، فكانت نتيجة ذلك هذه المجلدات الكثيرة التي تضمها خزانة الدعوة باسم كتب الحقيقة، ولما دالت دولة الفواطم ضعفت هذه الدراسات، وقلَّ أن نجد لها أثرًا في مصر، وإني زعيم أنه لو لم تكن هناك صلة خاصة بين بعض علوم الفلسفة وبين العقائد الفاطمية، ما كانت هذه العلوم تزدهر وتقوى، فهي أثر من آثار العقائد الفاطمية، حقيقة اهتم الفاطميون بألوان العلوم المختلفة، وأسسوا دار العلم، وجمعوا فيها الكتب الوافرة في جميع ألوان العلوم والمعرفة، ولكنه هذه العلوم الأخرى كانت تسير في مصر سيرها الطبيعي، وتتطور تطورها الطبيعي، حتى أنها لم تتوقف بعد عصر الفاطميين، كما توقفت الدراسات الفلسفية، وكل ما في الأمر أن الفاطميين اهتموا بها اهتمامهم بكل عمل علمي، فشجَّعَ الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ، بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب وعلوم الفلسفة الأخرى، ومن هنا ازدهرت الحركة الفكرية في مصر الفاطمية ازدهارًا عظيمًا.

وكذلك نقول عن الحياة الأدبية: فقد كان الشعراء المقربون إلى الأئمة، وهو شعراء القصر أو شعراء الحضرة، يُجهدون أنفسهم في أن يلموا بالعقائد الفاطمية في مدائحهم، بحيث أصبحنا لا نستطيع أن نفهم مدائح الشعراء أو سجلات الكتاب، إلا إذا طبقنا النظرية التي أطلقت عليها «نظرية المثل

والممثول»، وهي تقوم على فهم دقيق للعقائد الفاطمية، حتى ندرك ما أراده الشاعر من مدحه، وإلا كان فهمنا لهذا الشعر قاصرًا غير صحيح، فالعقائد أثَّرت تأثيرًا قويًّا في الحياة الأدبية تأثيرها في جميع نواحي الحياة.

وهنا نقف لنتساءل: هل مُحيت الدعوة الفاطمية من مصر بعد زوال دولة الفاطميين؟ والجواب عن ذلك يعيدنا إلى الحديث عن مدى قبول المصريين لدعوة الفاطميين؛ ذلك أن أكثر المؤرخين يذهبون إلى القول بأن مصر رفضت مذهب التشيع، إلى أن هددهم المعز بسيفه وأغراهم بذهبه، فاعتنقوا عندئذ التشيع، وعلى الرغم مما في هذا القول من مبالغة، فإننا لا ننكر أن من المصريين من اعتنق الدعوة الفاطمية رغبةً أو رهبةً، وأن البعض الآخر استمر على مذهبه السني. وذكرنا أن من أسباب انقراض الدولة الفاطمية تهاون القائمين بالأمر فيها بالإمامة التي هي عماد الدعوة، فانهارت الدعوة بسبب ذلك، وسهل على صلاح الدين أن يديل الدولة، وعلى الرغم من ذلك فقد حدثنا بعض المؤرخين عن شخصيات كانت تدين بالدعوة الشيعية في عهد الأيوبيين والمماليك، ونظرة إلى كتاب الطالع السعيد للإدفوي، أو كتاب الضوء اللامع للسخاوي، ترينا عددًا من أماثل المصريين كانوا يتشيعون، من ذلك ما ذكره الإدفوي عن إبراهيم بن محمد بن علي بن مطهر بن نوفل الإدفوي: «ثم عكف على حفظ كتاب الله العزيز، فاستحق به التمييز، واستمر إلى آخر عمره على إقراء القرآن ملازمًا للصلاة والتلاوة والعبادة، وهو كل يوم من الخير في زيادة، مع صدق لهجة وصيانة، إلا أنه كان من أتباع الشيعة، أصحاب تلك البدع الشنيعة، شاهدته لما حضر داود الذي يدعي أنه ابن سليمان بن العاضد إلى إدفو في سنة سبع وتسعين وستمائة، وهو بين يديه، وقد أخذ العهد عليه، وهو ينشده قصيدة نظمها، منها:

ظهر النور عند رفع الحجاب فاستنار الوجود من كل باب

وأتانـــا البـــشير يخـــبر عـــنهم ناطقًـــا عنـــه بفـــصل الخطـــاب[١]

ويروي الإدفوي أيضًا قصة قطنبة الأسفوني الشاعر، عندما شكاه بعض أهله إلى الوالي بقوص، فجاء الوالي ومعه الناظر الشمسي الآمري وكان شيعيًّا، فلما رآه قطنبة قال: يا آل أبي بكر! فاغتاظ الناظر، فأنشد قطنبة:

حديث جرى يا مالك الرق واشتهر بأسفون مأوى كل من ضل أو كفر
لهـــم مـــنهم داع كتـــيس معمـــم وحسبك من تيس تولى على بقر
ومـــن نحـــسهم لا أكثـــر الله مـــنهمُ يـــسبوا أبـــا بكـــر ولم يـــشتهوا عمـــر
فخـــذ مـــالهم لا تختـــشي مـــن مـــآلهم فـــإن مـــآل الكـــافرين إلى ســـقر[٢]

ونذكر أنه عندما تحركت الشيعة حول داود بن شعبان الذي تحدثنا عنه من قبل في سنة ٦٩٧هـ، ادعى هذا الدعي لمن استجاب له أنه يتحمل عنهما لصلاة، فقبل كلامه، وفي هذا يقول علاء الدين علي بن أحمد الأسفوني لبعض أهل بلدته من قصيدة أنشدها:

ارجـــع ســـتلقى بعـــدها الأهـــوالا لا عـــشت تبلـــغ عنـــدنا آمـــالا
يـــا مـــن تجمـــع فيـــه كـــل نقيـــصة فلأضربـــن بـــسيرك الأمثـــالا
وزعمـــت أنـــك للتكلـــف حامـــل وكـــذا الحـــمار يحمـــل الأثقـــالا[٣]

ويقول الإدفوي أيضًا عن الشيخ بهاء الدين القفطي المتوفى سنة ٦٩٧هـ: «وفتح إسنا فإنه كان بها التشيع فاشيًا، فما زال يجتهد في إخماده، وإقامة الدلائل على بطلانه، وصنف في ذلك كتابًا سماه «النصائح المفترضة في فضائح الرفضة»، وهموا بقتله فحماه الله منهم»[٤]. ويذكر عن عبد القادر بن مهذب

(١) الطالع السعيد: ص٣١.
(٢) المصدر نفسه: ص١١٨.
(٣) الطالع السعيد: ص١٩٧.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٩٧.

الإدفوي المتوفى سنة ٧٢٥هـ أنه كان إسماعيلي المذهب، مشتغلًا بكتاب دعائم الإسلام[١]. معنى ذلك أن التشيع لم يقتلع من مصر بزوال دولة الفاطميين، ووجود حكومات سنية متعصبة لمذهبها، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إن المصريين الآن لا يزالون متأثرين ببعض العقائد الفاطمية التي كانت في مصر منذ ألف عام تقريبًا، فأهل السفه من المصريين إذا أرادوا سب شخص قالوا: يا عمر! وهذا بقية من بقايا سب السلف الصالح في العصر الفاطمي، وأهل مصر إلى الآن إذا زاروا ضريح «السيدة زينب» وضعوا نماذج لسفن على الضريح، وهذا أثر آخر من تأثير العقائد الفاطمية الآن في المصريين، فهم يتبعون الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: **«أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تركها غرق»**. ولا يزال المصريون إلى اليوم يلتمسون البركة والشفاعة من أهل البيت، ويطوفون بأضرحتهم لقضاء الحاجات! على نحو ما كان يُفعل في أيام الفاطميين، والمصريون إلى اليوم يذكرون عليًّا والحسن والحسين وفاطمة أكثر مما يذكرون أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة الأبرار. ومن ناحية أخرى نرى المصريين اليوم يحتفلون برؤية الهلال على نحو ما كان يفعله الفاطميون، وإن كنا نخالفهم في أننا الآن نأخذ برؤية البصر، وكان الفاطميون يأخذون برؤية الاستبصار. ولا نزال إلى اليوم نحتفل بمواسم الفاطميين، مثل أيام عاشوراء التي اتخذناها فرحًا، وكانت في أيام الفاطميين أيام حزن، ونحتفل بليلة نصف شعبان، وليلة السابع والعشرين من رجب، وهي أعياد فاطمية لم يعرفها المصريون قبل العصر الفاطمي، ونرى الخطب المنبرية الآن في بعضها طابع التشيع الذي كان في العصر الفاطمي.

---

(١) المصدر نفسه: ص١٧٥.

وإذن فمصر لم تستطع إلى الآن أن تتخلص كل التخلص من آثار التشيع الذي نشره الفاطميون.

وبعدُ، فهذا الكتاب الذي نقدمه الآن صورة من صور الحياة الأدبية والعلمية في مصر الفاطمية، ولا أدَّعي أنها صورة كاملة صحيحة؛ لأن آثار الفاطميين الأدبية والعلمية فُقِدَتْ، ولم يَبْقَ منها إلا النزر اليسير، وهو الذي اعتمدت عليه في هذا البحث، ولعَلِّي وُفِّقْتُ.